وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ريمون آرون

أفيون المثقفين

مواقف الفكر المعاصر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

دار الكاتب العربي
للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧
هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مقدّمة

بقلم قدري قلعجي

ان نظرة سريعة نلقيها على تطور الاحداث السياسية في عالمنا العربي، تكشف لنا عن ان ظاهرة تدعى « اليسارية » قد برزت بشكل واضح على المسرح السياسي .

وعلى الرغم من ان « اليسارية » ظاهرة غريبة عن واقع مجتمعنا العربي ، فقد استطاعت ان تلعب دورا دعائيا واسعا من خلال اساليبها الديماغوجية وانتهازيتها الصارخة .

الا ان هذه الموجة اذا كانت قد استطاعت ان تغزو مجتمعنا العربي ، وتتسلل الى حناياه ، في محاولة لقلبه رأسا على عقب ، متوسلة شعار التحرير ، ومتسترة بقناع النضال ، ممزقة المجتمع الى طبقات ، ومحولة المبادىء الى شعارات ، ومصنفة الناس كما شاءت لها الاهواء والاحقاد ، الا انها لم تلبث ان انكفأت متقهقرة الى الوراء ، نتيجة اصطدامها بالواقع ، وانكشاف زيفها وتضليلها ، وقد واكب حركة انحسارها تقليم اظافر المتطرفين من دعاتها في اكثر من ساحة وموقع .

على ان من الضروري ان نشير هنا الى ان مجتمعنا العربي قد تعرض خلال الفترة التي خاض فيها غمار معاركه التحررية الضارية لنيل استقلاله السياسي ، الى العديد من حركات المد والجزر السياسيين ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن انحسار الموجة اليسارية في الفترة الاخيرة لا يعني البتة زوالها النهائي ، لاسيما وانها قد برعت في ممارسة ما تسميه « النقد الذاتي » الذي تلجأ اليه كلما سقطت اقنعتها للاعتراف بأخطائها في سبيل لملمة شتاتها وحشد طاقاتها ، للانقضاض من جديد على انظمتنا الاجتماعية حتى تحقق مطامعها في التسلط على الحكم ، ونسف الاسس القومية التليدة .

فواقعنا العربي شديد التعقيد ، متعدد المشاكل ، لما يجابه من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

تحديات عالمية بالغة الخطورة ، فيسارية تحاول جاهدة ان تخرب في الداخل والخارج، واستعمارية ذات شكلين اثنين : امبريالي ـ اقتصادي للغرب ، وتوسعي استيطاني للصهيونية ، مما يجعلنا نحارب على اكثر من جبهة وعلى مستويات مختلفة ، ومن واجبنا ان نكون في حالة نفير دائم ووضع تعبوي مستمر ، لنخرج ظافرين من دوامة الصراع ما بين الشرق والغرب الهادف كل منهما الى السيطرة على هذه المنطقة ، ولندرأ الخطر اليساري ، الذي لا يقل مطلقا عن خطر التحالف الامبريالي الصهيوني .

واذا كانت « اليسارية » ظاهرة غربية اخذناها بالتقليد والمحاكاة دون تفكير او تمحيص ، حتى أضحت الزي الشائع بيننا كالميني والماكسي وما بينهما، فيجب أن نبحث عن جذورها في الغرب ونرى رأي الغربيين فيها. ولعل افضل من كتب في هذا الموضوع البروفسور ريمون ارون استاذ « العلوم الاجتماعية في المدنية المعاصرة » في كوليج دوفرانس ، في كتابه « أفيون المثقفين » .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يدور في الاغلب الاعم حول واقع اليسار الاوربي من جهة ، وان الظروف الموضوعية التي تمر بها القوى السياسية في بلد ما تجعلها مختلفة في نطاق تحركها وفي شعاراتها وظروفها عن البلدان الاخرى من جهة ثانية،الا ان ذلك لا ينفي ان اليسارية ذات نشأة فكرية واحدة ، وانها تعمل في اطار واحد ، مما يفرض عليها التقارب في المناهج والغايات ، وان تعددت اليها السبل ، واختلفت طبيعة الارضية السياسية وخلفيتها التاريخية التي تعمل النزعة اليسارية في نطاقها .

الثورة الصناعية
وبروز الظاهرة اليسارية

ان نشوء النزعة اليسارية يعتبر من كبريات الظواهر في عالمنا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المعاصر ، وقد اخذت تبرز اكثر فأكثر كحركة ليس لها من هدف الا تحدي القيم الاخلاقية والتقاليد القومية ، في نزوع منها الى قلب المجتمعات القديمة او ابقائها في خضم الفوضى الارهابية العاصفة .

واذا ما أردنا التحديد التاريخي ، كانت اولى بوادر الظاهرة اليسارية في قلب المجتمعات البشرية، مع بدء الثورة الصناعية التي اطلقت الطاقات المادية من عقالها لتضعها في خدمة الانسان وبناء صرح الحضارات على أسس جديدة .

غير ان الثورة الصناعية التي تقدمت بالانسانيةخطوات واسعةالى الامام،قد اثارت ردود فعل عنيفة في مجمل تكوين البناء الاجتماعي ، في فترة انتقاله من مرحلة تطورية الى مرحلة اجتماعية اكثر تطورا وأرفع مستوى.

وبذلك يمكن القول أن الظاهرة اليسارية هي الابن غير الشرعي للثورة الصناعية ، لانها التعبير عن حصيلة النتائج السلبية التي تكونت ونمت في قلب الثورة الصناعية، هذه الثورة التي كان لها ولا ريب جوانبها السلبية ايضا ، ومن مظاهر هذه الجوانب القلق الفكري والسخط والتمرد والانتفاض الرهيب المدمر في بعض الاحيان .

على انه تجدر الاشارة هنا الى ان الظاهرة المرضية المتمثلة بقوى اليسار ، ليست حتمية تاريخية او ضربة لازمة لا بد من ان تواكب الثورة الصناعية ، اذ استطاعت بعض الدول الاوروبية ، وفي طليعتها بريطانيا ، ان تحقق ثورتها الصناعية ، وتحتل مركزا طليعيا في الاقتصاد العالمي ، دون ان تبرز فيها ظاهرة الانقسام ما بين يسار ويمين ، بمثل تلك الشدة والعنف والتهور التي ظهرت في فرنسا . ومرد ذلك الى انتهاج بريطانيا السبل الاصلاحية المعتدلة والمتدرجة .

يقول ريمون ارون : « لقد تم الانتقال من نظام « العهد القديم » الى « المجتمع الحديث » بكل وحشية وفظاظة في فرنسا ، بينما تم ذلك على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الجانب الاخر من القتال بكل روية وتعقل . فقد توصل الانكليز الى الحصول على حكم دستوري سليم علىمراحل متعددة ،واحدةبعد اختها. لقد طوروا مؤسساتهم الحالية من برلمانهم القديم الذي ترجع اصوله التاريخية الى اواخر القرون الوسطى » .

الانقسام الدائم بين قوى اليسار

ويتحدث ريمون ارون عن«خرافة وحدة اليسار»، فاليسار الفرنسي لم يكن ابدا موحدا ، كما انه في حالة تبدل مستمر ما بين مرحلة تاريخية معينة ومرحلة سابقة لها او لاحقة عليها :

« ان هذا اليسار المهووس كان فوضويا ، معقدا ، يبعث على الفزع شأنه شان الحوادث الفظيعة التي خلقته فانتسب اليها . لقد كانت وحدته وحدة خرافية لا اكثر ، فهو لم يتحد على الاطلاق ، بل ظل مبعثرا شذر مذر ... »

وكانت الخلافات القائمة ما بين فصائل هذا اليسار على أشدها ، نتيجة رغبة كل فصيل في الاستيلاء على الحكم بمفرده ، وتقرير وسائله الخاصة بذلك :

« وكانت هذه الجماعات اليسارية لا تتنافس فيما بينها من اجل الاستحواذ على الحكم فقط ، ولا تحارب بعضها طمعا في السيطرة المفردة وحسب ، كلا ، بل كانت تختلف ايضا بصدد شكل الحكومة التي يجب ان تكون في فرنسا والوسائل التي يجب اصطناعها بغية التوصل الى تحقيق تلك الحكومة ، ومدى الاصلاحات التي يكون على تلك الحكومة ان تقوم بها » .

وفي مرحلة توطيد دعائم الجمهورية الفرنسية الثالثة،التي استطاعت ان تكبح من جماح غلاة اليسار ، وتضع حدا للنزاعات الناشبة ما بين فصائل اليسار البرجوازي ، كانت هنالك زعنفة جديدة تبرز الى الوجود ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

حاملة معها مبادىء فلسفية جديدة ، وثورة على مجموع القوى الاجتماعية التي لا تدخل في نطـاق خطهـا السياسي .

لقد برز يسار ضد الرأسماليين، بعد ان كان اليسار في السابق ضد الملكيين ، وغدا هذا اليسار الجديد يدعو الى « ملكية الشعب لوسائـل الانتاج»،وقامت فلسفته على القواعد والمبادىء الماركسية التي تبشر بحلول طبقة البروليتاريا في الحكم . فهذه الطبقة في رأي الماركسية هي وريثـة الطبقة البرجوازية ، وستكون مهمتها تحريـر المجتمـع الانساني وبنـاء الشيوعية (الفردوس الارضي) من خلال الدكتاتوريـة التي ستفرضهـا على الشعوب .

ولقد قادت التطورات السياسية اللاحقة ، وظهور المعسكر الشيوعي، الى ان يصبح الشيوعيون ، وبقدرة قادر ، الممثلين الوحيدين لطبقة العمال تحت ستار كثيف من الخداع بأن الحزب الشيوعي هو المحامي المدافع عن حقوقها والراعي لمصالحها والعامل على ايصالها الى دست الحكم .

خرافة الثورة واسطورة البروليتاريا

لقد كان لظهور الماركسية كفلسفة اشتراكية ، ومن ثم انتصار الثورة الشيوعية في روسية ، وانقسام العالم بعد الحرب العالمية الثانيـة الـى معسكرين رئيسيين : شيوعي ورأسمالي ، كان لهذه العوامـل مجتمعـة أثرها الكبير في تطور اليسار،ليس في نطاق الدول الغربية فحسب، وانما في معظم أصقاع العالم ، وبرزت الشيوعية كقوة صدام أساسية تعتمـد العنف ، وتسعى الى اضرام نيران الثورات داخل المجتمعات والنظم التي تغاير معتقداتها ، سالكة في سبيل الوصول الى اهدافها هذه مناهجهـا الفكرية الخاصة بها ، وفي رأس تلك المناهج والشعارات ، الثورة التـي يجب ان تخوضها « الطبقة البروليتارية » لهدم النظم القديمة ، والتطويح بالطبقات السابقة ، لتحقق بعد ذلك عن طريق ديكتاتوريتها ـ ديكتاتوريـة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

البروليتاريا ـ المجتمع الشيوعي اللاطبقي .

ويقول ريمون ارون في كتابه: «ان البروليتاريا كما يراها الماركسيون هي الطبقة التي على عاتقها مهمة تحقيق الخلاص العام للبشرية » ويحمله هذا التعريف لمهمة البروليتاريا ، على عقد مقارنة بينها وبين الافكار التي سادت العالم قبل ميلاد المسيح حول « ترقب اليهود ميلاد مسيح منتظر » لينتهي الى القول بأن كلتا الفكرتين قد اعتبرتا « الجديد المنتظر نقطة انقطاع عن الماضي المؤلم »، ذلك ان هذين المفهومين يجمعهما قاسم مشترك واحد هو تحقيق « الفردوس الارضي » وتجسيد فكرة « مملكة الله » .

وعلى هذا فان الحركة الشيوعية تعمل على بعث الخرافات والاساطير اليهودية القديمة التي تراكم عليها غبار السنين ، مما يدل دلالة واضحة على ان الحركة لا تقتصر على الضياع في متاهة الخرافات ، وانما تسعى لانزال الخرافة في مداميك الواقع لتكون الستار الذي تخفي وراءه كل ركام الاحقاد والامراض النفسية والشهوات الدنيئة للسيطرة على الحكم ، وهي بذلك تريد من هذه « البروليتاريا ان تلعب دور المسيح المرتقب ليخلص الناس عن طريق العنف » .

و « المسيح » في هذه الحالة ، اي في نطاق المفهوم الماركسي ، هو طبقة ثورية تضم في صفوفها الملايين من الشغيلة الذين يجب عليهم ان يخضعوا لاوامر وسيطرة « حزب الطبقة البروليتارية » اي الحزب الشيوعي .

ويقوم ريمون ارون بدراسة هذه الفئة التي جعل منها الماركسيون طبقة متميزة عما سواها ، بعد ان مزقوا المجتمع الانساني « شرائح يضعون واحدة منها فوق الاخرى ، ثم يشيرون الى ما فعلوه فيقولون : ان هذه الشريحة هي الطبقة البرجوازية او هي الطبقة الارستقراطية او هي طبقة البروليتاريا » .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبعد ان يركز أرون على واقع هذا التقسيم المصطنع ، والانجرار وراء العاطفة للدفاع عن تعريف الماركسيين لمفهوم « الطبقة » ينتقل الى القول بأن البروليتاريا هي تلك الفئة الاجتماعية من الشغيلة التي تعمل بمجهودها العضلي ، وتكسب اجرها عن طريق بيع هذا المجهود ، ولهذا فان « البروليتاريا طريقة للعمل اكثر منها صنفا من الناس في حقيقة الامر » .

وبهذا التحديد يرى ارون ان البروليتاريا ليست فئة ثابتة ولا متجانسة وانما هي « متأرجحة في تكوينها ، فهي واسعة الحدود تضم عناصر مختلفة ، واخرى لا تكاد تضم شيئا » .

غير ان « خرافة البروليتاريا » لا تقل البتة عن خرافة « امية البروليتاريا » ، فالشغيلة هم ابدا فئة وطنية ، لانهم قبل كل شيء ، من ابناء الشعب ، ومن ثم كان تعاطفهم القومي أعمق بكثير من النزعة الامية المفروضة عليهم .

ولقد ذهب بعض مفكري اليسار الى ان يقدم تحديدا للبروليتاريا أشد ضيقا ، وبالتالي اكثر تزمتا ، فسماها « الفئة الثورية من العمال » ، وبهذا يفترض في البروليتاريا ان تكون ذات نزعة عدوانية ، اميل الى العنف واجنح الى تقويض المجتمع القائم ، الامر الذي يؤدي الى نفي الفئات العمالية الاخرى التي لا تتحلى بهذه « الخصال الثورية » من صفوف البروليتاريا ! ... ويتبسط المؤلف في مناقشة غضبة الماركسيين على هذه الفئة غير الثورية من العمال فيقول :

« انكم تجعلون مهمة البروليتاريا ان تخلص العالم من شروره التي تراكمت بفعل غير البروليتاريا ، فكيف يجوز ان يعتمد هذا « الخلاص » في أساسه على النقمة على من تريدون تخليصهم ؟ » .

على ان ذلك يجب ألا ينسينا نقطة جوهرية هي تبدل واقع الشغيلة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

في العالم،ولاسيما في اقطار الغرب،اذ لم يعد العمال تلك الفئة الاجتماعية التي يمكن ان تقبل بالثورة للنهوض بمستواها ، بعد ان شاهدت التحسين المستمر لاوضاعها ، هذه الاوضاع التي لا تشبه بحال من الاحوال اوضاعها في عهد ماركس الذي صورها بقوله :

« انهم يكدحون اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، وليس لهم من يلجأون اليه ، لا نقابة ولا تشريعا اجتماعيا ، وتراهم خاضعين لقانون الاجور الصارم ، حتى ليبدو ان سوء الحظ ونكد الطالع يكاد يكون مقصورا عليهم » .

وهذا ما يجعلنا نقول بكل تاكيد ان « بروليتاريا ماركس » لم يعد لها وجود في عصرنا الراهن ، بل اكثر من ذلك انها درجت على خط مستقيم مناقض كل المناقضة لذلك الواقع ، وهكذا نلتقي مجددا مع ريمون ارون فيما ذهب اليه :

« وبانتفاء وجود هذه البروليتاريا تنتفي حاجتها الى حزب طليعي ، اي انه لا حاجة لحزب شيوعي اصلا ، وبانتفاء صوابية وجود الحزب الشيوعي ، ينتفي ذلك النفوذ الذي اجهد ماركس نفسه في خلقه لفكرته».

البروليتاريا المعاصرة
ليست تلك التي وصفها ماركس

لكن هل من حاجة الى التأكيد بأن الاحزاب الشيوعية تتعامى عن رؤية هذه الحقائق كما يتصامم الشيوعيون عن سماع الادلة القاطعة التي تحول مجموع افكارهم الى ركام من الاكاذيب الخادعة والدعاوي المضللة ، وانما يظلون متشبثين بما اختلقوا من نظريات دغماتية ، مصرين على مواقفهم القديمة في « تفسير التاريخ حسب مصلحتهم ، فيؤكدون على وجود البروليتاريا ، ويفترضون رسالتها بعد ذلك ، ويجزمون بوجوب قيام حزب طليعي ليقودها نحو هدف تلك الرسالة . وحين يدخل العضو في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحزب الشيوعي اول الامر ، يكون اهتمامه متركزا على خدمة الطبقة ، ثم يتحول الى خدمة الحزب نفسه ويتناسى أمر الطبقة ، وحتى داخل الحزب يجد نفسه مضطرا لرعاية مصالح المتسلطين فيه » .

وبطبيعة الحال ، ان اسطورة البروليتاريا وقيامها على مجموعة من المغالطات الفكرية ، لا بد ان تقود الى استكناه جوهر المهمة التي القيت على عاتقها ، وهي ان تلعب دور المخلص للبشرية من اثامها ، وذلك بانتفاضها تمردا على قيودها ، اذن ، فالثورة هي الهدف الذي يرمي اليه الشيوعيون من وراء محاولاتهم المستمرة العنيدة لاجتذاب « طبقة البروليتاريا » ورص صفوفها وراءهم لدك النظام القائم بأيديها هي ، ولا بد لاجل ذلك من الالتجاء الى « خرافة الثورة » عبر «اسطورة البروليتاريا» .

ان البروليتاريا المعاصرة ليست تلك البروليتاريا التي وصف ماركس تعاستها وشقاءها والتي تستمد « ثوريتها » من خلال الامها ، لان التطورات التي طرأت على تكوين المجتمعات بصورة عامة ، والشغيلة بوجه خاص ، قد حملت اليها الكثير من المكاسب المادية، والضمانات الاجتماعية ، وتغيير اطرها الحياتية والثقافية ، وهي بالتالي لم تبق تلك الفئة المسحوقة ولا المصلوبة ، وانما شأنها شأن سواها من الفئات الاجتماعية قابلة لتبني أفكار اليمين واليسار والوسط على حد سواء ، لكنها في أغلب الاحيان تظل متعلقة بأفكارها القومية العريقة ، وتأبى الانجرار وراء سراب الخدع وبرق الاضاليل الخلب .

يضاف الى ذلك ان الوعي الذي بلغته الفئات العاملة ، والتقدم الفكري الذي صارت اليه ، جعلاها على احتكاك مباشر مع الواقع ، وادراك حقيقة الاهداف التي يرمي اليها الشيوعيون، او غيرهم من افراد الحركات اليسارية الاخرى ، الذين يريدون ان يجعلوا منها « كبش محرقة الثورة » ـ ثورتهم لا ثورتها ـ ليتسنموا دست الحكم بقواها هي ، ثم ليمارسوا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحكم باسمها هي ، في حين لا تجني هي سوى الاشواك والالام في ظل أنظمة الحكم الدكتاتورية الارهابية ، فضلا عن المآسي التي تعانيها من جراء اضرامها ثورة دموية لا تعرف غير سفك الدماء ، وتقديم الاضاحي من فئات الشعب المقاتلة ، لتحقيق مطامع احزاب اليسار في السيطرة على مقاليد الحكم ومرافق البلاد .

الشيوعيون اشد الاعداء ضراوة للمبادىء التي ينادون بها

والماركسية حين تعزف على وتر المساواة والحرية والعدالة ، فانما تفعل ذلك سعيا منها الى دغدغة النوازع البشرية الاصيلة التي تتعشق هذه المبادىء ، والتي ينقاد المخلصون في سبيلها الى ارتكاب أشنع الحماقات التاريخية ، دون ان يدركوا ما تجني ايديهم ، ثم ينقشع الضباب ويزول السراب وتبدو لهم ـ بعد فوات الاوان ـ حقيقة المذبحة الرهيبة التي شاركوا فيها والجرائم المخيفة التي كانوا ادوات تنفيذ لها ، في سبيل وصول طغمة انتهازية عاتية الى الحكم تفترس اول ما تفترس تلك المبادىء الانسانية والقيم المثالية .

ولا يخفى ان مثل التحرر والانعتاق قد أثارت في تاريخ الفكر الانساني الكثير من الافكار ، والهمت المؤلفين من ادباء وفلاسفة وحكماء الكثير الكثير من الاثار الخالدة ، ولم يكن الماركسيون وحدهم هم الذين طرحوا تلك المثل في المجال النظري ، الا انه لم تبلغ اي من القوى السياسية التي ظهرت على مسرح التاريخ ما بلغه الشيوعيون من دعاويهم بانهم يناضلون في سبيل مبادىء تقدمية تسعى لتحرير الجنس البشري ، في الوقت الذي تثبت الحقائق الموضوعية والمستمدة من صلب نظم حكمهم انهم اكثر الناس عداء لمجموع الافكار التي ينادون بها ، والمبادىء التي تذرعوا بها للوصول الى الحكم ، مما حمل الكثير ممن خدعتهم المبادىء على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

استنكار الممارسة والتطبيق ، ومعارضة المناهج الشيوعية وانظمتها القائمة، اذ تكشفت لهم مر الحقائق عن مستوى الدجل الذي بلغه زعماء الشيوعية المتنكرون لمبادىء الحرية والعدالة والمساواة .

والبروليتاريا الروسية التي تحكم البلاد باسمها او باسم حزبها ، لم تجن اية ارباح او مكاسب اذا ما قيست حياتها بالمستوى المعاشي الذي بلغته نظيراتها في الغرب . ويقول ريمون ارون في هذا الصدد :

« ولو تساءل المرء أيهم استفاد اكثر ، هل هم اولئك العمال المنضمون تحت لواء اتحادات نقابات العمال في بريطانيا او اسكندينافيا او الولايات المتحدة ، ام اولئك العمال الذين تدير امورهم الدولة في روسيا ، لو تساءل المرء ذلك ، لما كان في حاجة الى جهد يبذله كي يجيب نفسه : انهم اولئك الذين في الغرب » .

وهل يخفى على ذي بصر او بصيرة ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي قد أجهد الطبقة العاملة ، وحملها فوق ما تستطيع من تضحيات وتنازلات ، بغية اللحاق بالدول الغربية المتطورة ، ولتحقيق التصنيع ، اذ شدد وتشدد في جلد امكانات الانتاج لدى شعبه تارة باسم المنافسة بين معمل ومعمل ومزرعة وأخرى ، وطورا باسم نظام السخرة صراحة .

وكانت الحصيلة التي نجمت عن استيلاء الشيوعيين على السلطة ان ظلت البروليتاريا بعيدة عن الحكم ، اي ان الاغراء الذي انساقت بتأثيره قد تبين بعده عن الصواب .

وكان ان تمخض عن هذا الوضع الجديد الذي انسدت فيه كل السبل امام « البروليتاريا » لتحسين اوضاعها ، وافول الآمال المعقودة على مستقبل افضل ، ان سقطت في دوامة الغباء ، فبعد ان كان الناقمون في صفوفها « يتحلون بصفة الابداع والخلق ، صارت البلادة هي الصفة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المشتركة العامة » فضلا عن ان « مستوى الحياة في روسيا لم يرتفع بالقدر الذي ارتفع به في بلد رأسمالي كالولايات المتحدة ، هذا مع ان عمال الولايات المتحدة لم يستولوا على الحكم . اما ازدياد الانتاج العام في روسيا ، فمردها الى أسباب اخرى لا أظنها في مصلحة البروليتاريا بقدر ما هي لمنفعة الجهاز الحاكم في البلاد » .

ولادة طبقة جديدة في المجتمعات الشيوعية

ويؤكد هذه الحقيقة المرة عن الانظمة الشيوعية ، ذهاب فئة حاكمة ومجيء فئة حاكمة اخرى ، وكل منهما تحمل بين جنباتها ادران الحقد التاريخي ، وليس من اهدافها الا التنعم بالامتيازات والحصول على اكبر المكاسب والهيمنة المطلقة على المجتمع ، وبذا اضبح الجهاز الاداري في البلاد الاداة الوحيدة التي تجني ثمرات التصنيع .

وانطلاقا من هذا التحليل نجد ان ارون يتفق فكريا مع الكثير من نقاد الانظمة الشيوعية الذين تطرقت ابحاثهم لدراسة ظاهرة البيروقراطية الحاكمة المستبدة في البلدان الشيوعية ، ومنهم ميلوفان دجيلاس الذي ذهب الى القول بنشوء « طبقة جديدة » قامت على انقاض الطبقات التاريخية السابقة ، وذلك لما تحمله من مميزات خاصة بها ، وفي مقدمتها حق التملك ، والامتياز ، والتمتع ، والتصرف بكافة الممتلكات القومية في الدول الشيوعية .

و « خرافة الثورة » التي يذهب الماركسيون الى انها طوق النجاة للانسانية من آلامها ، ليست الا خدعة كبيرة لا تعني سوى اضرام حرائق الفتنة لدك الاسس الحضارية للمجتمعات ، وسفك الدماء البريئة ، ليعقبها قيام نظام دكتاتوري رهيب ، يفرض سيطرته بقوة الحديد والنار على جموع الشعب ، وما يلازم ذلك من تقييد الحريات ، وخنق الافكار ، واخماد التطلعات المشروعة نحو حياة افضل ومستقبل أمثل .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اما في الجانب المقابل للمعسكر الشيـــوعي ، فنجد ان البروليتاريا الغربية قد تبدلت اوضاعها بشكل مذهل ، ومقارنة بسيطة بين ما كـانت عليه في القرن التاسع عشر وما آلت اليه في القرن العشرين ، تكفي لتظهر كم من مشاكل حلت ، ومطالب تحققت ، ومستويات معاشيـة ارتفعت ، واوضاع اجتماعية سمت .

ولا مرية في ان متطلبات البروليتاريا كانت في القرن التاسع عشر كثيرة ومتعددة ، وان اوضاعها الاقتصادية كـانت متردية مثيرة للالام ، ومرد ذلك الى ان النظام السياسي كان ادنى من المستـوى التكنولوجي ، والى تقدم النظام الصناعي على تطور الاوضاع الاقتصادية .

يقول ريمون ارون : « ولكن هذا غير صحيـح في القرن العشرين ، واعني بكلمة « هذا » ان مطالب البروليتاريا فـي الوقت الحاضر اصبحت قليلة ، لان معظمها قد تحقق . وكان الفضـــل في تحقيقه الى الازدهار الصناعي في الغرب ، ذلك الازدهار الذي رافقه الارتقاء السياسي ايضا » .

ومع ذلك ، فان الواجب يقتضينا ان نتمحص بعض الحقائق ، ومن بدهياتها ان التقدم صفة ملازمة للتطور البشري ، وطاقات الفكر لما تتفجر باكملها ، ومن ثم فهي معين لا ينضب ، ان التطور ، تلك الصفـة الملازمة للانسان ، انما هو نتيجة حتمية لتكدس وتراكم الخبرات الانسانية ، لما ارتاد الانسان ويرتاده من آفاق كشف المجهول من جهة ، ولتوسع امكاناته المادية في تكييف المجتمعـات والحصول على مصادر الطاقة لمصلحة الجنس البشري من جهة ثانية ..

والخطأ كل الخطأ هو في الذهاب الى القول بأن التقدم مقصور على اليسار دون اليمين ، او ان اليسار وحده هو الذي يخدم البشرية ، فمـا هذا القول سوى ادعاء كاذب ، وفرية تاريخية كبرى لا تجوز على عاقل ، لان التقدم دولي النزعة عالمي الموطن ، لا يمكن تقييـــده بيمين او يسار ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وتطور الفكر البشري هو الاساس الراسخ لكل تقدم او تطـور ، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : من ذا الذي يستطيـع ان يؤمن للطاقات البشريـة الانطلاقة الاكبر ، ومن ذا الذي يعمل على صب الافكار والطاقات الابداعية لدى الانسان في قوالب جامدة ويفرغها في بواتق ضيقة ؟!

وجوابا على هذا السؤال يمكن ان نقول بكل اخلاص للحقيقة انالدول الديمقراطية هي التي حملت في هذا الصدد اعباء التقدم الفكري والتطور الصناعي ، وانها استطاعت ان تنتقـــل بمجتمعاتها صعدا من مستـــوى اجتماعي واقتصادي متأخر الى مستوى اجتماعي واقتصادي متطور ،لدرجة لا تستطيع معها الفلسفة الماركسية بالذات ان تنكر على البرجوازية دورها التقدمي في التاريخ وان وقفت الى يمين ((الطبقة البروليتارية)) .

وبالمقابل نستطيع التاكيد ان تحـــــول اليسار الى نظام شيوعي ، وانقلاب اجهزة الدولة بمجموعها الى جهاز يساري ، لم يستطع ان يقـــدم للتطـور الفكـري وللتراث الانساني الا أقـل من القليل ، نتيجـة للاستبداد الشامل الذي فرضه حزب ((الطبقة العاملة)) على العلماء والمفكرين ، ونجد في الوقت نفسه ان الدول الديمقراطية انتي تقف الى اليمين نتيجـــة سيادة الافكار البرجوازية في البناء الفوقي لمجتمعاتها ، تعطي وتنتج وتبدع اكثر من دول المعسكر الشيوعي .

ان « التقدم » الذي يحاول اليسار ان يمثله ، يصطدم بالعقبةالكأداء التي هي النظام الدكتاتوري القائم . وفي حين نجد ان « التقدم » الذي يرتبط بالمفهوم الماركسي اللينيني بفكرة الثورة التي يقودها اليسار ، نرى ان هذه الثورة هي « انفجار لحالة الاستقرار التي تسبقها ، ومعنى هـذا ان الذي يعتمد « التقدم » المحتوم ، كما يرى اهل اليسار ، لا يكون بلجوئه الى الثورة الا مستبقا لما يحتمه فيما بعد ، اي انه يطلب الاسراع فيما يراه سيلحق فيما بعد ، وبغية هذا الاسراع نجده يقبل ان يتوصل الى هدفه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

عن طريق الفوضى وسفك الدماء » .

ونقطة اخرى لا بد من اثارتها، وهي ربط الثورة بالعقلانية على اساس انها تشكل لنتيجة التقدم الفكري ، مما نرى معه توالد التناقض الكبير بين « التقدم » و « تحطيم سلسلة ذلك التقدم » .. فالعقلاني يجب ألا يلجأ الى الثورة على الاطلاق ، لمجرد انه عقلاني بينما الثورة لا عقلانية ، فما بال اليسار يتعامى عن هذا التناقض العجيب .

ونتيجة لكل ما سبق قوله ، نجد ان اصحاب « الفكر التقدمي » المزعوم من مشرعي اليسار ، يضعون « الطبقة البروليتارية » التي أناطوا بها مهمة « الانقاذ » في مواجهة الشعب ، ويندفعون بها الى بؤرة عداء الشعب ، نسفا لاستقراره وأمنه وحريته ، واندفاعا أهوج الى مزالق الحروب الاهلية الدامية ، ومتى سيطروا على الحكم ، عمدوا الى تكبيل تلك الطبقة نفسها بأغلال العبودية والارهاب ، بعد ان استخدموها حربة مسددة الى قلب المجتمعات والحضارات والشعوب .

اليسار يحتكر حق تفسير التاريخ

يرتكز « اليسار » في نظرته التقييمية في مجالي الفلسفة والفكر على التاريخ ، وقد ذهب بعض اليساريين اغرب مذهب في تأليههم تلك السيرورة فالصيرورة : التاريخ ، حتى نصبوه صنما للعبادة .

ويأتي الفكر الماركسي في طليعة المذاهب اليسارية التي صبت التاريخ في قوالب جامدة لا حياة فيها ، حين ادعى انه ملك زمام « التنبؤ العلمي » على كشف المستقبل من خلال الماضي والحاضر ، على ضوء المنهجية الماركسية او التفسير المادي للتاريخ ، والادعاء بأن « الحتمية التاريخية » تدفع التطور التاريخي في طريق مرسوم له سلفا .

وهكذا وبكل بساطة ، ألفى الماركسيون انفسهم وجها لوجه مع اصحاب الايديولوجية المعاكسة ، نتيجة لنزعتهم المتعصبة الراغبة في احتكار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

تفسير التاريخ ، وبالتالي ، فان الحتمية التاريخية الماركسية ، قد ولدت بالمقابل « حتمية تاريخية » جديدة مناقضة للفكر الماركسي ، مما تولد معه التناقض الشديد بين الموقفين والايديولوجيتين والمعسكرين ، وغدا كل فريق يحاول من جهته ان يفسر ما يجري في الجانب المقابل من خلال وجهة نظره الخاصة ، مدعيا بأنه يقدم تحليلاته انطلاقا من وجهة النظر التاريخية :

« اذ انه لما كان يريد ان يحتكر حق تفسير التاريخ ، فان خصومه يريدون ان يمنعوه من ذلك الحق . ومعنى هذا ان الاول يسير حسب قانون « الاطلاق » ، او ما يدعوه هو بالحتمية ، وكذلك الثاني يسير حسب رأيه في تلك الحتمية ، وان كان سير الاخير في اتجاه معاكس لسير زميله الاول ، اي ان هنالك حتميتين متناقضتين ، ولكنهما تولدتا من نفس السبب الذي هو الاطلاق » .

وما من شك في ان وهم « الحتمية التاريخية » الذي وقعت الفلسفة الماركسية في احبولته ، انما نجم عن منهجها الفكري ، اي عن تفسيرها المادي للتاريخ ، فكان ان ردت تطور المجتمعات الانسانية الى اسباب اقتصادية بحتة ، متجاوزة بذلك كل العوامل المؤثرة في تطور المجتمعات .

ومن المؤكد ان الذي دفع الماركسية لاعتلاء هذا المركب الخشن ، ذلك الضرب من التعصب الفكري الذي سيطر على ذهنية كارل ماركس ، مما جعله يندفع في تحليلاته هذه ، حسب وجهة نظره الذاتية الخالصة واستنتاجاته « العقلانية » ، وكان ان تردى في ذلك المزلق الخطر ، ولا سيما حين اعتبر أن تفسيره الذاتي « للتاريخ » هو التفسير الموضوعي والمادي الذي لا يرقى اليه الشك ولا تشوبه اية شائبة .

القوى المحركة للتاريخ والمجتمع

لقد حاول ماركس ان يضفي على التاريخ الانساني الكثير من ذاتيته، وان يخضعه لنظرته الشخصية ومنهجه الفكري ، فقدم افكارا اعتباطية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اعتبرها خلفاؤه منزهة عن الخطأ ، وترتكز هـذه الافكار على نقطة واحدة هي ان الحياة الانسانية بمجموعها ليست الا اقتتالا في سبيل سد الحاجات المادية ، وان طريقة انتاج هذه الحاجات هي التي تصنع عواطفنا ومبادئنا وتصوغ اخلاقنا وقيمنا جميعا .

في حين ان الحياة الانسانية ترتكز على العديد من العوامل والحوافز ، ومن هذه العـوامل والحوافز الموضوعي والـذاتي ، المادي والروحي ، الاقتصادي والفكري الخ ... « ومهما تناقضت المجتمعات او الافعـال الفردية ، فانها تظل ضمن نطاق كل جامع واحد » . ومن خلال هذا الكل الجامع الموحد ، نجد أن عملية تقسيم شجرة الحياة الى فروع اقتصادية وسياسية ، مادية وروحانية ، فكرية وفنية ، انما هي من عمل النـاس ونتاج عقـولهم وصنع امزجتهم اثنـاء اتجاههم لتحديد طبيعة اعمالهم ومجالاتها المختلفة . ومثل هذا التقسيم انما هو من نوع اختيار مجـال الاختصاص ، فالعالم الذي يعمل في مختبره يتجه بكليته الى موضـوع بحثه ، لكن ذلك لا يعني البتة ان هذا العالم ينكر الحقائق الحياتية ويهمل حاجاته الذاتية التي هي خارج نطاق مختبره او مجال عمله .

وحياة الانسان ، شانها شأن الكيانات الاجتماعية ، لا يمكن ردهـا او ربطها بشكل قسري مباشر بناحية بعينها دون سواها ، كما انه « ليس في الوجود شيء حدوده متميزة تماما عن شيء آخر ، ان في الاشيـاء جماعية عجيبة » .

والصنمية التي يفرضها الماركسيون عـلى التاريخ تعود الى اعطاء القضايا الاقتصادية الدور الاساسي والكبير في حياة المجتمعات وتطورها ، اذ جعلوا منها القوى المحركة الاساسية لكل ما يجري على سطح البسيطة من احداث وتطورات ، ولم يلبثوا ان جعلوا منها الاساس الحياتي فكـانت حسب تعبيرهم « البناء التحتي » الذي يقوم عليه « البناء الفوقي » بمـا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يضمه من افكار علمية واتجاهات فلسفية وانظمة سياسية واجتماعية .

المفتاح السحري لنظرية المعرفة

ومن خلال هذين البناءين او المقولتين الفلسفيتين ، يعتقد الماركسيون بأنهم قد توصلوا الى الكشف عن جميع اسرار الحياة ، وانهم بالتالي قد امتلكوا المفتاح السحري لنظرية المعرفة . لكن اذا ما عدنا الى مناقشة نظرية المعرفة نرى الصواب كل الصواب في ما توصل اليه ريمون ارون ومفاده : « ان الفرض يكون غير معقول اذا تضمن القول بان الاقتصاد هو الذي يقرر شكل السياسة والمعتقدات دون ان يتأثر بدوره بهما ، ذلك ان هذا الفرض يكون متناقض المعنى ، فالحقائق الاقتصادية لا يمكن عزلها عن غيرها » .

ومن الغرابة بمكان ان تنكر الفلسفة الماركسية ما يحاول الزعماء الماركسيون البرهنة عليه ، من خلال تأكيد دورهم الشخصي الكبير في التأثير على مجريات الاحداث ، مما يشكل نسفا للاساس النظري ـ ومن جذوره العميقة ـ لنظرية المعرفة كما تقدمها الماركسية .

وبكل تواضع تقبل الزعماء الشيوعيون تاليه انفسهم ، فكانوا الصورة المثلى للحزب ، وكان الحزب بدوره المجسد النظري والتطبيقي لجميع « الحقائق التاريخية » ، وبذا اصبح الزعيم الفرد فيهم محور الوجود ، وبالتالي فوق القضايا الاقتصادية والحقائق الفكرية .

وهنا لا نرى محيصا من تقطيع حبائل هذا الشرك من التناقض او التمزق ما بين افكار الفلسفة الماركسية وواقع التطبيق العملي لها . ونحن اذا ما ضربنا صفحا عن تلك النفسيات المريضة للقادة الشيوعيين الذين يضفون على انفسهم طابع الالوهية ، نقول على سبيل التقرير للحقائق : ان للفرد دوره الكبير في التاريخ ، وان قرارا واحدا من هؤلاء القياصرة الجدد المتربعين على دست الحكم ، والجالسين سعداء على كراسي الكهانة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحزبية ، بمستطاعه ان يؤثر في مجرى التاريخ . وليس عجيبا ان يتمخض التاريخ عن نيرون جديد يحيل الحضارة الانسانية الى ركام من الرماد ، بعد ان يطعمها هشيما للنار ، ليحرك اصابعه على قيثار انانيته عازفا نشيد التأليه الذاتي .

وهل من خلاف في ان الكثير من القرارات الحاسمة التي دارت في ذهن القادة العظام ، كان لها الاثر الكبير في انعطاف التاريخ ، وربما أخرجه بعضها عن مجرى كان عليه . ويقول ريمون ارون في هذا الصدد : « انهم بذلك ينكرون « الفاعل الفردي » المتولد عن ظروف البيئة والتربية التي يتلقاها فاعل الحدث التاريخي ومتخذ القرار فيه . ولما كانت البيئة والظروف نفسها ليست مسؤولة مسؤولية كلية عن ايصال رجل يتخذ قرارا يؤثر في المجتمع ، الى مركزه ذلك ، فان هذا يشير اشارة كافية الى ان اصل ذلك القرار فيه نسبة شخصية (اي فردانية) ايضا » .

حشر البشرية في قماقم موصدة

هذا من جهة دور المواقف الحاسمة ، او دور الفرد في التاريخ ، غير ان ذلك ليس الا جانبا واحدا من جوانب متعددة لها دورها الهام والفعال في تطور المجتمعات البشرية والتأثير فيها ، ومنها الجانب الثقافي والروحي ، من فلسفة ودين وأدب وفن ، وهي تنفعل وتتفاعل مع المجتمع :

« ان الحياة بكاملها كل واحد يتفاعل وينفعل ويترك كل عامل فيه اثرا ، والمجتمع يعبر عن نفسه بالادب تماما كما يعبر عن نفسه بالانتاج . ومعنى هذا ان الادب والانتاج يتفاعلان ويتساوقان ، ولكن كلا منهما ليس مجردا متميزا عن الآخر ، فكلاهما مجالان من نشاط الحياة ، والواحد منهما بالنسبة اليه جزء من كل . وفي هذا الجزء روح الكل وطبيعته .

« وأظنني في غير حاجة الى القول بأن ما أعنيه بكلمة « ادب » هنا ، هو غير ما اصطلح عليه رجال الادب ، من شعر ونثر ومقالة . انني أعني

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

بالادب « جماع الفكر » ، او ما يطلق عليه « الثقافة » في العادة ، ولكن بمعنى واسع يشمل جميع المجالات » .

ونحن اذا ما سلمنا بما يذهب اليه الماركسيون ، لما ألفينا التاريخ ـ على ضخامة ما يشتمل من محتوى ـ الا مجرد آلة عملاقة تسير على خط محدد المعالم لا تحيد عنه ، فهو « يسير في خط مستقيم ، وانه كل واحد جامد يمكن لقاعدة واحدة ان تفسر غموضه . ومن نظرتهم القائلة بـ « كلية التاريخ » هذه ، يبدو لهم ان «حتمية التاريخ» امر لا جدل فيه » .

لكن الادهى من ذلك ، ان الغرور قد ذهب بالماركسيين ابعد مذهب ، حين ادعوا بانهم قد وضعوا ايديهم على اسرار « التنبؤ العلمي » للاحداث التاريخية القادمة ، والصورة التي سيتخذها التطور الاجتماعي في المستقبل .

ومن المضحكات المبكيات ان اولئك العباقرة لم يكتفوا بتقييد التاريخ بسلاسل حساباتهم المرضية ، وباعطائه معاني جديدة غريبة ، بل اخذوا بمحاولة هتك حجب المستقبل ، اذ حاولوا ويحاولون تقنين تطور الحياة الانسانية ومستقبلها من خلال سراديب بحثهم القاتمة ، ليعملوا بعدها على حشر البشرية بأسرها في القماقم الموصدة ، بعد جرجرتها ـ ان استطاعوا ـ عبر تلك المتاهات الضيقة التي جاءت وليدة فكرهم المريض وتنبؤاتهم العشوائية .

فهم يفرضون على الانسانية القيد والسوط والجمود والتحجر ، في حين انها تتطور بفعل الحرية والابداع ، وتلاقح الحضارات ، وترفض رفضا مطلقا التقيد بأي قيد .. فالفكر الحر يأبى الرسوف بأي ضرب من ضروب السلاسل ، وهيهات للتاريخ ان يسير وفق مخطط أرادته له احلام احد المفكرين المتعصبين او اوهامه ، فهو ينطلق قدما من خلال رغبات الملايين من البشر وتضارب أهواء اولئك الملايين .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

التعصب المذهبي يبلغ أوجه لدى الشيوعيين

ان صراع الانظمة الذي يجري على المسرح التاريخي سيلعب الدور الكبير في مستقبل العلاقات الانسانية ، لكن الماركسيين الذين يشددون على هذه النقطة يعتبرون ان المستقبل لهم وحدهم ، وان الانظمة الشيوعية منتصرة بمنطق الحتمية ، وستعم الكوكب الارضي ، وان الاشتراكية ستنبثق من الرأسمالية « كما تنطلق الفراشة من شرنقة دودة القز » ، وان الصراعات ـ وتلك من صرعاتهم ـ لا بد ان تحدث بين الانظمة الرأسمالية نفسها ، مما سيضعف مركزها العالمي ، ويجعل العقيدة الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي سيدة الموقف على انقاض الحضارة الغربية الزائلة . ولكن ـ كما يقول ريمون ارون ـ « ان حتمية بقاء نظام وزوال آخر امر يستند الى المغالطة . والتنبؤ بالمستقبل على اساس الماضي امر كثيرا ما كذبه التاريخ » .

ان انطلاقة الفكر الماركسي في تحليله التاريخي تحمل في طياتها الكثير والكثير من نزعات التعصب القاتمة ، وتربط النشاط الانساني كله ومستقبله بقدرة الاحزاب الشيوعية على الاستيلاء على الحكم ، والاستمرار في هذا الحكم ، فلا حضارة ولا حرية ولا مستقبل للانسانية الا اذا سيطر الشيوعيون على ازمة الامور وقضوا على نزعات التحرر ونوازع الابداع .

واذا كانت كل طائفة مذهبية تتصف بالتعصب لافكارها ، فان التعصب يبلغ اوجه لدى الشيوعيين الذين اوكلوا لاحزابهم مهمة الاستيلاء على السلطة وبناء الشيوعية ، ولم يسبق لانصار اي حزب او طائفة او طبقة ان استأثروا وحدهم بكل وسائل الثقافة والاعلام والنشاط الفكري والاقتصادي، ومنعوا غيرهم من حرية الضمير وامكانية التعبير ، واعتبروهم خونة ومرضى لا تصلح لهم الا السجون او مستشفيات المجاذيب ، كما يفعل الشيوعيون بكل المعارضين . ولقد قادهم تعصبهم هذا الى استقطاب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الغاية لكل تفكيرهم ، وجعلهم يندفعون عبر كل الوسائل الممكنة في مكيافيلية يبررها في زعمهم الهدف الذي ينشدون بل يعبدون :

« لقد فسروا التاريخ على اساس الحتمية ، وهذه مجرد نظرية اساسها الاقتصاد في قرن مضى . ومع هذا تراهم انساقوا مع فرضيتهم فأصبحوا ينكرون كل ما عداها . فاذا وضعوا قوانين جاءت تلك القوانين ضمن اطار مسبق ، اي انها موضوعة سلفا ، ثم يجري التعبير عنها . وبمعنى آخر ، لقد رسموا العالم وصبوه في قالب محدد ، وهم لا يريدون له ان يخرج عن صورة ذلك القالب . اما اذا خرج ، فانهم يخلقون من قالبهم السابق قالبا جديدا ، ولكنهم يظلون يرجعون الجديد في اصله الى القديم . وان هذا لتعصب كبير ، وهو تعصب ضد الواقع ، وتعصب ضد التاريخ » .

كيف يبدأ المثقف بتعاطي افيون الثورية

لكل مجتمع من المجتمعات فصيلته المثقفة التي يعانق نشاطها كل ما تحمل الثقافة من قيم فكرية واساليب تعبيرية ، من ادب وفن وعلم وفلسفة . وتتطور هذه الفصيلة بتطور المجتمعات ، كما انها تلتصق بشكل ظاهر بحياة الامم من خلال تقدمها ورقيها ، وتنحط بانحطاطها ، وتتدهور بتدهورها .

وقد كان للنهضة الصناعية دورها الكبير في تطور الثقافة ، فأخذت حلقة المثقفين بالتوسع حتى غدت تشمل اصحاب الاختصاصات العلمية والتقنية الى جانب المشرعين والمهندسين ومهرة الصناع . كما ان التقدم الصناعي ذاته قد خلق فئة واسعة من « البروليتاريا » مغايرة لتلك التي كانت في القرن التاسع عشر ، بنسبة وعيها وطبيعة تعاملها مع الآلة المعقدة :

« ويمكن القول ان الظاهرة العامة في مجتمعات القرن العشرين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المتقدمة ، هي ذلك الجيش الكبير من رجـــال التكنيك والادارة . اذ ان الناحية الادارية ، اي غير اليدوية ، هي التي يزيد تعقيدها يوما بعد يوم مع ارتقاء التكنيك » .

وليس بدعا ان يرتبط المثقفون بعجلةالسياسة ، فتلك ظاهرة طبيعية جدا ، لا سيما وان هذه الفئة ترتبط في الاغلب الاعم بصرح النظام القائم ، « ولكل نظام ، من الديمقراطية ، الى الليبرالية ، الى القومية ، فالفاشيـة والشيوعية ، دعاته والمنافحون عنه . وفي كل نظام تجد هؤلاء المثقفين ، او بعضهم على الاقل ، يقومون بمهمة الدعاوة لذلك النظام وتفسيرهوتبرير اخطائه لدى جماهير الناس » .

ويعود ارتباط المثقفين بالحكم ـ سلبا او ايجابا ـ الى طابع التطور الذي يطرأ على الواقع الاقتصادي للنظام القائم ، سواء أكان ذلك فيالشرق أم في الغرب ، أم في البلدان التي تسير في طريق التصنيع . « ومـــن الطبيعي ان تكون الفئة المثقفة اوسع في شمـــولها من الطبقة الحاكمة . ذلك لان التقدمالتكنيكي الصاعد يظل يتطلب فئات متزايدة منالاخصائيين. وهذهالطبيعة الديمقراطية نفسها هي التي تظل تبدو وكأنها مهد للثورة » .

وتتميز الفصيلة المثقفة عن غيرها ، بأنها صاحبـــة النشاط الفكري والعلمي ، وترتبط بمجموعة الافكار المثالية المتسمة بالعقلانية التي تلقتهـا على مقاعد الدراسة الجامعية ، وهذا ما يجعلها تجيل الطرف في الاوضاع القائمة التي تسود المجتمع ، فتتحرك لديها نوازع النقد في محاولة منهـا لتخيل عالم جديد مغاير .

ويحاول ريمون ارون ان يرسم بوضوح كلي مراحل التطور النفسي لدى المثقفين حين يتجهون الى معارضة الحكم ، ليقعـوا فيما بعد بشراك « الثورية » ، ويصبحوا في عداد اليسار ، او حملة شعار المعارضة التي تدعو الى التغيير والتبديل ، تحتـــدم في اعماقهم النقمة العارمة عـلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مجتمعهم ، دون ان يعوا هذه الحقيقة ، وهي انهم انفسهم حصيلة هـذا المجتمع الذي أنشأهم .

ان اصطدام المثقف بواقعه ، ذلك الاصطدام الذي يحمله على معاداة النظام ، يمر عبر مراحل ثلاث ، منطلقا من « انتقاد الشكل » ، وهو بذلك يضع نفسه موضع الحاكمين ليكشف عن اخطائهم ، ثم ينتقل الى مرحلة « انتقاد الاخلاقية » راغبا في ان تكون اوضاع الحكـام وتصرفاتهم غير ما هي عليه في اتجاهاتها ودوافعها ، ويصل من ثم الى طور « انتقـاد الايديولوجية » ، ويكون تحركه هذا بمبادرته « في الهجوم على المجتمـع الذي يعيش فيـه بشكله الحـاضر ، والدعوة الى مجتمـع منشود في المستقبل » .

وهكذا ينقلب المثقف الى ناقد للمجتمع ، وساع الى تبديله ، حـالم بابراز طاقاته في النشاط السياسي ، نتيجة عدم قبوله الواقع القائـم ، وبدلا من أن يسعى الى اصلاح هذا الواقع بروح التطور السليم ، ينزلـق في منحدر اليسارية ويسقط فريسة سهلة في شراك الثورية والثوريين الذين يستغلونه ما استطاعوا ما داموا خارج الحكم ، فاذا ما حكمـوا وسادوا جعلوا منه خادما ذليلا وداعيا مطيعا ، والا فمصيره السجـن او القتـل .

المجتمعات الشيوعية جحيم المثقفين

على ان فصيلة المثقفين ، تبقى في جميع الظروف ، ابعد ما تكـون عن ان تشكل طبقة متميزة ، فهي ذات منشأ اجتماعي مختلف ، وعلاقتها بالطبقة الحاكمة تتبدل وفق نظرة الحكام اليها ، فهي كالطفل المدلل يـلذه ان يهدهد ويكون موضع اهتمام الآخرين ، يثور لادنى الامور واكثرهـا بساطة ، ويملأ الدنيا صراخا اذا ما احس بأن عيون الآخرين في غفلة عنه.

واما رجال الطبقة الحاكمة فقاعدة علاقة المثقفين بهم يسيرة للغاية .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

فكلما قربت الهيئات الحاكمة هؤلاء المثقفين من عرشها خفت حدة نقمتهم عليها ، بل سايروها ومدحوها وخلقوا لها من مبررات البقاء النظرية ما تشاء . اما اذا ا عدتهم عن عسلها وسمنها ، فان ذلك يجلب لها انواعا من الشتائم والنقمة ومختلف اصناف الاتهامات والدعوات بقرب الزوال » .

ولا خلاف في ان طبيعة النظام تترك ميسمها على مواقف المثقفين أنفسهم ، وذلك بمدى تسامحها معهم او تسلطها وفرض هيبتها ، ذلك لان « في طبيعة المثقفين أن ينعكس عليهم اثر نظام الحكم القائم في بلدهم ، فهم يذعنون ويخفضون رؤوسهم اذا كان الحكم صارما ، ولكنهم يملأون الدنيا ضجة وصخبا اذا كان متراخي القبضة يقبل الاخذ والرد » .

وبدهي جدا ، والحالة هذه ، ان تجد الاحزاب اليسارية تجهد لاستقطاب المثقفين ، في محاولة منها لايهامهم بانها تحمل اليهم المستقبل والحرية ، وينشط الشيوعيون في هذا المجال جد النشاط ، لزعزعة ثقة المثقفين بمجتمعاتهم من جهة ، ووعدهم بالفردوس الارضي من جهة اخرى ، وهكذا يزرعون الحقد في قلوبهم ضد كل ما هو قائم ولا سيما ضد الفئات الحاكمة .

ولا يخفى ان الماركسية تبشر بدكتاتورية البروليتاريا ، ومن ثم بناء المجتمع الشيوعي . بيد ان المجتمعات الشيوعية القائمة تقدم اسطع مثل على انها جحيم المثقفين ، والمقبرة التي تدفن فيها حرية الفكر والمواهب وسائر النشاطات العقلانية ، ويمارس النظام الشيوعي ضغطا رهيبا على كل نامة فكر واختلاجة شعور ويقظة ضمير ، وهو يسعى جاهدا الى وضع المثقفين في قمقمه الرهيب ، مطوقا اياهم بطلاسم الايديولوجية الماركسية المعادية لروح الحضارة ، والخانقة للحرية ، والقاضية على كل تطلع انساني نحو مستقبل افضل .

وبهذا المعنى ، كان اليسار الشيوعي اليوم الافيون الذي يمتص الطاقات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الابداعية لدى الشعوب ، لدفعها الى مهاوي الضياع ، ومزالق الظـــلم والاضطهاد ، عاملا على تهديم الحضارة في سبيل احلام طوباوية كاذبـــة لن يستفيد منها سوى الفئات المتسلطة في مجلس الكهنوت الحزبي الذي يحكم البلاد بالحديد والنار ، ويفرض علـــى الشعـــوب التي ابتليت بـــه، التسليم والاستسلام ، والخضوع والخنوع ، في محاولة منه لقتل المشاعر الانسانية لديها وخنق التطلع والطموح .

وبذا كان المثقفون الثوريون ظاهرة مرضية في المجتمعات الحديثة ، تلتقي في اكثر من مثل ومجال ، بظاهرة الهيبية التي يدعي افرادها لانفسهم القدرة على تغيير المجتمعات وبناء الفردوس المنشود ، بينما يمتص الحشيش والافيون اراداتهم وامكاناتهم وطاقاتهم الابداعية ، ولا يدرك اولئك وهؤلاء انهم انما يشكلون وقود الثورة الشيوعية التي تعمل على تحويل المجتمعات الانسانية الى سجون كبيرة وجحيم لا رحمة فيه ولا خلاص منه .

قدري قلعجي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الاول

اليَمِين وَاليَسار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

خرافـة اليسـار

ما هو اليمين وما هو اليسار ؟

ترى هل لا يزال هنالك مدلول معين لاي من الكلمتين ؟

ان مجرد سؤال يتقدم به شخص ما مـن هذا النوع معناه ان ذلـك الرجل قد التبس عليه الامر ، فهـو في شك من امره . وقد كتب المستر « الين » مرة يقـول :

« يتبادر الي عندما يتوجه الي احد من الناس قائلا : هل لا يـزال هنالك فرق بيّن بين الجناح اليميني والجناح اليساري ، اي بيـن مـن يطلقون على انفسهم رجال اليسار والاخرين الذيـن يطلقون على انفسهم رجال اليمين ،يتبادر الي لاول وهلة ان الرجل غير يساري على الاطلاق ».

ولا يجوز ان يثنينـا هذا الحكم الذي اصدره المستر « ألين » عن تفحص الحقيقة وتبيـان الصواب . ذلك لان مثل الحكم السابق ينطلق من الحقد والتفرّض ، اكثر من انطلاقه عن اعمال الفكر والخضوع للمنطق .

فمـا هـو اليسـار ؟

يقول المسيو « ليتر » : اليسار هو حزب المعارضة في البرلمانـات الفرنسية ، وهو الحزب الذي يتخذ اعضاؤه مقاعد لهم في الجانب الايسر من منصة الرئيس . ولكن كلمة « اليسار » ذات مضمـون يختلف تمـام الاختلاف عن مضمـون كلمة « المعارضة » لحكومة مـا . ذلك ان وظيفـة المعارضـة تنتقل من حزب الى حزب ، تبعا لانتقال الحكومة القائمة نفسها. امـا « اليسار » فيظل « يسارا » من حيث مقاعد اعضائه حتى ولو كـان هـو الحزب الحاكم .

ومن هذا يتضح ان هنالك «التباسا» كبيرا في مضمون الكلمة .. فلنحاول ان ننظر الى طبيعـة المفهوم العام بيـن الناس العاديين .

ان الرجل العادي لا يقيد نفسه ضمن نطاق وجـود جهاز سياسي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يديـر الدولة فيه حزبان احدهمـا « يسار » والاخر « يمين » ، وكلاهمـا يحاول الزحف الى « الوسط » ،حين يستعمل كلمتي اليسار واليمين .ذلك لانه اعمق نظرة من هذا . فهو يشير الى وجود فئتين متميزتين من اعضاء البرلمان والناس عامة ، وتكـون الفئة الواحدة منهمـا تناقض الاخـرى تناقضا رئيسيا . ولذلك تجد الواحدة ذات مفاهيم مختلفـة عـن مفاهيم صاحبتها . ويظل ذلك الاختلاف يتحين الفرص للبروز ، سواء في التشريع او الترمنولوجيا (علم وضع التعبير المناسب للمعنى المحدد) بشكل دائم يصور الصراع بيـن المفهوميـن .

فاليسار واليمين في نظر الرجل العادي معسكران متطاحنان الـى الابد . والان هل توجد هاتان الطائفتان من الناس ، والافكار ، والاحزاب في اي مكـان اخر غير مخيلات المؤرخين الخصبة ، تلـك المخيلات التـي خدعتها قضية « دريفوس » ؟ وهل هنالـك يمين ويسار بالفعل عند غيـر المختصيـن بالتشريعات الانتخابية ودراستها ؟

دعنـا نـرى .

ان الجماعات المختلفة التي تعتبر نفسها مشمولة بكلمة « الجنـاح اليساري » لم تجمعها حتى الان وحدة او اتحاد على الاطـلاق . هذا اذا قصدنا معنى عميقا لكلمة (وحدة) . فقد ظلت الشعارات تتبدل وبرامج تنفيذهـا تتغير طوال العصور ، ومن عصر واحد الى اخر . وهل هنالك علاقـة مـا بيـن الجناح اليساري الذي ناضل من اجل خلق حكومـة دستوريـة في السابق ، وبين الجناح اليساري الذي يحكم ما يسمونه بـ « الديمقراطيات الشعبية » في الوقت الحاضر ؟؟

خرافـة رجعيـة

تعتبر فرنسا خير موطن يشار اليه حين التحـدث عن التناقض التقليدي والصراع الدائم بين اليسار واليمين . فبينمـا لا يكـاد المرء يعثر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

على اي اثر لهذا المعنى في انكلترا قبل الثلاثينيات من هذا القرن ، تـراه يجده واضحا جليـا في فرنسا قبل ذلك بزمن طويل . ولليسار في فرنسا نفـوذ طاغ . يبلـغ من قوته ان اعضاء الجناح اليميني،والاحزاب المسايرة لـه (او احزاب منتصف الطريق) يلاقـون ارهاقا وعنتا حين يحاولـون نفض « الالقاب » التي يطلقها عليهم خصومهم . والاحزاب الفرنسية ينظر بعضها الى بعض حسب آراء « الجمهوريين » او « الديمقراطيين » او « الاشتراكيين » .

وهنالك قضيتان ، مـن وجهة النظر السائدة في الـوقت الحاضر ، تجعلان الخصومة بين اليمين واليسار في فرنسا على اشدها .

اولاهمـا : مسألـة النظرة الدينية .

فالنظرة التي ينطلق منهـا دعاة المحافظة على « العهد القـديم » اي الطراز السابق في الحكم والادارة والاجتماع ، تنبع ممـا اوحت به تعاليم الكنيسـة الكاثوليكيـة في السابق .

اما النظرة الجديدة التي مهدت الطريق امام الثورة الفرنسية فهيعلى غير ذلك . لقـد ادانت الحكم المطلق بجميع اشكاله بمـا في ذلك سيطرة الكنيسة الكاثوليكية نفسها . وقد حارب « حزب التقدم » طوال القـرن الثامن عشر وردحا من القرن التاسع عشر كلا من الملك والكنيسة ، واظهر ميلا جليا نحو العلمانية ، كرها منه في ما بدر عن الكنيسة من عطف علـى الرجعية (او المحافظة على القديم) .

ويختلف الحال عن ذلك في انجلترا . اذ انه لما كانت الحرية الدينية قد توفرت للنـاس منذ سنـة ١٦٨٨ ، فاننا نجد الاحزاب التقدمية قد سارت في الطريق الاصلاحي المعتدل ، بدلا مـن سلوك العقلانية الصرفـة او الميل الى الاخذ بهـا على كل حـال .

وقد تم الانتقال من نظام « العهد القديم » الى « المجتمع الحديث »

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بكل وحشية وفظاظة في فرنسا ، بينما تم ذلك على الجانب الاخر من القنال بكل روية وتعقل . فقد توصل الانجليز الى الحصول على حكم دستوري سليم على مراحل متعددة ، واحدة بعد اختها . لقد طوروا مؤسساتهم التمثيلية الحالية من برلمانهم القديم الذي ترجع اصوله التاريخية الى اواخر القرون الوسطى . وتم لهم الحصول على « حق التشريع الديمقراطي » مع مرور الزمن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكان قد سبق ذلك ان عم مبدأ تساوي المواطنين امام القانون ، بعد ان ازيلت الفوارق والحدود بين المقاطعات منذ القديم .

وهكذا فان الافكار التي دفعتها الثورة الفرنسية الى كل اقطار اوروبا بعنف ، كسيادة الشعب ، والحكومة الدستورية ، والمجالس التمثيلية المسيطرة ، والمساواة في الحقوق بين الافراد ، كل هذا قد تحقق في انكلترا ، قبل فرنسا نفسها . وبدون اية حاجة الى ثورة شعبية عارمة تدعو المواطنين الى ان يحطموا قيودهم بجنون .

لقد كان مبدأ « دمقرطة » الحكم بؤرة تجتمع فيها آراء مختلف الاحزاب الانكليزية المتنافسة ، وتتفق عليها ، وان كانت تختلف في الكثير من القضايا الاخرى .

وسواء اعتبرناها امرا مفزعا يدعو الى الرعب والهلع ، او اعتبرناها قضية ملحمية كلها بطولة وفخار ، فان الثورة الفرنسية قد قسمت تاريخ فرنسا الى قسمين متميزين . ويبدو ان هنالك وطنين فرنسيين ، واحدا منهما « فرنسا العهد البائد » او « فرنسا ما قبل الثورة »والاخر « فرنسا المجتمع الحديث » او « فرنسا ما بعد الثورة » .

وهنالك صراع مرير بين الاثنتين ، ففرنسا العهد البائد لا تريد ان تولي ادبارها وتسلك الطريق الى بركة النسيان في التاريخ ، وهذا ما يجعل « فرنسا المجتمع الحديث » تشن عليها حربا صليبية لا هوادة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

فيهـا ولا رحمـة ...

وكلاهما ، القديمة والحديثة ، تعتبر نفسها مثلا اعلى لخير ما ابدعه الفكر الانساني على مر العصور . فالاولى تستثير ، الاسرة ، والنظام ، والدين . والثانية : العقل ، والمساواة ، والحرية .

وهكذا فاننا نجد في الواحدة ميلا الى الاخذ بالتطور التدريجي ضمن حدود النظام السائد ، ونجد في الاخرى ايمانا عميقا بقدرة الانسان على اعادة بنـاء مجتمعه حسب ما تمليه الحقائق العلمية الراهنة .

وبمعنى اخر ، ان هذا الصراع الذي تقع عليه هو صراع بين اليمين واليسار ، فاليمين هو حزب المحافظة على التقليد والامتياز المتوارث ، واليسار هو حزب افساح المجال للتقدم والكفاءة الشخصية .

وليس هذا التصنيف الكلاسيكي هو الصواب كما انه ليس خطأ .. اما صوابه فيعود الى انه حاول ان يحدد المعنى فأصاب منه شيئا ، واما خطؤه فهو انه لم يصب الحقيقة بكاملها .

ولذلك ترانا نقول : نعم انه تصنيف صحيح، ولكنه اصاب نصف الحقيقة لا اكثر .

وهو ، اي التصنيف المذكور ، موجود في مختلف طبقات الشعب الفرنسي وان كان لا يشمل الشعب بكامله . وفي كل مكان يقع الباحث على مسيو « هوميس » المحافظ قبالة مسيو « كوري » التقدمي ،ومسيو كليمنصو السياسي المعروف قبالة الجنرال فوش العسكري والسياسي المعروف ايضا .

ونحن نجد في الكثير من الحالات ، واخصها ما يتعلق بالقضايا التشريعية او القضايا المثيرة كقضية دريفوس ، شيئا من الاتفاق الملحوظ بين « الحكومة » و« الكنيسة » في جهة ، وبين « التقدميين» في جهة اخرى . وبذلك تنقسم البلاد الى كتلتين واضحتين في معالمهما . الا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ان هذا الانقسام نفسه كثيرا ما يكون عبارة عن تمويه متقن يخفي وراءه اصطراع الاراء داخل الكتلة الواحدة . وها هو تاريخ فرنسا منذ سنة ١٧٨٩ ، اي بداية الثورة الفرنسية الكبرى ، خير شاهد على ذلك فلو تفحصناه لوجدنا ان كلا من الكتلتين ، (اليمين واليسار) كانت عاجزة عن الاستمرار في الحكم لوحدها نتيجة لعدم اتفاق العناصر التي تتألف منها تلك الكتلة .

وهذا ما يجعلنا نرى بان القول بوجود « يسار واحد » ليس اكثر من مجرد وهم خادع وخرافة لا اساس لها . اما سبب القول بها فهو تلك الاخفاقات المتتالية التي ابتليت بها فرنسا منذ سنة ١٧٨٩ حتى سنة ١٨٤٨ .

لقد ظل « اليسار » يقف موقف المعارضة حتى قيام الجمهورية الثالثة (هذا اذا تحينا الاشهر القليلة ما بين ثورة شباط (فبراير) وحرب الشوارع في حزيران (يونيو) سنة ١٨٤٨) ، اي طوال القرن التاسع عشر تقريبا . وقد عارض « اعادة الملكية » لانه كان يعتبر نفسه الوريث الشرعي للثورة الفرنسية الكبرى ، تلك الثورة التي يعتبرها مصدر دعواه التاريخية في الماضي ، ومرتكزا لاماله واحلامه في المستقبل .

ولكن هذا « اليسار » المهووس كان فوضويا ، معقدا ، يبعث على الفزع شأنه شأن الحوادث الفظيعة التي خلقته فانتسب اليها . لقد كانت وحدته وحدة خرافية لا اكثر . فهو لم يتحد على الاطلاق ما بين سنتي ١٧٨٩ و١٨١٥ ، بل ظل مبعثرا شذر مذر . وكانت هذه حاله سنة ١٨٤٨ عند قيام الجمهورية الثالثة لتملأ الفراغ الدستوري الذي نجم عن ازاحة النظام السابق .

اما اليمين فكان بدوره ايضا لا يزيد في وحدته عن خصمه . ففي سنة ١٨١٥ مثلا ، كان اليمين ، او الحزب الملكي ، موزعا بين «المغالين»

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الذيـن يحلمون باعادة « النظام القديم » بكامله ، وبين « المعتدلين » الذين كانـوا مستعدين لان يقبلـوا الحياة على اساس الوضع الجديد الراهن .

وكان قدوم لويس فيليب شيئا لم يتوقعه « اليمين » ولا « اليسار » في ذلك الحين . لقد افسد على الفئتين كل ما كانتا تصبوان اليه . ومـع هـذا نجدهمـا لـم تستطيعـا الاتفاق على شيء ، بالرغم من انهما كانتا تمقتـان لويس فيليب ، المغتصب الجديد للعرش .

لقد سارت الفوضى السياسية في القرن التاسـع عشر علـى نفس المنوال الذي سارت فيه حوادث الثورة ، فكانت تخبطا اعمـى لا يهتـدي بشيء . فقـد ادى فشل « الملكية الدستورية » الى نظام جديد ، الا ان هذا النظام لم يكـن اكثر مـن « ملكيـة حقيقيـة ولكن عن طريق شبـه برلمـانيـة » .

ومعنى هذا انه صير الى اعطاء الملك سلطات شبه مطلقة بفضل قدرته على ضمـان الحصول على اصوات اعضاء البرلمان .

وليس هذا تقدمـا يذكر على كل حال ، فالامر لا يعدو تغيير الوسيلة فقط ، ودون المساس بالغاية التي من اجلها كان يجب ان يتم ذلك التغيير .

وحتى هذه « الملكية عن طريق البرلمان » قد فشلت ايضا .

وحينئذ جاءت «الجمهورية» . الا ان هذه قد تحولت ـ مع الاسف ـ الى شبه « امبراطورية للعوام » . لقد سيطر عليهـا الرعاع ، فغدت الدولة خاضعـة لهـم .

كل هذا من جانب اليمين ، فلنلتفت الى اليسار الان ..

في نفس الوقت الذي كانت فيه الفئات اليمينية تتناحر ، كما اسلفنا، كانت مثيلاتها في اليسار تصطرع بعنف شديـد . فقـد تنازع مـن دعـوا انفسهم بـ « كونستتوان » مـع آل « الفـولان » وآل « جيروند » وآل « اليعاقبة » ، الفئة منهم ضد الاخرى حتى انتهوا الى التسليم امـام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

« دكتاتور عسكري » .

وكانت هذه الجماعات اليسارية لا تتنافس فيما بينها من اجل الاستحواذ على الحكم فقط ، ولا تحارب بعضها طمعا في السيطرة المفردة. كلا ، بل كانت تختلف ايضا بصدد شكل الحكومة التي يجب ان تكون في فرنسا ، والوسائل التي يجب اصطناعها بغية التوصل الى تحقيق تلك الحكومة ، ومدى الاصلاحات التي يكون على تلك الحكومة أن تقوم بها.

وكان الملكيون الذين يريدون لفرنسا ان تكون ملكية دستورية كما هي الحال في بريطانيا ، يتفقون مع الجمهوريين في ذلك ، ولكن بصدد كره الفريقين للعودة الى« النظام القديم » فقط . اما في غير ذلك فالفئتان لا تطيق الواحدة منهما الاخرى .

وليس هدفي في هذا الكتاب ان ابحث الاسباب التي جعلت الثورة الفرنسية تسلك ذلك الطريق الفظيع الذي سلكته . فقد كفاني البروفسور « فرّو » مؤونة ذلك . وكان في اخريات ايامه مفرما بتقصي هذه الاسباب ، والاشارة الى ضرورة التفريق بين الحركة البناءة التي قامت من اجل توسيع حق الانتخاب بين الفرنسيين ، ومنحهم حريات معينة، وبين الثورة الهدامة المدمرة التي نجمت عن الاطاحة بنظام شرعي مع عدم تقديم نظام اخر تتوفر فيه الشرعية مكانه .

والحق ان التمييز الذي بينه الرجل مقنع للغاية .

فالحركة البناءة تمثل التغيرات التي نعطف عليها ، ونراها جديرة بالتقدير ، الا وهي توفير حكومة تمثيلية ، وانصاف اجتماعي وحرية فردية وثقافية . اما الثورة الهدامة المدمرة فهي التي يقع على عاتقها جميع ما اقترفته من شرور ، كالارهاب ، والحروب ، والدكتاتورية ثم الطغيان السافر المقيت .

وبوسع الواحد منا ان يتخيل ان « الملكية » كانت ستقوم بما جاءت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

به الثورة من بعض الحسنات واعتبرته من منجزاتها . ذلك ان الملكية كانت لا شك ستتطور ، وان كان تطورها بطيئا .

الا ان الادمغة التي اوحت بالثورة (ومع انه ليس من الضروري ان تكون مناقضة للملكية من اساسها) قد هزت طريقة التفكير عند الفرنسيين بل قد اقتلعتها من جذورها . وكان اكثر ما يتجلى ذلك فيما يتعلق بالقواعد التي يقوم عليها النظام الملكي ذاته . وهكذا ، فان الافكار الجديدة التي نشرها « انبياء الثورة » قد زعزعت « اصول الشرعية » في عقول الفرنسيين ، فأدى ذلك الى وقوع « الارهاب » اثناء الثورة ، والاخطاء الجسيمة التي مارستها الثورة فيما بعد .

وقد ظهر من خلال ذلك حقيقة واحدة ، وهي أن « النظام القديم » قد تبخر كليا بضربة واحدة . وقد تاهت فرنسا طوال قرن كامل ظلت خلاله تفتش عن نظام جديد تقبله . وانقضى ذلك القرن ، وبعدئذ وجدت فرنسا ضالتها . ولكنها كانت قد دفعت ثمنا باهظا تمثل في كثير من الارواح والدموع .

كانت النتائج الاجتماعية المرجوة من الثورة قد اتضحت منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولم يعد هنالك اي مجال للبحث في اعادة الامتيازات الملغاة ، او قضية تساوي المواطنين امام القانون . اما قضية اقامة نظام ملكي او غيره فكانت لا تزال غير بائنة المعالم في ذلك الحين .

وكانت الامال في تحقيق نظام ديمقراطي للبلاد لا تحصر نفسها في شكل معين ، كالنظام البرلماني مثلا . فها هم البونابرتيون ، او انصار بونابرت يخنقون الحريات السياسية باسم الديمقراطية نفسها . وليس هنالك كاتب فرنسي معاصر واحد يشهد بان « يسارا موحدا » كان موجودا في ذلك الحين حتى يقف قبالة انصار « النظام القديم » اليمينيين .

وهكذا فان « حزب التقدم » كحزب معارض ليس الا خرافة لا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

تستند الى واقع .

لقد صرح كلمينصو حين تم ضمان نجاح الجمهورية الفرنسية الثالثة بقوله « ان الثورة كتلة واحدة » . ومع ان ذلك نقيض لكل الشواهد التاريخية الثابتة ، فقد حسم به كلمينصو جميع المنازعات بين مختلف فئات « اليسار » .

وهكذا بدا ان « الديمقراطية » قد تصالحت مع « البرلمانية » وتم تقرير المبدأ القائل بأن الشعب هو مصدر جميع السلطات . وكانت الظروف العالمية قد تغيرت آلان . فساعد ذلك في ضمان الحريات الفردية للمواطنين الفرنسيين ، كما جعل قدوم طاغية او دكتاتور الى الحكم امرا مستحيلا .

وقد بدا ان المعتدلين والمتطرفين ، والليبراليين والمحافظين لن يتنازعوا فيما بينهم بعد الان ، ولن تحاول طائفة منهم ان تقضي على منافستها . ذلك لان الاهداف التي تتفق عليها جميع هذه الطوائف قد تحققت للجميع .

وهكذا قامت الجمهورية الثالثة ، وهي نظام دستوري ، كما انه مقبول لدى الشعب ، بالاضافة الى انه يتمتع بهالة من المجد والجلال، كانت تشع عليه من كونه ابنا بارا ينتسب في اصوله الى (كتلة الثورة) .

الا ان الامر لم يكن بتلك السهولة . ففي اللحظة التي كان فيها ترسيخ الجمهورية الثالثة يضع حدا للمنازعات الداخلية في اليسار البرجوازي كانت هنالك زعنفة جديدة تبرز الى الوجود .

لقد برز « يسار ضد الرأسماليين » بعد ان كان اليسار في السابق « يسارا ضد الملكيين » . فهل بالمستطاع القول بان هذا « اليسار » الذي يدعو الى « ملكية الشعب لوسائل الانتاج » قد نتج من نفس الفلسفة التي انتجت « اليسار السابق » ؟؟ وهل بالمستطاع القول بان لليسار اللاحق نفس اهداف اليسار السابق واغراضه ؟؟ ان اليسار اللاحق يدعو الى «ملكية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الشعب لوسائل الانتاج » بينما كان اليسار الذي سبقه قد ثار على الحكم الفردي المطلق ونظام الطبقات ، والنقابات المؤتلفة . فهل هما شيء واحد يا ترى !

كلا ، طبعا . لقد ظهرت الماركسية . وهي تضع حدا فاصلا بين جناحي اليسار الانفي الذكر ، كما انها تضمن استمرار التفريق بينهما. وهي تقول : « ان الطبقة الرابعة تعقب سابقتها الثالثة ، ولذلك فان طبقة البروليتاريا ستخلف الطبقة البرجوازية .. لقد ازاحت البرجوازية النظام الاقطاعي وحررت الشعب من قيود الولاء الاجباري والتضييقات الكثيرة في امور الحرية الفردية والدينية على السواء . وحين شعر الفرد المتحرر بتخلصه من قيوده هذه ، ولم يجد الطمأنينة التقليدية التي كان ينعم بها في السابق ، وجد نفسه عبدا خاضعا لسيطرة « ماكينة السوق » ، اي نظام التسويق والعرض والطلب . كما وقع فريسة سهلة لجشع الرأسماليين . وعلى هذا الاساس كان لا بد من قيام طبقة جديدة هي طبقة البروليتاريا باعادة تنظيم المجتمع من جديد ، وتخليص ذلك « المتحرر » من ورطته مع نظام الاقتصاد الحر » .

ويختلف التأكيد على ضرورة الاخذ بالنظم الجماعية ، او قبول بعض المظاهر الليبرالية ، بين قطر واخر في نظر الاحزاب الاشتراكية ، كما ان للظروف الخاصة اثرا في هذا الاختلاف . فبعض الاحزاب الاشتراكية تشدد على ضرورة وجود قطيعة كاملة بينها وبين الطبقة البرجوازية، والبعض الاخر يشدد على ضرورة الاستمرار في مساق الثورة الاشتراكية العالمية الكبرى ، اي انه يرى للبرجوازية دورا لا يمانع في ان تقوم به،وان كان يضمن تناقصه بالتدريج .

وها هم « الاشتراكيون الديمقراطيون » الالمان في بلادهم قبل سنة ١٩١٤ لا يعبرون اي التفات للقيم الديمقراطية ، ولا يترددون في اعلان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

احتقارهم وعدم رضاهم عن المسلك الذي اختاره الاشتراكيون الفرنسيون المعاصرون . وذلك لان هؤلاء الاخيرين كانوا يتمسكون بالديمقراطية البرلمانية وحق الانتخاب العام .

والحق ان الصراع بين الديمقراطية البرجوازية وبين الاشتراكية في فرنسا يقدم للمتدارس مثلا صالحا عن الصراع السابق بين مختلف فئات اليسار البرجوازي قبل ذلك . وهم ينكرونه بشدة اكثر كلما اشتد بصورة اكثر عمقا .

وحتى وقوع الحرب العالمية الثانية ، ظل المثقفون اليساريون لا يكادون يذهبون في تفسيرهم للماركسية الى حد ان يعترفوا بانها تفصل ما بين الطبقة الجديدة التي ستحكم (طبقة البروليتاريا) ، وبين جميع من تسلموا الحكم حتى الوقت الحاضر ، سواء كان هؤلاءبرجوازيين او ديمقراطيين او سواهم .

وكان هؤلاء المثقفون يميلون دائما الى الاخذ بتفسيرات « جور » التي تؤاخي بين الماركسية وبين « الميتافيزيقية » مع ميل ظاهر الى قبول المبدأ الاصلاحي . وقد برز الحزب الشيوعي الفرنسي اثناء نشاط جبهة المقاومة الشعبية للنازيين الالمان اثناء الحرب ، اكثر من بروزه عن طريق النضال الطبقي في ايام السلم ، فأدى ذلك الى ان الكثير من اعضاء الحزب في فرنسا لا يزالون يعتبرون انفسهم مدينين بتلك الاستنارة الوطنية الى الحزب . ولذلك تراهم يدلون باصواتهم الى جانبه .

وليس هنالك بلد اوروبي ذا تاريخ تبدو في صفحاته مثل البشاعة والمخازي التي سببتها احداث وثرة كومونة ١٨٤٨ ، مثل فرنسا .

لقد احرز الاشتراكيون والراديكاليون معا انتصارا كبيرا فيانتخابات ١٩٢٤ و١٩٣٦ ، ولكنهم جميعا عجزوا عن الحكم سوية . ومنذ تلك اللحظة التي قبل فيها الاشتراكيون الدخول في وزارة ائتلافية ، اصبح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الشيوعيون بقدرة قادر ، هم الذين يمثلون طبقة الشغيلة ، فهم حزبها الذي يدعي الدفاع عن مصالحها ما وسعه الامر .

وليست الفترات التي تم فيها لم شمل الفئات اليسارية (كما حدث ابان قضية دريفوس ، وقضية فصل الدين عن الدولة) للوقوف امام فئات اليمين – تلك الفترات التي تأثر بها « ألين » في كتاباته – باعظم اثرا او اعمق دلالة من ذلك التصدع الذي حدث بين تلك الفئات (اليسارية) في سنوات ١٨٤٨ و١٨٧١ و١٩٣٦ و١٩٤٥ .

حقا ، ان « وحدة اليسار » ليست الا مغالطة فكرية اقل منها تشويها لواقع السياسة الفرنسية .

لقد عجز « حزب التقدم » عن بلوغ اهدافه حتى بعد ٢٥ عاما من الفوضى وسفك الدماء ، وحين بان له عجزه حبل بمفهوم مبسط للغاية مبتذل ، اراد به ان يميز بين الحق والباطل ، والماضي والمستقبل . ولانه اخفق في ان يوحد الطبقة العاملة مع الامة الفرنسية ويصهرها فيها، فقد اخذ المثقفون البرجوازيون يحلمون بيسار يضم في داخله كلا من « الطبقة الرابعة »و « الطبقة الثالثة » ، اي يضمهم مع البروليتاريا .

وهذا اليسار لم يكن خرافيا ابدا . لقد ظهرت له بعض الاثار بالفعل . فقد كانت الطبقتان تشتركان في التصويت لمصلحة احداهما احيانا . ولكن النجاح في احراز هذا الانضمام لم يدم طويلا . اما السبب في ذلك فهو ان الجماعتين لا تتفقان الا على شيء غامض مشوش مجمله كره الرجعية ، والنضال ضد سيطرة رجال الدين . وقد اصبح هذا النضال عتيقا باليا لا يستثير حماسة احد في الوقت الحاضر .

عدم ارتباط القيم

اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا بأن الفكرة العامة التي يخرج بها طلاب قارتي اسيا وافريقيا حين يفدون الى الجامعات الاوروبية او الاميركية هي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الماركسية . ولكنها ليست الماركسية الاصيلة ، بل نجدها مفهوما مهزوزا عنها .

وتقوم هذه الفكرة في اذهان اولئك الطلاب الوافدين على اعمدة ثلاثة ، اولها واهمها فكرة ملكية الشعب لجميع وسائل الانتاج،وثانيها كره شديد لكل ما من شأنه ان يؤدي الى تركيز السلطة الاقتصادية في ايدي ما يسمونه بـ « التروستا ت» ، وثالثها ادراك شامل « لماكينة السوق » اي نظام التسويق الحالي في« العالم الحر » .

ولذلك فاننا نجدهم يجعلون شعار « ابق الى اليسار » يعني حتمية التقدمية في بلدانهم ، وذلك عن طريق التأميم واشراف الدولة ، مما يؤدي الى تساوي المداخيل بين المواطنين في اخر الامر .

وقد كسب هذا الشعار كثيراً من الشعبية في العشرين سنةالاخيرة في انكلترا . ولربما كان ذلك بفضل ان الماركسية قد غدت الفكرة القائلة بأن « اليسار » هو ضمان الحياة المقبولة في المستقبل وتجديدها . كما أكدت ، حسب زعمها ، بان « اعداء الرأسمالية » هم الذين سيتولون مقاليد الامور .

ولربما كان الانتصار الذي احرزه حزب العمال البريطاني فيانتخابات سنة ١٩٤٥ مثلا طيبا على التنفيس الذي تسعى اليه الطبقات الفقيرة عن حقدها على الطبقات الممتازة الحاكمة .

وبهذا يكون التوافق بين الحاجة الى اصلاحات اجتماعية عامة وبين الثورة على اقلية حاكمة هو الذي يبدو وكأنه « يسار » في نظر الكثيرين. ذلك ان هذا « اليسار » الذي يشيرون اليه يتم خلقه في مثل تلكالظروف

هذا في انكلترا ، اما في باقي اقطار القارة الاوروبية فان الحدث الايدلوجي الحاسم كان هو « الانقسام المزدوج » . حتى انه يمكن اعتبار ذلك « الحدث » الظاهرة الاعم والاعمق في جميع اوروبا . فما هو هذا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الانقسام المزدوج ؟

انه انقسام في اليمين يقابله انقسام في اليسار . وقد احدث انقسام اليسار كلا من الفاشية والنازية في طرف واحد ،والشيوعية فيالطرف الاخـــر .

وكان الامرعلى غير هذه الحالة في غرب اوروبا . فقد حدث انقسام ايضا ، ولكنه من طبيعة اخرى . لقد تم الانفصام بيـن مفاهيم « اليسار » وقيمه الاجتماعية ، وبين مسلكه السياسي . اما سبب ذلك فيعود الى نتائج اثار انقسام قارة اوروبا نفسها ، والفوضى العقائدية التي اعقبته ، كما انه يعـود الى عدم ترابط القيم الاوروبية حيـن يجري تطبيقها على مجتمعات غيـر اوروبية ، ايضـا .

وانه لمن الخطير جدا ان يحاول تطبيق المصطلحات السياسيـــة الاوروبية على المنازعات الداخلية في اقوام غير اوروبية . هذا اذا كان الحال مستويا في اوروبا والامور العادية ، فكيف به يا ترى عندمـا تكون الاحزاب السياسية الاوروبية ترزح في الفوضى بحيث يعجز الواحد منها عن تلمس الطريق ، او حتى تحديد الوجهة التي يريد ان يسير اليها ؟؟ الا يكـــون ذلـك ادهـى وأمـر ؟

والحق انها لقاعدة عامة صائبة ، ان النظم السياسية (اية نظم) سواء البرلمانية منهـا او غير البرلمانية ، تخرج بنتائج عجيبة جدا ، ومناقضـة لاصولهـا على خط مستقيم اذا نقلت من مهدها . وأعني بذلـك اذا نقلت بحذافيرها من مجتمعاتها الاصلية الى مجتمعات جديدة مخالفة .

وليس هذا مقصورا على حالة بعينها . فحتى النظم البرلمانية يمكـن ان تكـون تقدميـة او محافظـة وفاقا لنوعية الفئة الاجتماعية التي تأتي بهـــذه النظـــم .

فعندما تقوم جماعـة من الضباط المغامريـن ، مسنودة بالبرجوازيـة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الصغيرة في بلدها ، بحل البرلمان ، ايـن يا ترى يكون اليسار واليمين ؟ ان الضباط الذين يعلقون الدستور وحرياته المضمونة (وبكلمة اخرى الضباط الدكتاتوريين) لا يجـوز تصنيفهم في طائفة اليسار . نعم ، انهم يحكمون بلادهم بالسيف وحده ولكن هذا لا يكفي لاطلاق صفة « اليسارية » على هذه الفئة . وحتى لو اطلقهـا عليهم « البيروقراطيون » الذين كانوا يزيفـون الديمقراطية ويستغلون حريتها الفضفاضة للابقاء على امتيازاتهم الكثيرة ، فان تلـك الصفـة تصبح مدحا اكثر منهـا مذمة وتشهيرا .

وفي أقطار اميركا الجنوبية وشرق اوروبا اظهرت تلـك الوسائـل « الجماعية » نفسها . وكان قد سبق ان اتضحت الحاجة الى اجـراء اصلاحات اجتماعية في تلـك البلدان ، ولكن احدا لـم يكلف نفسه النظر الى تلـك الدلائل والامارات .

وكان قد تم في تلك البلدان ، وحبا في تقليد اوروبـا ، ان انشئت برلمانات وحكومات دستورية .. ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ لقد ظل الشعب جاهلا اميا ، كمـا بقيت الطبقـة المتوسطة فقيرة لا تكاد تستطيع الدفاع عن نفسها . اما تلـك البرلمانات « الرسمية » في الواقع ، فقد احتكرهـا الاقطاعيون وكبار الملاك ، هم والمحسوبون عليهم من البيروقراطييـن فـي جهـاز الدولـة .

وعلى هذا الاساس قامت دكتاتورية بيرون في الارجنتين . تلـك الدكتاتورية التي حفظت مصالح الاقطاع ودلاديله ، وان تظاهرت بغير ذلك . فهل ترانا الان ننظـر الى نظام بيرون على انه يقع في جناح اليسار اواليمين اذا اردنـا تصنيفـه ؟

والحقيقة التي يمكن استخلاصها من ضرب هذه الامثلة المتباينة هي:

ان القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية اليسارية التي هي آخذة في التوفيق فيمـا بينها في اوروبا لا تزال تتناقض تناقضا جذريا فـي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اقطـار القارات الاخـرى .

ومن الطبيعي ان عدم الترابط المشار اليه (بين المفاهيم السياسية وتطبيقاتها العملية) في اليسار في اوروبا ، لم يعدم من يلتفت الى تقصيه بالدراسة العميقة عند النظريين . واعني بهذا ان هنالك عدم ترابط على الصعيد النظري ايضا .

فمنذ قديم الزمان وصف فلاسفة الاغريق الموقف النموذجي الذي يمكن ان تتخذه « التحركات الجماعية » . وقرروا انه لا يمكن نسبة هذا الموقف الى اليمين الارستقراطي كما انه لا يمكن نسبته الى « اليسار الليبرالي » . ولذلك اشاروا اليه بقولهم « انه الطغيان » . وهو كثيرا ما يكون عسكريا بقوة السلاح ، وقد سموه « الطغيان القديم » .

وينتج ذلك في حالة وجود « انتقال ل من مجتمعات قبلية الى مجتمعات مدنية وحرفية . اي اثناء خطوة تشكيل مجتمع قبلي من جديد ، وصبه في قالب مجتمع يرتكز على الاستقرار في المدن ، ويكون العنصر النشيط فيه هو فئة الحرفيين :

اما « الطغيان الجديد » او « الحديث » فهو غير ذلك . انه ما ينتج بفعل الصراع بين الاحزاب المختلفة في برلمان ما .

وبهذا يكون « الطغيان القديم » يعتمد على قسم من الطبقات العليا على الاقل ، فهو يزيح مصالح الاقطاع ليهبها للتجار ، كما انه يحور النظم السياسية التي كانت سائدة في العصر السابق (الاقطاع) ويجعلها تسير في خدمة الحرفيين الجدد .

اما « الطغيان الجديد » فيعتمد على نقمة طائفتين اخريين .

اولاهما بقايا تلك الاسر التي راعها ان تخرج السلطة من يدها الى يد اخرى .

وثانيتهما تلك الجموع البشرية المعدمة بعد ان سلبها التجار كل شيء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد ائتلفت هاتان المجموعتان على نطاق اوروبا بكاملها في القـــرن التاسع عشر . وليس هنالـك ما يمنع قيام ائتلاف اخر من نوع جديد فـي القـرن العشرين ، الا انه ان قام ، كـان بشكل اخر . ففي المجتمعـــات الصناعية الحاضرة يجوز ان تتآلف اربع طوائف .

اولاها : الرأسماليون الذين يفزعهم جشع الاشتراكيين وميلهم الـى التحـدي .

وثانيتها : الجماعات بين ــ بين ، التي تجد نفسها ضحيـة للرأسماليين الكبار ، كمـا انها فريسة للطبقة العاملـة المنظمـة في نقابات جبارة .

وثالثتها : العمال المعدمون كليا ، حتى مع انهم افراد في الطبقة العاملة.

ورابعتها : الوطنيون الذيـن لا يقنعـون بعملية التطور التدريجي البطيء عن طريق البرلمانات كمـا ان لهم مطامح حقيقية في الاصلاح.

وقد حدث مثل ذلك ــ عدم الترابط ــ السابق الذكر في تاريخ فرنسا من قبل . وها هو نابليـون نفسه يمكـن ان يتخذ مثلا . صحيح انه قـد ثبت الاصلاحات التي جاءت بهـا الثورة الفرنسية في الدستور ، ولكنه مع الاسف ، استبدل « ملكيـة فرنسا » السابقـة ، وكانت ملكيـة ضعيفـة متسامحة ، بدكتاتورية جديدة . وكان شر ما في تلـك الدكتاتورية انها قوية نشيطـة طاغيـة .

هكذا كانت الحال بعد الثورة . ويبدو انه يحق لنـا الان ان نقول لقـد كانت « الاصلاحات الاجتماعية » و« نظام الحكم » متلازمتين في فتـــرة سيطرة « البرجوازية » تمامـا كمـا ان « مشروع الخمس سنوات » يلازم نظام الحكم الاشتراكي في الوقت الحاضر .

ولتفسير ذلك اقول : لقـد جاءت الثورة الفرنسية ببعض الاصلاحات الاجتماعية ، ولكنهـا جاءت « بنظام الحكم الجماعي ايضا » . وما كـان لها ان تفعـل غير ذلك .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وعلى نفس المنوال يكون « مشروع الخمس سنوات » ضرورة لازمة يتوصل « نظام الحكم الاشتراكي » عن طريقه الى فرض طغيانه !..

لقد كان من الضروري لـ « ايدلوجية اليسار » ان تنظر الى«الفاشية» على انها حركة « رجعية » حتى تستطيع ان تحتفظ بصفة النقاوة في عيون اصحابها . وكان « اليسار » ينكر بكل ما اوتي من قوة ، ورغما عن وجود الحجج الدامغة ، ان « القمصان السوداء » هم أعداء لدودون « للديمقراطية الاشتراكية » . ولم يكتف « الفاشيون » بهذا الانكار بل عمدوا الى اوقح من ذلك ، فانكروا ان « هذه القمصان » عدوة البرجوازية الليبرالية والفئات الارستقراطية ايضا .

وقد قامت ثورات « يمينية » تقابل « الفاشية » ، ولكن هذه الثورات لم تفعل اكثر من ابقائها السيطرة في يد الرأسماليين واستبدالها « الحكومة البوليسية » بـ « حكومة برلمانية » .

ومهما قيل عن مساهمة « الاحتكارات » والشركات الكبيرة في خلق الفاشية وتشجيعها ، فان ذلك لا يعدو كونه مغالطة تاريخية يقصد منها اساءة فهم « الحركات الوطنية » وصبغها بصبغة مغايرة للواقع . ان اصحاب هذه الدعوى يريدون ان يرجعوا شرور الفاشية الى شكل البناء الفوقي في النظام الرأسمالي الاحتكاري .

« خذ « البلشفية » في طرف ، و« الفاشية » في اسبانيا في طرف اخر . واظننا لن نكون في حاجة الى اعمال فكر حتى نقرر ايهما في اليمين وايهما في اليسار . فالبلشفية الى اليسار طبعا وكذلك فاشية فرانكو الى اليمين .

لقد احتلت البلشفية نفس الطريق التي يسلكها الحكم المطلق التقليدي وازالت الطبقة الحاكمة السابقة ، وجاءت بنظام الملكية الجماعية لوسائل الانتاج .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

اما الفاشيـــة الاسبانية ، فقد حلت محل « نظام برلماني » كـــان يتمتع بتأييـــد :

الطبقات ذات الامتيازات ، وهي الملاكون الكبار ، ورجـــال الصناعـــة الاثرياء ، ورجال الكنيسة . وقد رفع لواءها وكسب لها النصر في ميادين « الحرب الاهلية » طائفـــة واحدة وعامل واحد . اما الطائفة فهي كتـــائب المستعمرات ، واما العامل ، فهـــو التدخل الالمانـــي والايطالي .

وهكذا ، فقد جاءت البلشفية لتستثير « ايديولوجية » اليسار ، اي العقلانية ، والتقدم ، والحرية . بينمـــا جاءت فاشية فرانكو تستثير نقائض ما سبق ، فقامت على : الاسرة ، والديـــن والسلطة .

ومن هذا التبايـــن الواضح يبدو الفرق جليا بين البلشفية والفاشية، في تقريرنا ايهمـــا تمثل « اليسار » وايهما تمثل « اليمين » .

ولكن هذا الوضوح لا يتوفر في كثير من الحالات فها هي «الاشتراكية الوطنية » في المانيا تستغل الملايـــن من البائسين الذين لم تكن حالهم خيرا من حال امثالهم الذيـــن يستجيبون للدعوة الشيوعيـــة او الاشتراكيـــة . وصحيح ان كبار رجال المال من اصحاب البنوك والمؤسسات الصناعيـــة الضخمة هم الذيـــن امدوا هتلر بالمال ، كمـــا انه صحيح ايضا ان الكثير من العسكريين الالمان كانـــوا ينظرون الى « ألفوهرر » على انه الامل الوحيد الذي سيعيد الى المانيا مجدها المزعزع وكبرياءها الجريح ، ولكنه صحيح ايضا ، وبنفس المقدار ان لم يكـــن اكثر أن ملايـــن الشعب الالماني كانت تؤمن بهتلر وتلجـــأ اليه بعـــد ان فقدت كل ثقـــة لهـــا في صلاح النظام البرلماني .هذه هي الحقيقة . اما اخفاؤهـــا فليس في مصلحـــة احد على الاطلاق .

وفي دولة متطورة الصناعة (كالمانيا) تغدو دوامة الازمة الاقتصادية، اذا اضيفت الى احقـــاد الشعور بذل الهزيمة العسكرية شبيهة كل الشبه بالازمة التي تنجم في مجتمع مـــا في اول مراحله بالتصنيع . ففي كـــلا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحاليـن يكـون هنالك عجز ظاهر في النظام البرلماني ، وركـود اقتصادي خانق . وهذا هـو خير مهد تفقس فيه الثورة . ذلك لان مختلف الفئـات التي يرهقها الوضع القائم فيتلـ ك الحال تتوهم أن الثـورة هـي المخلص الوحيد . هكذا ينظر الفلاحـون الذيـن يرزحون تحت اعباء ديون المرابين، والعمال الذيـن تأخذ باعناقهم البطالة ، والمثقفـون الذين يقتلهم الفراغ لعدم توفر الوظائف ـ كل هؤلاء الذيـن يكرهـون الليبراليين والارستقراطييـن والاشتراكيين الديمقراطيين ـ فالى اين يتجهون في مثل هذه الحال ؟

لا شك انهم سيتجهـون الى مثل هتلـر .

ذلك لان الدعوة الى « السيطرة الجماعية » هي التي تفرض نفسها على مجتمع من هذا القبيل . وتقوم الاحزاب التي تمثـل تلـك الافكار بنشاط خارق ، لانهـا تجد الوضع ملائما لها ، وما عليهـا الا ان تلقي بشباكهـا حتى تتصيـد النـاس .

وسرعان ما يتسع نفوذ تلـك الدعوة ، واثر احزابها حين يلوح في افق البلاد ان النظام البرلماني يواجه مصاعب خطيرة للغايـة من جراء بروز مشاكل عويصـة بيـن مصالـح جماهير العمال من جهة وبطء الاجراءات البرلمانية التي تعالج تلـك المشاكل من جهة اخرى .

وحينئذ تصبح الجماهير ميالة الى التضحية بحرياتها السياسية فـي سبيل الحصول على اجراء فعال سريع . وهذا ما لم يخفه كل من هتلـر وموسوليني في بلديهما ، بل دعوا اليـه كي يستأثرا بشعبية عريضة ينفذان عن طريقهـا الى مراميهمـا البعيدة .

وقد تطورت الاشتراكية الوطنية مع مرور السنين ، فلم تعد رجعيـة في أواخر ايامهـا كمـا بدأت اول الامر . ففي المانيا وايطاليا اخذ ابنـاء العائلات الارستقراطية يحتلون مقاعدهم في جهاز ادارة الدولة جنبا الـى جنب مع الديمقراطيين الاشتراكيين ودرجة فدرجة اخذ الاقتصاد يتحـول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الى يدي الدولة ليهيمن عليه « الحزب » الذي اخذ على عاتقه ان يعيد بناء المانيا من جديد ـ وكان يهدف الى اعادة بناء اوروبا بكاملها ، حسب ايديولوجيته الخاصة ـ اذا استطاع الى ذلك سبيلا .

وهكذا تم في المانيا ان اصبحت « مبادىء اقلية » في الشعب ، هي « العقيدة الوطنية » لامة . ليس هذا فحسب ، بل « العقيدة الوحيدة الصحيحة » ، دون النظر الى اساليبها العنيفة ، ونظامها البوليسي المطلق .

وفي هاتين النقطتين يمكن القول بان النظام الهتلري اقرب الى «روسيا» وثورتها منه الى « الثورات المعاكسة » لها .

وعلى هذا الاساس يمكن القول بان « اليمين المتطرف » ،و« اليسار المتطرف » يلتقيان في بؤرة « نظام الحكم الجماعي » تمام الالتقاء .

ومن الطبيعي انه يمكن الجدل في ان « جماعية هتلر » جناح يميني، في حين ان « جماعية ستالين » جناح يساري . ويكون ذلك على اساس ان « الهتلرية » قد استقت مبادئها من رومانسية الثورية المعاكسة ، بينما استقت نقيضتها مبادئها من عقلانية الثورية . وكذلك على اساس ان الهتلرية عرقية بينما الاخرى اممية . هذا صحيح ، ولكنه بعد هذه السنين الطوال من بداية الثورة الروسية ، ما بالنا نراها محافظة على مظاهر « الجماعية » نفسها من « حكم البوليس » ، والنقمة على حرية الرأي ؟

واوجه من الجدل في الموضوع السابق وضع الامور في نصابها على الشكل التالي : في اي من القطرين يمكن التغاضي عن ملازمة الارهاب والفوضى للثورة ، الى حد اكبر ؟

ان البلاشفة من هذه الزاوية يمثلون اليعاقبة الفرنسيين ايام الثورة، وان كانوا قد تفوقوا عليهم في انتهاز الفرص واستغلال الظروف المواتية، فوسعوا مجالهم للعمل . ويعود السبب في ذلك الى ما يلي :

لما كانت روسيا أقل تقدما من غيرها من الدول الاوروبية التي تأثرت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

بمبادىء الثورة الفرنسية وافكارها ، فـان ذلك « اي حقيقة تخلف الاقتصاد الروسي » فرض على الحزب الشيوعي فيها ان يشتد في جلد امكانيـات الانتـاج لدى شعبه . فسلـك في سبيل ذلك (اي الهاب قوى الانتـاج العاملـة بجنـون) طريقـا مغايرة لما سلكه اليعاقبة .

ولادلل على ذلك دعني استشهد بآراء ادموند بيرك .

الم يكـن هذا الرجل يعتقد ان مجرد وجود اليعاقبة في دست الحكم في فرنسا ، يشكل خطـرا اكيدا على بقاء النظم الدستورية في غيرها مـن البلاد ، كبريطانيا مثلا ؟ الم يكـن يرى ان الحرب محتومة بين افكارهـم الثوريـة وتلـك النظـم ؟

والان دعنا نلتفت الى الوراء قليـلا .

دعنا نلقي نظرة على الاهداف التي كان ينشدها « اليسار » حين قام بالثورة على « النظام القديم » في فرنسا . ولشد ما يدهشنا حينئذ ان نجد ان تلـك الاهداف لم تكـن متناقضة ، كمـا انها كانت كثيرة متعددة .

والحق ان الفضل يعـود للثورة في كثير من الحسنات ، فشكرا لها على ذلك . ومن هذه الحسنات ، ان فرنسا حققت المساواة الاجتماعية قبل غيرهـا من دول اوروبا . ولكـن ايـة مساواة اجتماعية ؟ لقـد تم ذلك على الورق لا غير . هذا بالاضافة الى ان القضاء على الاستقرار في البلاد طوال قرن كامل ، من جراء ازالة النظام الملكي ، كـان حسنة اخرى . ولكن مـن طـراز الحسنة الاولـى ! .

لقد تم القضاء على كل الحريات الفردية ، وشرعية الحكم طوال الفتـرة الممتدة ما بيـن ١٧٨٩ و١٨٨٠ . كل هذا بفضل معقبات الثورة . ومـن الطبيعي انني لا اقصد بكلمتي « القضاء » خنق الحريات من اساسها ، وانما اعني ان هذه الحريات كانت اقل احترامـا في فرنسا منهـا في جارتهـا انكلترا التي ظلت محافظـة على نظامها الملكي واستقرارها في ذلك الحين .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكان « الليبراليون » الفرنسيون ، اولئك الذين يهمهم امر مبدأ « هابس كوربوس » (اي ضمان الحرية الشخصية)، ومبدأ « لا ادانة الا من قبل محكمة شرعية » ، وحرية الصحافة ، والمجالس التمثيلية ضمن حدود القواعد الدستورية : كان هؤلاء الليبراليون ـ انصار الملكية وانصار الجمهورية منهم على السواء ـ ليسوا اكثر من اقلية ضئيلة لم يهتم بها في ذلك العهد أحد .

ومع ان « حق الانتخاب العام » لم يتم منحه في انكلترا الا في اواخر القرن التاسع عشر ، فان البلاد لم تعان ازمة الارهاب البوليسي من قبل الرعاع (كما تم الحال في فرنسا) . ولم يخش المواطنون الانكليز ان يلقى عليهم القبض ويساقوا الى غياهب السجون دون محاكمة ، كما وقع في فرنسا بالفعل . وهكذا فقد نال الانكليز اخيرا مثل ما ناله الفرنسيون ، ولكنهم وفروا على انفسهم فظائع الارهاب .

وهنالك ظاهرة اخرى من هذا القبيل في الوقت الحاضر ، وهي تتلخص في عدم التمييز بين تبدل الوسائل وتبدل الاهداف . ولاشرح هذا قليلا فأقول :

ان هنالك كثيرين ينظرون الى ان هدف الشيوعية يخالف هدف النظم المختلفة في « العالم الحر » . ويستشهدون على ذلك بان الوسائل التي يسلكها الطرفان تختلف الواحدة منهما عن الاخرى . والواقع يشهد غير ذلك . صحيح ان الوسائل تختلف ، ولكن الهدف نفسه لم يتغير ، بل انه اقل كلفة وايسر وصولا في العالم الحر منه في غيره .

ويدفعني هذا القول الى تبصير اولئك المثقفين الذين يستعجلون الامور بانه خير لهم ان لا يضحوا بحرياتهم الشخصية والسياسية وغيرها ، من ان يضحوا بها ولا يضمنوا نجاحا سريعا .

لقد أصبحت قضية ازدهار المجتمع الصناعي الراقي وتطويره قضية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يسلم بها الجميع في الوقت الحاضر . وكذلك قضية انصهار جماهير العمال في ذلك المجتمع . ولربما تساءل المرء ، كيف ينصهر العمال ؟ وحينئذ اقول: انني أعني ان العمال لم يعودوا عدوا لدودا للمجتمع الصناعي(الحر) المتطور، بل انهم قسم منه ، وذلك لانه يوفر لهم الكثير الكثير .

فمبدأ اشراف الدولة على الاقتصاد ، ان لم يكن ملكيته ، ومبدأ مساهمة اتحادات العمال والنقابات في تسيير الشؤون العامة ، ومبدأ حماية العمال ـ كل هذه المبادىء التي تشكل الحد الادنى الذي تطالب به الاشتراكية ـ قد اصبحت معترفا بها .

ولذلك فانه يمكن القول بان حركة العمال الديمقراطية تستطيع ان تسمح بانصهار العمال في المجتمع ، في جميع البلدان التي تتمتع بصناعة راقية ونظام دستوري عميق الجذور ، وبدون الحاجة الى التضحية باي من حرياتهم على الاطلاق .

وذلك بخلاف الدول الاخرى كروسيا ، حيث كان الاقتصاد متخلفا ، وطبيعة الحكومة المطلقة تتنافر مع متطلبات الايام الحاضرة ، مما اضطر الحزب الثوري في البلاد الى ان يسارع في وتيرة التصنيع ، حالما تسلم مقاليد الحكم .

وعن اي طريق تراه فعل ذلك ؟

لقد فعله بأن وضع امام جماهير الشعب احد نقيضين ، وجعل لهم مجال الاختيار ضيقا محدودا . لقد قال لهم :

اما ان تضحوا بمجهودكم الكثير ، واما ان تظلوا في تخلفكم الحاضر.

وهذا هو ما كانت تحمله اليعقوبية في فرسا في السابق ، وان كان الروس الحديثون قد اضافوا اليه قلة الصبر ، وظنوا ان من شأن ذلك ان يجذب اليهم قطاعا اوسع من الجماهير . كما ظنوا انه سيقترب اكثر فاكثر نحو الديمقراطية الاشتراكية حين تتداخل فيه نظرة التشاؤم البرجوازية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مـــع مرور الايـــام .

ولنا على ذلك تعليق بسيط ، وان كنـا نخشى ان يعتبر مـا سنقوله تفـاؤلا اكثر من الضروري . فنحـن نرى ان الشيوعية لا بد ألا وان تصـل اخر الامر الى اتفاق مـع اليسار الاشتراكي ، حتى ولو كان ذلك الوصـول في المستقبـــل البعيـد .

ولربمـا سأل بعضهم قائـلا :

وهل تعتقد ان الشيوعية ستتخلى عن نظرتها الاممية الحاضرة؟
او ، ومتى سيكون بوسع القوة العاملـة المتعاظمة فيهـا ان تسمـح بازالة الحكم البوليسي والسلطـة الجماعيـة المطلقـة ؟

ونحن نقول : لقـد أجبنا ضمنا في السابق عن السؤال الاول ، امـا الثاني فليعلم السائل ان هنالك ملايين عديدة من البشر يلتهمها الفقر . وان هذه الملايـين تحتاج الى قرون طويلة قبل ان تدرك الاسطورة وتتبيـن الحقيقة . وطوال هذه القرون ستظل تقبل ذلك المبدأ الذي يعدها بالوفرة والخير العميم وان كان وعدا كاذبا .

ومع هذا فانها تصل اخيرا الى الصواب . وستكون المصالحة بيـن « الحرية السياسية » و« الاقتصاد المخطط » اصعب بكثير من تلك المصالحة التي استغرقت قرنا كامـلا من الزمـن ، وتمت بين الافكار الاشتراكيةالتي جاءت بهـا الثورة الفرنسية ، وبيـن الاهداف السياسية التي قامت تلـك الثورة من اجل تحقيقهـا .

وهنالك قضية ثالثة : فقـد ظل النظام البرلماني ملائمـا من الزاويـة النظريـة والزاويـة التطبيقيـة لحاجات المجتمع البرجوازي ، فهل يكـون « نظام الحكومة الجماعية » شرطـا ملازمـا للاقتصاد المبـرمج او المخطط يـا تـرى ؟

وبكلمـات ابسط من هذه : الا يجلب تقدم اليسار معه اضطهادا اشد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مـن ذلـك الذي قـام ليهدمـه ؟

ديالكتيـك النظـم

لقد ولد اليسار وتميز شكله في احضان المعارضة ، فهـو ابن لفكرة. وقد استنكر النظـام الاجتماعي ، الذي أوجده . وكان هذا ، شأنه شـأن جميع ما يفعله الانسان ، غير متكامل ، بل فيه عيوب كثيرة . الا انه حيـن اصبح ذلك اليسار هو مالك الزمـام ، ففدا مسؤولا عن المجتمع ، قـام اليمين ، الذي احتل مركز المعارضة ـ الان ـ فبيَّن ان خصمه لـم يمثـل ثورة الحرية ضد الطغيان ، ولا انطلاق المحرومين ضد المرفهين ، بل قوةضد قـوة ، اي طبقـة ضد طبقـة .

وقد نتج من ذلك ان الطبقـة الجديدة التي اصبحت في الحكم صارت تتمتع بامتيازات تحرم منهـا الطبقة المغلوبة . وهكذا نرى انه لم يتغير شيء في الواقع ، وانمـا تناوبت الطبقتان دورهمـا في احتلال « المركز الممتاز ».

ومـا على المرء الا ان يستمع الى خطب السياسيين في الطبقة الحاكمة الجديدة حتى يقتنع مـن واقعيـة هذا الرأي .

ان العلاقات الاجتماعية بين الناس ، تلـك التي تطاولت عليها العصور قد اصبحت انسانية بالتدريج . وهي لم تبعـد افراد المجتمع واحدا منهمعن الاخر ، كمـا انهـا لـم ترفع فئة منهم وتنخفض باخرى .. على العكسمن ذلك . لقـد ظلت دائمـا توثق ما بينهم . ولا زلنـا حتى الوقت الحـاضر نمتدح « الايام القديمة السعيدة » حين كان قلب المرء فيها معمورا بـالولاء والاخلاص ، وحين كـان ما يربط الرجل بالرجل اكثر انسانية وحماسة منه في الوقت الحاضر ، فيحين اننا لا نجـد من يمتدح ذلك الفتور الذي يشوب علاقات افـراد هذا المجتمـع الحديث .

نعم ، لم يكـن الناس متساوين في المجتمع القديم ، ولكنهم كانوا اكثر انسانية في علاقة بعضهم بالبعض الاخر ، وها هم متساوون الان ، ولكـن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

علاقاتهم فاترة لا روح فيها . وكلنا يذكر الثورة التي قام بها « الفنديون » وطبيعي انهم لم يحاربوا من اجل الابقاء على قيودهم . لقد قاتلوا في سبيل حريتهم في ان يعيشوا حسب الطريقة التي يريدون .

وكثيرا ما يعمد اولئك الذين يدعون الى الثورة ـ المعاكسة، الى المقارنة ما بين « الدولة الثورية » او « دولة الثورة » ، والدولة الملكية ، وما بين الفرد حين يقع تحت رحمة الرأسماليين الحديثي العهد والبيروقراطيين الجدد ، وبين افراد الفلاحين والصناع الذين تآزروا بفعل اتحاد مصالحهم، فانتفضوا في وجه الملكية الفرنسية . ولكن هذه المقارنة لا تحتاج الى برهان . فالجميع يعرف ان الحكم في عهد لجنة الامن العامة وايام القنصلية وفترة « الامبراطورية » كانت اقرب الى الحضور في نفوس الشعب من الحكم في عهد لويس السادس عشر . ولكنه لا يجوز لنا ان نغفل عن ان ذلك القرب كان اشد خطرا ايضا . واثبات هذا بسيط للغاية . فليس هنالك حاكم او ملك توارث عرشه عن اسلافه ، في اوروبا في ذلك القرن ، كان يستطيع ان يعدم الناس بالجملة .

ان حرمان المساواة في الحقوق الشخصية بين المواطنين يشمل ناحيتين : اولاهما حق التصويت ، وثانيهما حق الالتحاق بالجيش . ولما كان حق دخول الجيش قد سمح به للجميع منذ زمن طويل قبل الثورة فان حق التصويت هو الذي كان يدور حوله الحديث في تلك الايام .

وبهذا الصدد كان الثوري يصر على وجوب الغاء مبدأ « صلاحية الملك المطلقة » ، ويؤكد ضرورة المساهمة العامة في وضع التشريع عن طريق دستور يضمن به حق الانتخاب العام واشراف من يتم انتخابهم على السلطة التنفيذية للبلاد .

اما الثوري ـ المعاكس فكان يقول بانه : مع ان حكم الملك مطلق من الناحية النظرية ، الا انه مقيد في الواقع . فهنالك العرف المتبع والسابقة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المدونة .

وقامت الثورة .. فكان من نتيجتها ـ شأن جميع الثورات الاخريات ـ ان اعيد تشكيل مفهوم كلمة « دولة » على نسق جديد ، كما زيد في صلاحية الجهاز الحاكم فيها .

وكان من الغريب حقا ان تجد « الاشتراكيين » يوافقون على بعض النقاط التي يعتنقها اخصامهم ، اي الذين قاموا بالثورة المعاكسة فيما بعد.

والحق ان الثورة قد الغت العلاقات الاجتماعية السابقة بين الشعب فيما يتعلق بامتيازات فئة على اخرى . ولكنها في نفس الوقت تركت وسيلة جديدة او صورة جديدة لذلك التمييز . لقد اصبح الناس متساوين في الحقوق نظريا ولكنهم مختلفون من حيث السطوة والمال .

نعم ان طبقة النبلاء الفرنسية قد فقدت امتيازاتها التقليدية ومركزها السياسي ، ونفوذها الواسع ، تبعا لان اساس مقامها الاقتصادي ، وهو الارض ، قد تزعزع ، ولكن كل ذلك لم يخلص الناس من وجود طبقة متميزة .

لقد جاءت البرجوازية .. وكانت هذه هي الوارثة لكل من : امتيازات النبلاء والارستقراطية المنقرضة ، ومركزها السياسي ايضا .

وهكذا فان كل ما تم بعد الثورة بهذا الصدد ، هو ان جاءت تلك الثورة باقلية جديدة سلمتها مركز اقلية قديمة . لقد كانت الطبقة الارستقراطية اقلية قديمة . لقد كانت الطبقة الارستقراطية اقلية في الامة الفرنسية ، وكانت تحكم . وجاءت الطبقة البرجوازية ، وهي اقلية ايضا .. ولكنها اخذت تحكم ايضا . فهل هنالك تغير جذري تمتاز به حالة عن الاخرى ؟

ونحن وان كنا نكتفي بالاشارة النظرية الى ذلك ، فان الاشتراكيين، واعني الكتاب منهم ، لا يقنعون بمثلها على الاطلاق .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

انهم يصفون الحالة البائسة التي اصبح فيها الفرد الفرنسي في الموقف الجديد . وهم يقدرون « الفردية » القاتلة التي صبغت العصر ويقولون :

كان الفرد يشعر بالضياع حين يجد نفسه منسلخا عن غيره تمام الانسلاخ . ويحس بالالم حين ينظر الى عالم زاخر بالفرديين من امثاله الذين تقتضيهم الحياة ان يتصارعوا صراعا مريرا حتى يحصلوا على لقمة الخبز. وكانت تلك اللقمة عرضة لتحكم حالة السوق ، فهو اما ناشط يوفر العمل، او راكد يخلق البطالة للعمال .

لقد كان ذلك « الطلسم الاقتصادي » الذي يسمونه « الازمة » يطحنهم طحنا .

وهكذا اضيف شعار « التنظيم » الى شعار « التحرير » . فما هو المعنى الذي هدف اليه من اضافة هذا الشعار ؟

لا أظنه يليق بنا ان نقفز الى هذا الشعار الجديد قبل ان نفهم شيئا يسيرا عن سابقه ، فما هو شعار التحرير يا ترى ؟

لقد قامت الثورة الفرنسية وهي تحمل شعار تحرير الفرنسيين من الملكية المطلقة ، ومظالم نظام الطبقات التي تقف حجر عثرة في سبيل الحصول على حق التمثيل الشعبي للجميع . وعلى امل ان ينتج من كل ذلك بعد تحقيقه مساواة اجتماعية بين المواطنين الفرنسيين .

هذا هو شعار التحرير ..

وقد فشل كما بينا آنفا ، لانه لم يساو بين المواطنين ،بل سلم السيطرة من يد طبقة الى اخرى ..

والان ما هو شعار « التنظيم » ؟

انه ما نتج بعد ان فشل سلفه . وهو يقضي بتنظيم المجتمع وتخطيط حياة اقتصادية شاملة . وعلى شرط ان يكون ذلك التخطيط كفوءا لحماية الضعفاء من الاقوياء والفقراء من الاغنياء ، والاقتصاد الفرنسي نفسه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مـن ان ينقلب الى اقتصاد فوضوي فاسد .

ولكن « الديالكتيك » نفسه الذي نقل فرنسا من دولة ذات اقتصاد اقطاعي الى اخرى ذات مجتمع يعيش في ظل اقتصاد راسمالي ، هو الذي نقلها هذه المرة من الراسمالية الى الاشتراكية ، وان كان الان قد بدا بصورة مكثفة أشد من تكثيفه من قبل .

واستنكار التروستات ، والانحاء باللوم على تركيز القوة الانتاجية في ايدي عدد ضئيل من الافراد اغنية قديمة طالما رددها اليسار ، فهو يعتبر نفسه سوطا يلهب ظهور الطفاة ،كما يعتبر ان صاحب الشركة الكبيرة ليس اقل سوءا من سلفه الاقطاعي الذميم . ولكن كيف يمكن حل المشكلة؟

لقد رات احزاب اليسار ان العلاج ليس في استحواذ الدولة على التروستات والصناعة بكاملها ، بل ان تستأثر الدولة لنفسها بالمؤسسات الضخمة فقط .

وللنظام الصناعي الحاضر جهاز خاص ، وهو ما يسمونه « بالمكتب التكنولوجي » ويقف على راس هذا النظام فئة المنظمين اكثر من فئة الخبراء او المهندسين .

وهكذا فان العمال العاديين يظلون مبعدين عن هذه المراكز حتى بعد تغيير ملكية المؤسسات الضخمة .

وليس أعضاء مجلس ادارة مؤسسة رينولدز في فرنسا اقل كفاءة او رغبة من سابقيهم في الضغط على الجهاز الحكومي للقيام بما يحافظ على مصالحهم هم .

وصحيح ان التأميم يبعد النفوذ السياسي الذي كان يمارسه اصحاب تلك المؤسسات قبل تأميمها ، الا ان مسؤولية « هؤلاء » تزداد تبعالنقص اهتمام اصحاب المؤسسات السابقين .

فمن هم « هؤلاء » ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

انهم الموظفون الحكوميون الذين يعهد اليهم بالاشراف على ادارة تلك المؤسسات بعد تأميمها .

وحين تكون الحكومة « ديمقراطية » ينجم عن مثل ذلك الوضع ان تصبح فضفاضة المسؤوليات ـ اي ان نطاق مسؤوليتها واسع للغاية ـ ولكنها بطيئة في اجراءاتها ، اي غير حاسمة في معالجة اية ازمة قد تعترض طريقها .

والان ، أليست هذه هي الفرصة الذهبية التي ينتظرها اليسار ؟ وحتى لو استولى الحزب « الجماعي » على مقاليد السلطة ، أفلا يجد نفسه مضطرا للاخذ بأسلوب اخر يوقعه في نفس المشكلة ؟

وبتعبير اخر . ان التأميم على النسق الذي تم تطبيقه في فرنسا ، او انكلترا ، او حتى في روسيا نفسها ، لا يستطيع ان يحمي العامل ضد رؤسائه ، ولا المستهلك ضد التروستات . وكل ما يفعله هو ان يزيل حملة الاسهم من الدرب ، ويمنع مجالس الادارة من مزاولة اعمالها ، ويقصي رجال البنوك عن احتكار الاسهم .

ولا حاجة الى القول بأن هذا لا ينفع الشعب . كما انه لا حاجة بنا الى شرح ان التأميم يزيد من شرور الاحتكار ومساوئه ، اما ما نود الاشارة اليه فعلا فهو الحقيقة التالية :

ان التأميم يعيد توزيع السلطة فقط ، ودون ان يرفع الفقر عن الفقراء ، او يخفض الاغنياء الى مستواهم .

ان كل ما يفعله هو ان ينقل الاشراف من جماعة كانت تعمل لمصلحتها الخاصة ، وهذه مرتبطة بمصلحة المجموع ، الى جماعة جديدة تعمل لمصلحتها الخاصة ايضا ، كما انها نظريا مرتبطة بمصلحة المجموع أيضا .

وخشية الالتباس في ما سبق اراني في حاجة الى اعادة شرحه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وتبيانه فاقول : كـان اعضاء مجالس ادارات الشركات الكبار واصحابهـا يديرون اعمال تلـك الشركات طمعـا في زيادة ارباحهم ، تلـك الارباح التي ترتبط بزيادة قدرة المستهلكين على الدفع .

اما الموظفون الحكوميون الذين احتلوا مراكزهم بعد التأميم فانهـم يديرون اعمال تلـك المؤسسات المؤممة حبا في تقاضي رواتبهم اولا واخيرا ... مع انهم من وجهـة نظرية فقط يودون رفع قدرة المستهلكين علـى الاستهـلاك .

وهنالك سوءة اخرى في الاخذ بنظام التأميم عند اليسار .

فبينمـا تسيطر فئة اعضاء مجالس الادارات على قطاع واحد مـن النظام الصناعي في ظل النظام الرأسمالي ، نرى « الجماعية » تسيطر على جميـع القطاعات عند « اليسار » .

وهنالك الكثير من المواطنين الذيـن لا يتأثرون ببيروقراطيـة ذلـك القطاع ، ويبقـون مستقليـن في مشروعاتهم الصغيرة في الحالة الاولـى بينمـا يفقدون كل شيء ، وتتدخل الدولة في كل صغيرة وكبيرة لهم فـي الحالـة الثـانيـة .

خذ بقّال الاسرة ، وافراد الاسر التي توارثت اموالهـا منذ اجيـال، والفلاح الذي يملـك قطعة ارض صغيرة ، وصاحب المتجر العادي .. كل فئـات لا تتأثر بسيطرة الحكومة على قطاع معين في الصناعة ، ولكنها تتأثر كل التأثـر حيـن تسيطر الدولة على كل شيء .

ومن الطبيعي ان هذه الفئات تود الاستقلال في حياتها ، ولا تقبـل التنازل عن حقها في ان تعيش على الطريقة التي تشاء ، فهل يتوفر لها ذلك اذا ساد النظام « الجماعي » كمـا ترى ؟ وهل يستطيع « اليسار » انيعالج تلـك المشكلـة اصـلا دون اللجوء الى النظام « الجماعي » ؟

وهكذا تبيـن الطبيعـة الحقيقية للطريقة التي يعالج بهـا « اليسار »

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ازمـات الدولة . وملخص هذه الطبيعة انه : كلمـا صغرت مساحةالقطاع الذي تشرف عليه الدولة توفرت مساحة اكبـر للتنافس الحر بين مختلف الفئات المتقاربة . هـذا ما دامت الدولة تسير حسب نظـام برلمانـــي ديمقراطـي .

اما في « النظام الجماعي » فالعكس هو الصحيح . ذلك لانـه ليس هنالك تنافس حر حتى تزيـد مساحته او تنقص . فاصحاب ذلك النظـام يـرون ان الدولة بكاملهـا قطاع واحد متشعب الفروع . ولكن ، منيضمن ان لا ينظـر المشرفون على تطبيق ذلـك النظام الى من تحتهم من الناس نظرة مختلفة حين يتم لهم ذلك ؟ ومن يضمن ان هؤلاء « الكبار » سيظلون يهتمون بموافقـة الجماهير او عدم موافقتهم ؟

في مثل هذا الوضع تظهر حقيقة الحاجة الى علاقات اجتماعيـة انسانية من جديد . وتكون مهمتها آنئذ ان تحاول حمايةالافراد من ذلـك الوحش المفترس ، واعني به « كبار المسؤولين الجماعيين » الذين يتربصون به . هذا من جهة . اما مـن الجهة الاخرى ، في حالـة بقاء النظـام الديمقراطي ، فـان تلـك العلاقات الانسانية تحميه مـن غول الحضارة الصناعية نفسها ، تلـك الحضارة التي تحاول ان تجرده من انسانيتـه لتجعله فرديـا مقيتـا .

ولما كـان هذا الغول يظل يتزايد ، ولما كـان « اليسار » يظل يتربص، فانه يكـون على « الليبرالية » ان تتآلف مع « المحافظة » لابعاد الاخطـار المحتملـة الكثيـرة .

ونستخلص من كل ما سبق انه : اذا انفصمت عرى العـلاقات الانسانية التي تربط بين الناس في مجتمع ما ، فـان ذلك المجتمع يكون مسرعا في سيـره على طريق « الجماعية » .

وهنا يبرز معنـا شيء جديد . فهـا قد وصلنا الى ان روح التفاؤل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

في تحرير البشرية ـ تلك الروح التي هي تفسير التاريخ في الوقت الحاضر ، والتي تفرض ان التاريخ هادف لا اعمى ، قد حلت محلها روح تشاؤمية صرفة . **لقد جاءت روح التفاؤل محاولة ابادة اخطاء الماضي ، ولكننا نراها الان تنقلب الى استعباد لروح الانسان وجسده وتحطيم حريته تحطيما جذريا .**

وواقع روسيا يشهد بما اذهب اليه . ولست اول من يرى هذا الرأي ، فقد اتضح ذلك لكثير من ذوي الافكار المنطلقة المتحررة حتى اثناء القرن التاسع عشر نفسه . فكانوا يرون ان خرافة اليسار على انه صنو للتقدم ليست اكثر منوهم خادع نجم عن نظرية فجة لتفسير التاريخ .

وكانت تلك النظرية تقوم على ان التاريخ ما هو الا عبارة عنسلسلة مركومة فوق بعضها من المكاسب التي يكدسها الانسان عن وعي.

اما الان فقد ثبت بطلان هذه النظرية ، وانقشعت الغشاوة عن عيون الكثيرين .

وكان الفضل في ذلك الى الاشتراكية .. فشكرا لها .. لقد قامت على اساس وهم تاريخي ، ثم لم تلبث هي نفسها ان اثبتت بطلانه .

والحق ان التاريخ ديالكتيكي ، ولكن ليس بالمعنى الذي يراه اصحاب النظرية الشيوعيون . فلا حاجة لان يكون هنالك تناقض اكيد بين نظام حاضر والنظام الذي سيتلوه في المستقبل . وحتى لو كانت هنالك بعض المظاهر المتناقضة ، فان ذلك لا يعني ان هذا التناقض يحتم التزايد حتى يتعذر ازاحة « القديم » الا عن طريق ثورة عارمة تحرق الاخضرواليابس.

ان في كل نظام مناقضات له . وهو يعالج امرها ، ويحاول التآلف معها . وبمرور الايام يتغير مفهوم النظام نفسه حسب الحلول التي تمكن من ايجادها لتلك المناقضات .

ولنفرض اننا نود الحصول على « تساو في المداخيل » بين فئات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الناس . ففي النظام الراسمالي هنالك وسيلة فرض الضرائب ، ومن شأن هذه الوسيلة ان تضيق من اتساع الفجوة الواقعة بين مداخيل الاغنياء ومداخيل الفقراء . وهي ليست وسيلة غير فعالة ، اذا اخذنا بحسباننا ان « حمل الضرائب » يقععلى عاتق الاغنياء كما هو على عاتق الفقراء ، وان مستوى الحياة العام في بلد متطور يكون مرتفعا نسبيا . ولكن « سياسة فرض الضرائب » هذه ، بفعل اختلاف ظروف بلد واحد عن الاخر، تغدو غير مستحبة لا تشجع على الادخار ، عندما يجري اللجوء اليها بشكل ملحاح .

ومن شأن هذا ان يضطرنا الى القبول بشيء من (عدم المساواة) دون النظر الى توفير حرية التنافس . فضرائب التركات مثلا ، لا تحذف اثر الثروات الضخمة كلية ، مع انه صحيح انها توزع تلك الثروات . ومثل ذلك كثير .

وحين يجد اليساري نفسه مغلوبا على امره ، تراه يختصر الطريق بان يهرب من مشاكل الواقع فيلجأ الى الراي القائل بضرورة تطبيق اقتصاد مبرمج ، وخطة مدروسة مسبقا .

ولكن ، وحتى في « الاقتصاد » الذي يلجأ اليه ذلك اليساري ، يبرز شكل جديد من « عدم المساواة » . وبهذا يكون قد هرب طالبا النجاة فتأكد من انه لا نجاة حقا . وتفصيل ذلك :

صحيح ان الذين يرسمون السياسة الاقتصادية لبلد ما ، يستطيعون ان يذيبوا الفوارق الاقتصادية في ذلك البلد بين مختلف فئاته . هذا اذا كان هدفهم ان يفعلوا ذلك من الوجهة النظرية المجردة ، وعلى لوائح الورق . ومن الطبيعي ان يذيبوا تلك الفروق الى حد ما ، ولكن اي حد ؟ انه الحد الذي يحفظ انسجام مصالحهم هم الخاصة مع ما يظنونه مصلحة المجموع . فالام يعمدون مثلا ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ستراهم يعمدون الى رفع الاجور ، وذلك على امل تشجيع المجهودات الفردية . هذا ما يظل « اليسار » يدعو له ويستغله من اجل الدعاية لمبادئه ما دام في مقاعد المعارضة من حكومة بلد ما .

ولنفرض ان ذلك اليسار توصل الى الحكم ، فماذا يفعل ؟

انه يواجه المشكلة .. وهو يقع بين حجري الرحى حين يرى ان ضرورة تشجيع كمية الانتاج العامة في ذلك البلد تتعارض مع ما سبق له ان استغله في دعايته . وحينئذ يغدو مجبرا على محاولة التوفيق بين الطرفين : الحاجة الى المساواة ، وضرورة وجود شيء من عدم المساواة.

وهو (اليسار) لا يرضى بما كان يرضى به (اليمين) الذي سبقه في الحكم ، بل تراه ((يشتط)) في امره ، فيحاول الحصول لمصلحته هو على اكثر مما كان يقنع به سابقوه .

وهكذا يمكننا الجزم بانه ، ليس في التاريخ نظام يستطيع ان يتقبل جرعة اكثر من ((المساواة)) الاقتصادية من تلك الجرعة التي تسمح بها طبيعته . فاذا ازيل شكل من اشكال ((عدم المساواة)) الاقتصادية بفعل القضاء على النظام السياسي الذي كان يرعاه ، برز لنا شكل اخر جديد من عدم المساواة هذه ، ويكون ذلك متوفرا في النظام السياسي الذي جيء به ليرافقه . والحق ان محاولة جعل المداخيل متساوية محاولة نبيلة ولكنها تخضع الى :

١ ــ سلامة بناء الهيكل الاجتماعي في مجتمع ما .

٢ ــ مدى تقلص الانانية الفردية بين افراد ذلك المجتمع .

٣ ــ الضغط الادبي الاجماعي الذي لا يقل اثره عن اثر الاحتجاجات الصارخة .

ومجمل القول : ان مكافاة المجتهد على حسن عمله ليست عدلا فحسب بل انها ضرورة ايضا ، اذا اريد للانتاج ان يظل في تقدم مستمر .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

والمساواة المطلقة في بلد كانكلترا مثلا تعني ان الاقلية التي ترعى غنى البلد الثقافي والحياة العلمية فيه يجب ان تجرد من قوتها الابداعية وقدرتها على الخلق .

ان التشريع الاجتماعي الذي يحبذه « اليسار » وتسنده اراء مختلف فئات الشعب يجب ان يكون خاضعا لمبدأ « انقاص الفروق » ، ولا يجوز توسيعه بحيث يشمل ازالة الفروق من اصلها ، الا اذا قصدنا العمل ضد « الفرص المتساوية لجميع افراد الشعب » .

فمثلا ، ان الضرائب المعمول بها في فرنسا مثل « غلاء المعيشة للعائلة حسب الاجور » تخدم اصحاب العائلات الكبيرة والرجال المتقدمين في السن، على حساب الشباب وغير المتزوجين . وهؤلاء الاخيرون هم الاكثر انتاجا في الواقع . فهل يتوجب على « اليسار » ان يهتم بتخفيف مصاعب الحياة في شعب ما اكثر من اهتمامه وتشجيعه بالتقدم الاقتصادي العام لذلك الشعب ؟

اذا تم ذلك ، غدا من العسير القول بان الشيوعيين مشمولون بكلمة « يسار » . غير انه في وقت تسيطر فيه قضية زيادة الانتاج ورفع وتائره ليرتفع مستوى الحياة العام ، على عقول الناس ، يكون على « اليسار ـ غير الشيوعي » ان يهتم بالامر مثله مثل الرأسماليين انفسهم . وعلى المدى الطويل تكون تلك الزيادة في الانتاج ملازمة لتحسن حالة الفرد الواحد بدرجة لا تنقص عن ملازمتها لتحسن حالة الشعب بمجموعه .

وهنا ايضا تصطدم الاهداف المثالية (النظرية) مع الجماهير ، كما يبدو التناقض واضحا ما بين الشعارين المعروفين ، شعار « لكل حسب حاجته » ، وشعار « من كل حسب عمله » .

وفي انكلترا نجد ان الضرائب الثانوية ، والمساعدات التي تقدمها الدولة لتوفير الطعام ، قد خلقت نوعا من الاتزان في نفقات العائلة الواحدة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

كما عملت الى حد معقول على اعادة توزيع التكاليف ضمن نطاق العائلة الواحدة . وتذكر مجلة « الايكونومست » في عددها الصادر في نيسان (ابريل) ١٩٥٠ — كما اذكر — ان العائلة الانكليزية التي يبلغ مدخولها ٥٠٠ جنيه استرليني في العام الواحد ، كانت تتقاضى من الدولة مبلغ ٥٧ شلنا كل اسبوع ، ولكنها تدفع على شكل ضرائب للخدمات العامة مبلغ ٦٧،٨ شلنا اسبوعيا ايضا . وعلى التحقيق ، كان افراد تلك العائلة يدفعون ٣١،٥ شلنا كضرائب على المشروبات والتبغ .

فاذا تم تطبيق سياسة « حكومة المصلحة العامة »الى هذه الحدود، فمن المعقول ان نخرج بسياسة تناقض الهدف الذي وضعت من اجله .

ان انقاص مساعدة الحكومة ، وانقاص الضرائب التي تتقاضاها تلك الحكومة تختلف الان بالفعل اختلافا واضحا عن المعنى الذي كان يمكن تفسيرها به قبل نصف قرن من الزمن .

والحق ، ان سياسة « الطريق الواحدة » ،وهم خادع في السياسة سببه ذلك الهوس الايديولوجي الذي هو سبب النكبة المنتظرة .

وسياسة « الطريق الواحدة » هذه هي السياسة التي قيد«اليسار» عقله اليها ، فهو يدعي ان هنالك نظاما وتكنيكا اقتصاديا خاصا ذا مفعول سحري وترياق يشفي من كل داء . والحق ان هذه دعوى لا تستند الى الواقع . فالثبات صفة ترتبط بالافكار فقط ، لا بالنظم الاقتصادية على الاطلاق . ولهذا فان « الملكية الجماعية » و« العمل المتوفر للجميع »، مبدءان يحكم في صلاحيتهما او عدمهما واقع الحال ، وقدرتهما على حل المشاكل او عدم قدرتهما على ذلك ، ولا يجوز ان يحكم في امر خطير مثل هذا ، مجرد صلاحيتهما النظرية الصرفة .

واليسار ينطلق من نقطة واحدة : انه يفلسف كل اجراءاته وتفسيراته من الجزم بان المستقبل محتوم ان يكون افضل من الماضي . ولكن ما هو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

البرهان الدامغ على ذلك ؟ هل كان « اليسار » معارضا دائما في السابق، وكان اليمين في الحكم ، حتى يمكن رد جميع الاخطاء السابقة الى ذلك اليمين ؟ كلا على الاطلاق .

ولننظر على استعجال الى العصور السابقة . ويمكننا القول بمجرد هذا النظر ـ سواء كان العصر خاضعا لسيطرة ، الارستقراطيين ، او البرجوازيين ، او الاشتراكيين ـ ان حرية الفكر ، والزمالة الانسانية ظلتا غير طليقتين ، ولم يكن لاي منهما اي ضمان كامل .

ان اليسار الصحيح هو ذلك اليسار الذي يظل يستثير الاخوة الحقيقية بين البشر ، اي الحب فيما بينهم .ذلك هو اليسار الصحيح ، وايـن اليسار الذي نعرفه من هذا الهدف النبيل ؟!

الفكرة والواقع

لقد حاولنا ، بغية التحليل لا اكثر ، ان نفصل بين اليسار واليمين في صفحاتنا السابقة ، والواقع ان التناقض بين اليمين واليسار في جميع دول غرب اوروبا يبرز على درجات متفاوتة . فاليسار في اقطار اوروبا يظل يحتفظ ببعض المظاهر العامة التي تلخصها جميعا كلمة « النضال ضد عودة النظام القديم » . كما انه (اليسار) معروف عنه ميله الى السعي الى الحصول على بعض العدالة الاجتماعية ، وكذلك توفير العمل ، وتأميم وسائل الانتاج ،وفي كل مكان يجده يميل الى المصالحة مع عنف الجماعية الستالينية التي تدعي بأنها من اليسار ايضا ، والتي لا يمكن لليسار ان ينكر علاقته بها .

وفي كل مكان نجد بطء الاجراءات البرلمانية ، وقلة اصطبار الجماهير الشعبية ، تخلق لليسار ازمة قاتلة . ذلك انها تجعله يضطر الى القبول بالانفصام بين نظرياته وواقع ما يطبقه ، اي انها تجبره على خلق تناقض بين قيمه الاجتماعية والقيم النظرية التي يعتنقها .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهنالك اختلاف في مدى كشف ذلك الانفصام ، فهو ظاهر في بلد ما ، وخفي يكاد يتستر في بلد اخر . وها هي بريطانيا مثلا ، قد استطاعت ان تسخر من هذا اليسار حتى ان رجلا مثل وليم جويس وجد نفسه في ازمة من امره . لقد كان له ان يختار بين احد شيئين : اما ان يعيد النظر في مفاهيمه فيتبين الصواب ، او يصر على تلك المفاهيم فيسم نفسه بخيانة بلده .

ومن المؤسف انه اختار النقيض الاخير . وذلك على النقيض من رؤساء النقابات ومجالس اتحادات العمال . فقد ادرك هؤلاء ان بوسعهم ان يساعدوا في تحسين احوال العمال ورفع مستوى حياتهم دون الحاجة الى التخلي عن تقاليد وطنهم ، بل ضمن حدود النطاق الدستوري الشرعي للبلاد نفسها .

اما الشيوعيون البريطانيون ، فقد استطاعوا النفاذ الى بعض اتحادات العمال عن طريق انشاء خلايا لهم هناك ، وكذلك تمكنوا من ان يجدوا لهم بعض المناصرين الذين يبدون العطف عليهم بين الطبقةالمثقفة من الشباب البريطانيين . ولكن لا هؤلاء ولا هؤلاء بوسعهم ان يبعثوا مرشحا واحدا للانتخابات النيابية الى مجلس العموم . وهم اعجز من شيء من هذا القبيل من حيث اثرهم في الصحافة او سياسة البلاد .

وصحيح ان هنالك مجلات اسبوعية ناشطة في البلاد ، وصحيح انها تخضع في توجيه سياستها الى الجناح اليساري ، ولكن هذه المجلات لا تحلم بالدعوة الى « جبهة وطنية شعبية » في بريطانيا ، مع انها تدعو الى ذلك في اقطار القارة الاوروبية والبلدان الاسيوية على العموم .

ولما كانت بريطانيا خالية من وجود حزب فاشستي ، خلوها من وجود حزب شيوعي ، فقد ظلت القضايا فيها هادئة النقاش . لقد اصبحت تلاقي نظرة معتدلة على الصعيد الاجتماعي ، كما هي في قبة البرلمان.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اما ما هي هذه القضايا ، فهي التناقض بين الحاجة الى المساواة، وبين المحافظة على الفوارق التي يضمنها الحق السابق الموروث ، اي بين الميل الى الجماعية ، وضرورة سد الحاجات التي يتطلبها نظام « السوق الحر » .

فحزب المحافظين يود ان يكبح جماح الميل الى اعادة توزيع الثروة، اما حزب العمال ، وخصوصا بعد تبنيه النظرة الفابية الجديدة ، فانه يريد السير فيه .

وقد اعاد حزب المحافظين نظام الاشراف الحكومي الذي كان حزب العمال قد عمل به منذ ما بعد الحرب ، ولربما اعاده حزب العمال حين يفوز في الانتخابات القادمة من جديد .

ولا شك ان الموقف سيكون اكثر وضوحا لو كان هنالك ثلاثة احزاب بدلا من اثنين . ولربما كان موقف حزب « الاحرار » موضع شك وتساؤل . وذلك لانه ، طالما ان اكثر المنتسبين الى هذا الحزب هم من الاصلاحيين ، او ما يمكن ان نطلق عليهم لقب « اليسار المعتدل » لو كانوا في فرنسا ، فانهم لا يجدون في انفسهم الميل الى التصويت الى جانب حزب العمال ما دام محافظا على ميوله الاشتراكية الحاضرة .

ولهذا فاننا نجد ان « روح اليسار المعتدل » غير ممثلة تقريبا في بريطانيا .

ويعود التخلص من وجود « حزب الاحرار » كقوة سياسية في بريطانيا الى اسباب تاريخية واخرى من طبيعة النظام البريطاني . اما اهم العوامل التاريخية فهي ازمة لويد جورج ، واما الاخرى فهي ميل البريطانيين الى عدم القبول بحزب ثالث ، خصوصا وان احترام الفردية وحرية الفرد لم يعد مقتصرا على حزب الاحرار هذا .

وهكذا اصبح عند البريطانيين حزب واحد يقوم على اساس اميل الى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المحافظة الدينية وهو حزب المحافظين ، واخـر يميل الى الاخذ بالمسيحية بعد صبغهـا بالوقعيـة الدنيوية وتطعيمهـا بالميول الاشتراكية ، وهـو حـــزب العمـــال .

وهكذا ايضا انتصر اليسار البريطاني فأصبح هو الملاذ لجميع الذيـن يطمحون الى عدالـة اجتمـاعيـة .

وقد كان فوز حزب العمال في انتخابات مجلس العموم البريطانـــي سنة ١٩٤٥ شيئا اذهل كل الناس حتى المشرفين على ادارة حملة الانتخاب من اعضاء حزب العمال نفسه . وكنتيجة لذلك الفوز افسحت الطريق امام ذلك الحزب كي يسيطر على التشريع كما يشاء . وقد ظل ذلك طوال خمس سنوات استغلهـا « العمال » خير استغلال .

فبريطانيا سنة ١٩٥٠ تختلف تمام الاختلاف عن بريطانيا قبل نصف قرن من الزمـان اختلافا يظهر فيها اكثر مما يظهر في اي بلد اوروبي اخر . وعدم المساواة بين المداخيل الذي كـان في بريطانيا واسعا اكثر من اي بلد اخر في القارة الاوروبية سنة ١٨٥٠ قد صار اضيق منه في اي بلد اوروبي اخـر سنـة ١٩٥٠ .

وقد اصبحت بريطانيا ، الموطن الاصيل للمشاريع الحرة ، هي اكثر بلد نجـد التشريع الاجتماعي فيه نافذ المفعول . وقد تم تأمين قطاع من الصناعة الثقيلة . كمـا تم تحسين احوال الطبقة العاملة من البروليتاريـا تحسينا ملحوظا ، مع ان طبيعة المجتمع لم يتغير تكوينها من اساسه بشكل جذري .

هذا وقد كانت سياسة حزب العمال ، لا تختلف في مناهجها عن سياسة حزب المحافظين ، وكان نجاحها في الهند ، والصعوبات التي واجهتها فـي الشرق الادنى ليست من اخطاء حزب العمال .

وعلى هذه الصورة كانت الاشتراكية التي عناها « اليسار » البريطاني المتمثل في حزب العمال، غير الاشتراكية التي يتحدثون عنها في اقطار اخرى .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهنالك تساؤل كثير حول مـا جعل البريطانيين يحصلون على جميع ما كانت تهدف اليه الثورات التي قامت في القارة الاوروبية دون ان يريقوا نقطة واحدة من الدماء ، او يتخلوا عن اي من تقاليدهم الدستورية الحميدة. وبالنسبة الى حزب العمال فان استمرار ذلك الاتجاه العاقل يبدو مشكوكا فيـــه .

فهـــذه « المقالات حول الفابية » التي تم نشرهـا تبـــدي رغبـة ظاهرة في تغيير تأكيدها على ضرورة الاخذ بمناهج السياسة الاشتراكيـة ، وتحويله الى ضرورة تقبل مبدأ « حذف الثروة » بدلا من النضال ضد الفقر. وكذلك الى تجميد الثروات التي تسمح لبعض الناس ان يتمتعوا بخيراتها في رخاء ، وتوسيع الملكيـة العامة بغيـة ازالـة الفجوة الموجودة بيـن الاجور المرتفعـة التي يتقاضاها بعض الناس ، والاخرى المنخفضـة التـي تدفع لغيرهـم .

ومادام القطاع الاهم من الاقتصاد في ايدي الافراد ، فان تقريـــر مستوى الاجور المرتفعة سيظل خاضعا لهم . واذا ما عمدت الدولة الـى التأميم ، فانها ستجد نفسها مضطرة ان تدفع لمدراء المؤسسات الخاصة .

ولهذا فانه لا يمكن تحوير المجتمع البريطاني الارستقراطي بطبيعته الا اذا كان الاشتراكيون البريطانيون قد توصلوا الى تحقيـــق معظم النقاط الواردة في برنامجهم ، فها نحن نراهم اليوم حيارى لا يدرون ما يفعلون ،هل يعمدون الى توطيد وترسيخ ما حققوه من برنامجهم ، او انهم يمضون قدمـا في نيل نقاط جديدة اخرى !؟ فالمعتدلون منهم يميلون الى القـول بضرورة الترسيخ في الوقت الحاضر ، ولذا نراهم اكثر انعطافا نحو قبول المصالحة مع الطبقة المثقفة من المحافظين ، اولئك الذين تشغلهم قضايا الاقتصـــاد الكبيرة في المستقبل . واهم هذه القضايا هي :

كيف يستطيعون تجنب اثارة حق توفير العمـــل للجميع مـا دامت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اتحادات العمال تستطيع ان تتفاوض مباشرة مع اصحاب المؤسسات .

وكيف يمكن تشجيع الاقتصاد وفي نفس الوقت تتم المحافظة على الروح الخلاقة والابداع الفردي .

وكيف يمكن تحديد الضرائب .

ومن اين يمكن توفير رأس المال الضروري لاستغلاله في مشروعات غير مضمونة الربح في المستقبل .

وملخص القول :

كيف يمكن تطعيم مجتمع حر بجرعة معينة من المبادىء الاشتراكية بشرط ان يتمثلها ذلك المجتمع ، وبشرط ان لا يتأثر تطور المجتمع ككل.

ان الجدل لا يزال مفتوحا بين اليمين واليسار في بريطانيا ، بين اولئك الذين يشعرون بالخيبة حين ينظرون الى عدم الحكمة في اجراءات حزب العمال، وبين اولئك الذين يودون توسيع أثر تلك الاجراءات وتعميم تطبيقها، بين اولئك الذين يقبلون بمقدار اقل من عدم المساواة بين المواطنين من حيث الاقتصاد ، وبين الاخرين الذين يهمهم ان يدفعوا الشعب الى مزيد من الانتاج العام .

وملخص الواقع البريطاني هو : ان الطبقة الارستقراطية قد ضحت بشيء من ثروتها ومركزها ولكنها ظلت محافظة على طريق الحياة الارستقراطية التي اعتادتها . وافراد هذه الطبقة يشعرون بأن « بريطانيا المقبلة » اي « بريطانيا المتطورة نحو اشتراكية حزب العمال » هي التي ستنتصر يوما ما ، ولذلك تراهم يميلون الى عدم معارضتها بعنف .

وها هو ونستون تشرشل في احدى حملاته الانتخابية يقول :

« ان الاقتصاد الموجه » اي الاقتصاد الذي تشرف عليه الدولة « نظام ملازم للفستابو » . ولكنه لم يهتم بهذا القول احد . لقد سخر منه البريطانيون .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومعنى ذلك القول ان « الحكومة البريطانية اذا اخذت بنظام الاقتصاد الموجه ، اي سيطرة الدولة على مرافق الحياة ، فانها (بريطانيا) ستجد نفسها مضطرة لان تحكم المواطنين عن طريق نظام دكتاتوري يحتاج الى غستابو » .

ولسنا ندري اذا كان البريطانيون الذين لم يهتموا باقوال تشرشل سيجدون انفسهم خاضعين لمثل هذا النظام حقا بعد عقود قليلة من السنين.

ولكن ، من طبيعة الشعب الانجليزي انه واقعي ، فلربما تبدل الحال قبل الوصول الى تلك الدرجة . لسنا ندري .

ولا يصدق مثل هذا القول في فرنسا، فالفوضى الايديولوجية في فرنسا الحاضرة ما هي الا نتيجة للاخطاء الجسيمة في تفسيرات التناقض بين اليمين واليسار . وهذا التناقض بنفسه يرجع الى الحقائق . ذلك ان عناصر المجتمع الـ (ما قبل ـ صناعي) قد بقيت آثارها في فرنسا اكثر من بقائها في بريطانيا او اي من الاقطار الاسكندنافية . ولهذا فان الصراع بين «النظام القديم » وبين « الثورة » لا يزال قائما تماما كالصراع بين الليبرالية والاشتراكية . وادهى من ذلك ان حسنات « المدنية التكنولوجية » قد أخذ العالم يهجرها مع ان الفرنسيين لم تتوفر لهم الفرصة للتمتع بها بعد .

ان الدوائر الفرنسية لا زالت مشغولة بالصراع بين الروح المحافظة المبنية على اساس الدين ، وبين الروح العقلانية التي يقول بها « حزب التقدم» من ايام الثورة .

فاليمين كاثوليكي ترتبط مصالحه مع مصالح الطبقات ذات الامتياز ، بينما اليسار في اغلبه يتمثل بالسياسيين المحترفين من ابناء الطبقة الوسطى ـ الدنيا . وها هم الاشتراكيون يتبنون بعض مناهج الشيوعيين في اواسط فرنسا وجنوبها .

اما في المناطق الصناعية في البلاد فلا يزال هنالك شيء من انتظام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

التركيب الحقيقي للمجتمع ، ولا يزال المواطنون يميلون الى اعطاء اصواتهم للبرجوازية المحلية . وذلك بخلاف الواقع في مراكز الصناعات المتجمعةفي المدن الكبيرة ، كباريس مثلا ، فقد استطاع الشيوعيون النفاذ الى احراز انصار لهم كثيرين . وذلك لانهم استمالوا بعض الاشتراكيين ، كما استمالوا الكثيرين من افراد الحركة الكاثوليكية الجمهورية الشعبية .

وخير ما يبين ذلك هو الرجوع الى الاحزاب الفرنسية نفسها . فاذا امعنا النظر في ارقام فرز اصوات الاقتراع ، فاننا نجد ان الفرنسيين قد عجزوا عن التخلص من ورطة تخاشاها امثالهم من الاشتراكيين فيبريطانيا وبلجيكا وباقي اقطار اوروبا .

ان اكثر الاشتراكيين الفرنسيين من مذهب حزب العمال البريطاني، وحتى الشيوعيين الفرنسيين يقبلون تفسير بيفان للاشتراكية ، فلماذا اذن يصوّتون بخلاف ذلك ؟

ان وجود ثلاث مجتمعات متداخلة في فرنسا هو السبب ، فهنالك اقاليم غربية النظرة تماما ، وهنالك اخرى متخلفة ، وثالثة هي المدن الصناعية ، ولكل من هذه الفئات الفرنسية الثلاث مجتمع خاص بها ،ومع هذا يراد ربطها جميعا في بوتقة واحدة .

والشيوعية ترى نفسها في فرنسا ـ اكثر من اي من الاقطار البروتستنتية في اوروبا ـ كوارث شرعي وحيد للثورة البرجوازية (العقلانية) . ولهذا فاننا نجدها تعمل على خلق التحريض بين الفلاحين ومالكي الاراضي في الاقاليم الزراعية ، شأنها عندنا شأنها في باقي الاقطار الاسيوية . هذا في مجال الزراعة ، اما في ميدان النشاط الصناعي ، فاننا نراها تعمد الى كسب عطف البروليتاريا على نطاق واسع . وقد افلحتفي ذلك الى حد ما . ويعود نجاحها على التحقيق الى عاملين .

اولهما : فشل اتحادات العمل الاصلاحية في القيام بواجبها .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وثانيهما : اخفاق الحزب الاشتراكي اخفاقا كليا .

والعمل السياسي في فرنسا يميل بوضوح الى الابتعاد عن الواقعية . فخطة الضمان الاجتماعي التي ادخلت الى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية سابقة كثيرا للجهاز التجاري الموجود في البلاد ، كما انها متخلفة عن التطورالصناعي في البلاد ايضا.ليس هذا فحسب ، بل ان فرنسا مصابة بداء « دفع التطور الاقتصادي على اساس التقليد » فنحن نستورد ماكينات صناعية تم تصميمها لظروف اخرى . وبذلك يحدث معنا تناقض حتمي بين تقديرات الخبراء في انتاج هذه الماكينات وبين انتاجها بالفعل نتيجة لظروفها المختلفة .

اما نظام الضرائب عندنا فهو غير سليم على الاطلاق . انه صحيح فيما يتعلق بالفئة الواحدة التي تحتفظ بسجلات وقيود رسمية ، اما في مجتمع نصفه مشاريع زراعية فردية ، فأي نظام ضرائب يمكن ان يضبطه او يسيطر عليه !!

وانها لتسلية يعمد اليها الكثيرون حين يشتمون الرأسماليين الفرنسيين فأين هم هؤلاء الرأسماليون ؟

وهل هم ذلك النفر اليسير من اصحاب المصانع الكبيرة مثل ستروين، وميشلين ، وبوساك ؟

او انهم المؤسسات العائلية في ليون والشمال ؟

او تراهم طبقة موظفي الادارة الكبار سواء في المؤسسات العامة او المشروعات الحرة ؟

هل هم البنوك التجارية الكبرى يا ترى ؟

او انهم مديرو المحلات التجارية المتوسطة ، ومعظمهم من العصاميين الاذكياء في ادارة اشغالهم والقدرة على الصمود في وجه جميع الازمات التي اعترضت طريقهم ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ماذا يعنون بكلمة الراسماليين ؟ هل يعنون بها مـا قصده ماركس ،مما ينطبق على وولستريت ، وكبريات الشركـات العاملـة فـي المستعمرات ، والمؤسسات الاستثمارية فيمـا وراء البحار ؟ اذا كـان هذا فانه لا يجـوز تطبيقه على جماعـة يمثلون اقليـة محترمة من الامة ، مثل من عددتهـم فـي السابـق .

ولالخص ما ورد في هذا الفصل فأقول .

هنالك ثلاث افكار رئيسية يزعم اليسار انه يعمل لهـا وليست هذه الافكار متناقضة بالضرورة ، ولكنهـا تميل الـى ذلـك في العادة . اما هذه الافكـار فهـي :

الحرية ضد القوة الغاشمة وطلبا للمحافظة على حقوق الفرد .

والتنظيم ، بغية احلال نظام يرتكز على العقلانية محل سابقه القائم على التقاليـد الموروثـة .

والمساواة ضد امتيازات الولادة او الثروة .

ويميل اليسار الى ان يصبح ((جماعيا)) اي دكتاتوريا لان :

الحكومات الديمقراطية تكـون بطيئة في اتخاذ الاجـراءات المعقولـة ، بفعل معارضة المصالح الخاصة بالمؤسسات الفردية .

وهو (اي اليسار) يصبح لا ((وطنيا)) لان الحكومة وحدها هي القادرة على تحقيق البرنامج الذي يطلبه .

كمـا يغدو ((استعماريا)) بما يحتمه عليه طلـب الاسـواق الاوسع ، والمجـال الاكثر حيويـة .

واليسار الليبرالي يهاجم ((الاشتراكية)) لانه لا يمكنه ان يغفـل عـن تحولهـا التدريجي نحـو استعمال القوة الغاشمة ، وتقربها المحتوم مـن البيروقراطية التي لا يوافق ((اليسار الليبرالي)) عليها .

اما ((اليسار المتطرف)) فيبدو انه يقف معارضا للاغنياء والاقوياء علـى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الدوام ، دون النظـر الى ان هؤلاء يكـونون في مناصب السلطة او هؤلاء. وهذا مـا يجعل المرء يتساءل :

هل ان « اليسار الحقيقي » هو « اليسار الى الابد » ؟

وقد أراحنا من الاجابة على هذا السؤال ما نشرته هيئة تحرير مجلـة « اسبريت » الناطقة بلسان فئة من اليساريين . فقد كتبت مقالا تحلل فيه « اليسار الاميركي » فقالت :

ان من العسير وجود مصطلح دقيق للموقف الذي يجد اليسار الاميركي فيه نفسـه . ذلك ان اميركا لم تواجه مشكلة «النضال ضد النظام القديم» . كما انه ليس فيها احزاب اشتراكية ، اذ ان الحزبين التقليديين في البـلاد قد بذلا كل جهدهما في سبيل قتل اي حزب ثالث يمكـن ان يبرز الى عالم الوجود . هذا بالاضافة الى ان الدستور الاميركي الاساســـي لا يتعرض بمناقشة جديـة للنظام الاقتصادي في البـــلاد . فالامـور هناك تسير بالمصالحات السياسية اكثر منهـا بالاتفاق الايديولوجي .

وانطلاقا من هذه الاسس يفدو بوسع المرء ان يقول احد رأيين :

اما ان الولايات المتحدة قد ظلت امة أشتراكية من اساسها ـ هذا بمعنى ان البلاد استطاعت ان ترفع مستوى حياة عمالهـــا ، وتنيلهم العدالـة الاجتماعيـة الكافيـة .

او : ان يتنهد منتظرا بروز حزب جديد للعمال كالحزب البريطاني ، يكون من شأنه تغيير وجه المجتمع الاميركي الى صورة اخرى » .

ويميل المرء الى القول :

« ان تحقيق الاشتراكية في الولايات المتحدة امر ذو اهميـة بالغـة للعالم » . ولكنهم قـد حققوهـا بشكـل ارضى نفوسهم . « ان اليساري عندنا نحن الفرنسيين هو ذلك الرجل الذي يظل يعارض الحكومة لانـه غير مطمئـن الى امكانيـة انقلابها يمينية بيـن عشية وضحاها .. وذلك الرجل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الذي لا يوافق على سياسة الحكومة فيما يتعلق بالاستعمار ، وذلك الرجل الذي يستنكر الاعمال الوحشية حتى مع اعداء الدولة ولو كانت بغية التأديب» . هذا ما قاله مسيو دومينوش حين تكلم عن الحرب الجرثومية . وهو صحيح .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الثاني

الثّورة والثّوّار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

خرافة الثورة

ان فكرة التقدم تكاد تلتصق بفكرة اليسار التي تقوم على ان الجنس البشري يسير الى الامام على الدوام . ولاسطورة الثورة اهمية خاصة بهذا الصدد ، ذلك انها تقوم على انقطاع مسير الانسان بشكل عادي نحو هذا التقدم . واسطورة الثورة هذه ، شانها شأن الاسطورة التي سبقتها ، اي اسطورة اليسار ، تنبع من النظر الى التاريخ السالف .

هذا بينما الواقع ان اولئك المفكرين الذين مهدوا لقيام الثورة الفرنسية لم يكونوا يبغون ازالة « عالم ما قبل الثورة » . لقد كانوا اكثر حكمة من ذلك بالرغم من جراتهم العظيمة في نظرياتهم التي كانت تحارب « النظام القديم » . وها هو جان ـ جاك ـ روسو يبدي حصافة رايه حينما يتحدث عن دور المستشار او المشرّع .

لقد كان اكثر هؤلاء المفكرين ذوي نظرة تفاؤلية نحو المستقبل، والحق انه اذا ابعدنا الاحقاد ، والعصبية ، ورضينا بالعقل المستنير ، فان الاشياء ستسير في سيرها الطبيعي . فلم تكد تطل سنة ١٧٩١ وسنة ١٧٩٢ حتى كان هؤلاء المفكرون بما فيهم الفلاسفة المعاصرون ينظرون الى الثورة على انها كارثة . هذا في الحين الذي كان فيه الناس العاديون قد تناسوا احساسهم بالكارثة ، واعماهم مجد الحادث وجلاله .

وانقسم هؤلاء المفكرون الى فئتين ، الاولى ترى ان حوادث الفوضى العامة والاستيلاء على الباستيل ، وحكم الارهاب ، والانتصارات التي احرزتها الثورة والاخفاقات التي منيت بها ، ترى كل هذا مجرد احداث عابرة ترافق طبيعة الثورة بينما يظل الهدف الاول من تلك الثورة هو الصامد ، الا وهو تحرير الانسان .

والثانية ترى ان الاستيلاء على السلطة هو الهدف . وهذه الفئة تؤمن بوسائل العنف ، وتعتبر القوة وحدها هي التي تستطيع رسم المستقبل على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الصورة التي يريدهـا اصحاب هـذا الرأي .

أما هدف هذه الفئة ، فكان هو هو هدف الطائفة الاولى ، اي العمـل لخلق حكومة مستقرة يديرها العقل . ولكنهم ظنوا ان الناس لن يتحققوا من قصدهم الى هذا الهدف الا عـن طريق اجبارهم على السير فيه ، وبذلـك اخطأ اصحاب هذا الرأي ، ففدت الوسيلة ، وهي الاجبار ، غاية في ذاتها.

والان : ترى هل ان الثورة تستحق هذا المجد الذي يضفونه عليها ؟

ان خالقي الثورات ، او واضعي خطوطها الفكرية ليسوا هم الذيـن ينفذون خطواتها . والواقع انهم نادرا ما يرون افكارهم تتحقق الا في المنافي او السجون او في بطن الارض . فهل يمكن اعتبار هؤلاء مثلا اعلى للانسانية التي تعرف مصيرها وتقدر نتيجة كل عمل تأتيه ؟

الثـورة والثـورات

ان كلمة الثورة ، في علم الاجتماع تعني ازالة نظام عن طريق القـوة واحلال اخر مكانه . فاذا قبلنـا هذا التحديد وجب حذف اصطلاح «الانقلاب الصناعي » او « الثورة الصناعية » . ذلك لان كلمة « انقلاب وثورة » في تلك الحال لا تعني اكثر من انجاز اجراءات جذرية صالحة .

وكذلك اذا اخذنا تعبير « ثورة العمل » في بريطانيا ، وعنينا به تلـك الاجراءات الاصلاحية التي صير اليهـا في بريطانيا ما بيـن ١٩٤٥ و١٩٥٠. فهي ليست غير دستوريـة اولا ، كمـا انهـا لـم تحدث بالقوة ثانيا . وذلك على النقيض من الثورة الفرنسية ما بيـن ١٧٨٩ ـ ١٧٩٧ ، والثورة الروسية مـا بيـن ١٩١٧ ـ ١٩٢١ .

وحتى لو ابعدنا بعض التعبيرات عن مضمون كلمة « ثورة » المتعارف عليه الان ، فانه يظل غامضا ، بحيث يدعو المؤرخ الى الحذر وشدة الحيطـة في استعمالـه .

ف « الاشتراكية الوطنية » في المانيا لم تكن لا قانونيـة ، وكذلـك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

العنف الذي رافقها ، اذ ان الدولة هي التي امرت به . فهل يستطيع المرء ان يزعم ان استيلاء « الاشتراكية الوطنية » على الحكم في بلدها ثورة لمجرد المفاجأة في تعاقب الاحداث ، وتغير رجال الحكم ونظم التشريع العام في البلاد ؟

وهل نستطيع ان نقبل بصواب اطلاق كلمة « ثورة » على ما يحدث في دول اميركا اللاتينية حين يتم استبدال ضابط باخر او برجل مدني في الحكم ، مع بقاء الاحوال العادية الاخرى تسير في مجراها الطبيعي ؟ نعم ان « استمرار الشرعية » قد انقطع ، ولكن هل هذه ثورة ؟

ان التناوب بين احتلال دست الحكم ، واحتلال مركز متواضع في احدى غرف السجن شيء يقع في اميركا اللاتينية ، ويبقى اثناء ذلك كل شيء في البلاد على ما هو عليه . . فهل هذه ثورات ؟

ولست اود من بحثي هذا ان ارصف امام القارىء حدودا معينة لما هو ثورة وما هو غير ذلك ؟ اذ انني اعتقد ان التحديدات ليست خطأ او صوابا في هذا الشأن ، وما هي أولا واخيرا الا محاولات لتلمس انطباق بعض الظاهرات العامة على هذه او تلك من الحركات .

ويبدو انني اميل الى اطلاق لقب « انقلاب » على كل استيلاء على السلطة يعقبه تغيير نظام الحكم بالقوة ، كما وقع مع نابوليون الثالث ١٨٥١ م. وكذلك على كل حفنة من الضباط يغتصبون الحكم ولا يأتون بطبقة جديدة تتولى الحكم ، مخالفة للطبقة التي انتزعوه منها .

وفي نفس الوقت ليس هتلر اقل ثورة من هؤلاء لان المستشار هندنبرغ هو الذي عينه . اذن فالظاهرة الطبيعية للثورة هي ان تحاول اقلية الاستيلاء على الحكم لتخضع لمشيئتها اكثرية كبيرة ، وتخلق دولة جديدة، ويرافق تلك العملية محاولة تشويه بناء الامة .

ولربما كان الجدل الذي يدور حول مضامين العبارات أحيانا ذا فائدة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

عظيمة في الكشف عن حقيقة تلك العبارات . واني لاذكر ان الموضوع الشيق الذي كان الجدل فيه على قدم وساق في الاوساط الفرنسية سنة ١٩٣٣ هو ما اذا كانت حوادث سنة ١٩٣٣ في المانيا ثورة او غير ثورة .

هكذا وضع المفكرون السؤال . وهم لم يعمدوا الى اخذ السابقات التاريخية وتبرير الواقع حينئذ على ضوئها ، فلم يعودوا الى كرمويل او لينين، السابقين ، وانما أرادوا الوصول الى تحديد مقبول لهتلر وحركته .

واني لاذكر كيف اختلفت مع احد الزملاء في الجمعية الفلسفية الفرنسية سنة ١٩٣٨ حين اصر على رأيه بأن ما جرى في المانيا ليس ثورة على الاطلاق .

لقد قال : ان الوصول الى الحكم قدتم بصورة شرعية ، ولم تجر اية مظاهر تدل على الشغب بين الشعب ، وليس في هذا ما تشترك معه ثورة ١٩١٧ في روسيا . وهذا صحيح ، ولكن ، اذا لم نأخذ بعين الاعتبار ان الثورة تغير الهيئة الحاكمة ، والطبقة الحاكمة ، والايديولوجية التي سبقتها ، فهل يبقى هنالك ما هو ، « غير ثورة » ؟ وقد فعلت حركة هتلر كل ذلك .

وهكذا يظهر ان حركة ١٩١٧ في روسيا وحركة ١٩٣٣ في المانيا ، فرعان من عنصر واحد . اما قضية هندنبرغ فأمر لا يهم الحقيقة في قليل او كثير .

وهنالك من اعتبروا حركة « الاشتراكية الوطنية » في المانيا على انها ليست ثورة لانها (ثورة معاكسة) . وهم يدللون على ذلك بقولهم : لقد عاد النظام القديم ــ اي الذي كان سابقا في المانيا ــ الى ممارسة سيطرته ، سواء من حيث الطبقة الحاكمة ، او المؤسسات والافكار المرافقة لها ، فجاءت « الاشتراكية الوطنية » لزحزحة هذا « النظام القديم » ، فهي اذن ثورة ــ معاكسة .

والواقع انه ليس من الضروري ان تكون الثورة ــ المعاكسة وعهدها فترة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

لاعادة النظام السابق لوقوعها ، اذ انه لما كان ضروريا لها ان تحدث تغييرات معينة في ذلك النظام السابق نراها تبدو وكأنها (ثورة معاكسة) .

وليست اي من الفاشية ولا الاشتراكية الوطنية ثورة معاكسة على الاطلاق بالرغم من ان كلا منهما استعارت من الرجعية تعابيرها .

فالنازيون لم يهاجموا الدين المسيحي وحده ، بل هاجموا الليبرالية البرجوازية ايضا ، وكذلك هاجموا التقاليد والعادات الارستقراطية . وقد جاؤوا بمبدأ « جرمنة » المسيحية ، و« تجنيد » الشعب ، ومبدأ « الزعيم »، ولكل من هذه البدع نواحيها الثورية الظاهرة . والاشتراكية الوطنية لم تحطم سلسلة الماضي فقط بل ازالت امكانية اتصالها من جديد . لقد جاءت بمستقبل مخالف لما سبقه تمام الاختلاف ، فكانت بذلك راديكالية شأنها شأن الشيوعية نفسها .

وحقيقة الامر الان ان الناس حين يتكلمون عن معنى ثورة يرونه على الصورة التالية :

١ ــ حيثما تقوم الثورات ، وسواء رافقها سفك الدماء او لم يفعل، ودون النظر الى نجاحها او اجهاض القائمين بها مولودهم ، فان هذه الثورات تدخل ضمن قانون ثابت لا يتغير ، هو ان القائم بها هم فئة « اليسار » . وانها تهدف الى العقلانية ورفع قيمة الانسان .

٢ ــ ان الثورات لا تحقق اهدافها الا اذا استطاعت تغيير شكل الملكية.

وهذان العاملان مجرد احقاد مكبوتة ، كما يشهد بذلك التاريخ .

ان كل تغير عنيف يشهد بعض المكاسب والخسائر الاقتصادية لفريق او اخر من الناس . وكلا الشيئين غير عادل ولا انصاف فيه . ولكن هذا لا يحتم ضرورة تغير طبيعة الملكية . فحسب ما تراه الماركسية يكون الغاء الملكية الفردية لوسائل الانتاج هو الميزة الرئيسية للثورة . ولكن هذا ما لا يوافق عليه الواقع التاريخي . فلم يكن تأسيس الممالك او زوالها او

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

استيلاء اقلية على الحكم في دولة مـا ، او اطاحة تلـك الاقلية مـن دست الحكم .. لم يكن اي من هذا محتومـا لـه ان يلازم تغير طبيعـة الملكيـة القانونيـة المتعـارف عليهـا .

ان القوة الثوريـة قوة طغيانية ، تتحدى القانون ، وتعبر عن اهواء اقلية فقط ، وتعجز عـن النظـر لمصلحـة الشعب على حقيقتها . وهي (اي القوة الثورية) لا تصل الى الحكم الا بعـد ان يثبت اخفاق المفاوضات السلمية في الوصول الى مصالحـة مقبولـة بيـن ما تتطلبه الحاجة الضرورية من تعديل، ومـا تتباطأ الاجراءات الديمقراطية عن تقديمه في ذلك الخصوص .

ومن هذا يتعزز الرأي القائل بان الثورة والديمقراطية نزعتان علـى طرفـي نقيض .

ولما كان الافراد والجماعات ، سواء بسواء ، لا يقبلون التضحية بشيء من مصالحهم الحاضرة ، حتى ولو كـان ذلـك يجنبهم ضياع المصالح فـي المستقبل ، ولما كان الاخرون يظلون ينظرون الى تلـك المصالح على انها غير منصفة ، نجد انه : ستظل الثورة ممكنة الوقوع فـي المجتمعات البشريـة على اختلاف نظمها . ومن هذا القبيل ما نقع عليه كثيرا من خيانة الطبقـة الحاكمة للمصالح الحقيقية للمجتمع الذي تشرف على ادارته ، حين ترفض الاعتراف باهمية امارات تشير الى قرب عصر جديد .

وهذا هـو ما قام به جماعة ميجي الاصلاحيين في بـلاد اليابان ، وامثالهم في تركيا . اذ قام كل من الجماعتين بازالة نظام ناخر بغية اعادة بناء بلديهما من الناحيتين الاجتماعية والسياسية ، من جديد .

واظـن انه لم يكـن بوسع اي من انصار الجماعتين ان يبلـغ الـى غايته التي ينشدها الا بعـد ان يسحـق كـل مقاومة لحركتـه فـي صفوف الشعب . ومع انـه كـان يقصد ترقيـة ذلـك الشعب الا ان هذا الاخير ربمـا عارضه في حركته .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وليس من الضروري ان يكون من يقوم بانقلاب من هذا النوع طاغية او ديكتاتورا ، فيمكادو اليابان وبطرس الاكبر في روسيا كانا يمثلان السلطة الشرعية حين قام كل منهما في بلاده بمثل الدور السابق .

اما الطغيان نفسه فكثيرا ما تدفع اليه الدولة وتجعله امرا محتوما، وذلك حين يجد المصلح المعاصر ان مبدأ « استعمال مبضع الجراح » امر لا حيلة له في دفعه .

هذا مع ان المصلح يفضل استعمال مبدأ المعالجة ، ويفضل الاصلاح على الهدم ، والسلم على الحرب، والديمقراطية على الدكتاتورية .

ولربما بدا له ان استعمال العنف رفيق محتوم للتغييرات التي يود تطبيقها ، ولكنه حتى في هذه الحال لا يقبل العنف على انه غاية في نفسه .

ولربما بدت الثورة نوعا من « الرفاهية » ، ليس بمعنى انها تجلب الخير والاكثر منه ، بل بمعنى ان امة تمارسها مع عدم الحاجة اليها . وقد تم ذلك في فرنسا طوال القرنين الاخيرين . فقد كانت في حاجة ماسة الى اصلاح اجتماعي ، ولكن الفرنسيين لاسباب مختلفة لم يفطنوا الى ذلك ، فنشبت في البلاد ثورات متعددة .

هذا في الحين الذي ظلت فيها اميركا دون ثورة واحدة خلال تلك الفترة. لقد استطاعت ان تتحسس ضرورة الاصلاح الاجتماعي ، فعمدت اليه، وباشرته بكل روية وتعقل. ولهذا ظل الاطار العام للنظام الاجتماعي في البلاد محفوظا .. لقد تغيرت بعض ملامحه . هذا صحيح ، ولكن هذا التغير كان عن طريق سلمي ..

وهكذا اصبحت تلك المجموعة من الولايات الزراعية التي اتحدت اتحادا فدراليا اقوى قوة صناعية في العالم دون اللجوء الى اية وسيلة لا شرعية .

ولا حاجة الى القول بان ما تم في بريطانيا والولايات المتحدة ، وحتى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في فرنسا ذاتها ، يختلف تمام الاختلاف عما يتم في اسيا وافريقيا او اميركا اللاتينية . ففي هذه الاخيرة يبدو ان تعاقب الانقلابات ظاهرة كاريكاتورية من ظواهر ازمة « التقدم » .

واظن ان اي مطلع على مساق التاريخ الحديث يوافقني في انه ليست الفاشية ولا النازية ، مع استيلائهما على الحكم بوسائلهما المعروفة ، شريرتين في ذاتهما فحسب ، بل انهما وسيلتان لشرور اكثر ايضا .

واظنه كذلك يؤكد اعتقاده في الثورة الكبرى ، تلك التي هي اوسع من ثورة تستولي فيها طبقة على مركز اخرى ، وانما هي ثورة تصبغ السلطة بكاملها بروح انسانية شاملة .

ومن سوء الحظ حقا اننا لا نقع في التاريخ على ثورة من هذا النوع ، وذلك خلافا لما تقول به التنبوءات الماركسية .

فالثورة الروسية الاولى ، وثورة شباط ، ازالت عهد اسرة كانت مترنحة بفعل التناقضات بين سلطة القيصر المطلقة ، وتيار الافكار الحرة المعاصرة.

والثورة الثانية ، ثورة ديسمبر ، لم تخرج باكثر من نتيجة احلال اقلية جديدة في الحكم .

نعم ان البروليتاريا ، وهم قلة عددية ، قد لعبوا دورا بارزا في الثورة، وكذلك الفلاحون الذين كانوا يودون التخلص من النظم المجحفة التي كانت تخنقهم ، ولكن هذا لا يكفي .

وفي الصين ، نجد ان البروليتاريا، وهم اضأل من انذادهم في روسيا، قد لعبوا دورا أقل فعالية في الثورة . وكان الريف هو الذي تغلغل فيه الحزب الشيوعي الصيني ، ومنه كان يستمد جنوده واعدادهم الهائلة . اما كوادر الحزب فقد كانت من بين اوساط المثقفين لا الطبقة العاملة .

وهكذا فان قضية تقدم بيارق طبقة لتحتل مكانة الطبقة الاخرى لا تعدو الان اكثر من صورة لطيفة في مجلة مصورة للاطفال .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

نفوذ الثـورة

ان الثورة الفرنسية تراث فرنسي وطني ، ولذلك فانك تجد ابناء فرنسا مصابين بداء عشقها على اساس نزوعهم الى امجاد الماضي . وحتـى كاتب كبير مثل فرنسوا موريالك حين يتحدث عـن « الثورة الاشتراكية والمسيحية معـا » ، تجده ينقصه الدقـة والتحقيق ، ويثير بدلا مـن ذلك ، كثيرا مـن الخيـالات الغامضة التي لا يمكـن تحديدها .

ولما كانت « الثورة » اية ثورة ، تكون مجهولة من ناحيـة طاقاتها واتجاه سيرهـا من قبل اولئك الذيـن يتمنونهـا ، فان هؤلاء يأخذون تلـك الثورة على انها ستحقق كل شيء. ولهذا يبدو الاصلاح بطيئا في نظر المثقفين ،اما الثورة فباعثة على النشاط والتحفز .

والثورة تكسر السأم في الحياة اليومية العاديـة للناس ، لانهـا تغير شيئا من رتابة تلـك الحياة . وثورة ١٩٤٤ في فرنسا خير شاهد على ذلك.

وليست فرنسا او الشعب الفرنسي وحده هو الذي تجد الثورة لنفسها نفـوذا في نفوس ابنائه . كلا ، ان للثورة مثل ذلك في كل مكـان .والجدير بالملاحظـة بهذا الخصوص ان الفرنسيين عشاق افكار جريئة ، فهم ثوريـون من هذه الوجهة ، الا انهم محافظـون تماما حين يحاولون تطبيق تلك الافكار.

امـا من ايـن انبعث هذا النفوذ ، وما هـو مصدره ، فهو علـى الغالب تلـك النظرة الذاتية نحو الاخذ بشكل جديد (الموديرنزم) . فالفنان الذي يرفض اصول الفـن التقليدي، والماركسي الذي يستنكر طول بقاء حكم البرجوازية ، يستطيعـان اعتبار نفسيهمـا مشتركين في غايـة واحدة ، الا وهي « السير قدما » . ولذلك فهما رفيقا طريق .

واذا رجعنا الى القرن التاسع عشر ، وجدنا ان الفن ونظرة التقدم لـم يكونـا مرتبطين . فقد غدا فيكتور هوجو مثلا ، موحى في نظر نفسه لنشر الافكار الديمقراطية في آخر ايامه . اما قبل ذلك فقد تفنى بالامجـاد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

السابقة . وهكذا لم يكن ثوريا بالمعنى الذي نفهمه من الكلمة على الاطلاق .

وكذلك كان بلزاك ، وفلوبير ، الاول منهما رجعي والثاني محافظ . اما الشعراء « الانطباعيون » فقد كانوا رعاة « مدارس » متقدمة في الافكار الاخلاقية ، وكان صراعهم مع نهج الفكر الاكاديمي لا يعني اطلاقا بانهم قد فكروا في تغيير النظام الاجتماعي السائد في ايامهم .

اما الكتاب الاشتراكيون ، والرجال العسكريون الاشتراكيون ، فلم يكونوا يتفقون مع مفهوم كلمة « حزب الطليعة » . وها هو « ليون بلوم » مثلا يعتبر « تورتو ـ ريش » احد كبار رجال الادب في عصره ، مع ان الاخير لم يقل بما كان يقول به بلوم .

ولم يتم الاتفاق بين فئتي الطليعة ، اعني رجال الفن ، والاشتراكيين ، الا بعد الحرب العالمية الاولى . وقد اتخذ له رمز السيريالية في فرنسا. اما في المانيا ، فقد تمثل بذلك العدد الوافر من الشعراء الصغار ورواد المقاهي الرخيصة ، الذين كانوا يهاجمون المذاهب الادبية القديمة . وكانوا يقبلون التحالف حتى مع البلشفيك في مهاجمة المعتقدات المتعارف عليها ، وطغيان رأس المال بشكل خاص . وكان الدين عدوهم كما هي الرأسمالية.

ولم يدم ذلك الاتفاق اكثر من عشر سنين . فما كادت تطل سنة ١٩٣٩ حتى كان مختلف افراد الزعيل الاول من كبار الكتاب الروس وادبائهم قد اختفوا ، وعادت قواعد فن الرسم الى ما كانت عليه قبل نصف قرن من الزمن ، كما اخذ المؤلفون الموسيقيون يعودون قليلا قليلا الى الاعصر السابقة .

وهكذا انقلبت الاية فصارت روسيا التي كانت محجة لدعاة التجديد كما يراه « حزب الطليعة » ،صارت بلدا تدعو الى السير حسب القواعد القديمة بكل صراحة . لقد اطرحت التجديد ، فظل حزب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الطليعة حائرا لا يدري اين يوجه قبلته .

وهنالك شيء يسترعي الانتباه في الفنانين والثورة :

فرجال الفن يدعون دعوة حارة الى التغير ، ويكون تغيرهم الذي ينشدونه على سبيل قفزات متتابعة ومفاجئة . ويظنون ان الثورة التي يقوم بها الحزب الشيوعي هي خير ما يكمنهم من تطبيق برامجهم .

وعلى هذا الاساس يتحالفون معه .. ثم ينضمون الى صفوفه تدريجيا .. ويقوم الحزب بثورته ، وحين تنجح ، يجد اولئك الحكام الجدد ، اي الشيوعيون ، انفسهم في حاجة ماسة الى توطيد الامور وضرورة سيطرة الاستقرار . وذلك حتى يستطيع هؤلاء الحكام الجدد احلال طبقة جديدة بدل الطبقة التي طردوها من الحكم .

ولكن رجال الفن لا يجدون من صالحهم الدعوة الى هذا الاستقرار.

وحينئذ يقع الشقاق بين الفئتين . فلا يظل هنالك مناص للحكام من سحق تلك النزعات القلقة في رؤوس حلفائهم السابقين .

ويرتبط نفوذ « الثورة » بعامل اخر بالاضافة الى ما سبق ، وهو النزوع الى تحقيق الذات الفردية بشكل اناني اقرب الى الوحشية .ولشرح ذلك دعنا نعود الى الاعراف التي كانت سائدة في بوهيميا في مطلع هذا القرن .

كان الشباب يتباهون حين لا يعترفون باية سلطة دينية للزواج . وكانوا يفضلون استعمال تعبير « شريك حياة » او « شريكة حياة » على كلمتي زوج وزوجة . وكانت العلاقات العائلية بين الشباب المتزوجين تكاد تكون معلقة بين الشك واليقين .

كل هذا نتج عن انتشار موجة من الانانية الشخصية المعادية لمساوىء الكبت الذي ظل يهيمن على تقاليد الشعب عدة اجيال في السابق .كما يعود الى كره الناس للشرور الذي انتجها فساد حكم البرجوازية في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

تلـك البـلاد . .

وانقضت تلـك الموجـة .

فماذا نرى الان ؟

اننا نرى رجوعا الى الاخذ بالتقاليد السابقة نفسها بل صرامة في النظر الى وجوب اتباعها اكثر من سابق العهد الذي انقطع بالعزوف عنها . فالطلاق والاجهاض صارا يمنعان ، والاحترام للعائلـة وارتباطاتهـا آخـذ فـي التزايـد .

ولهذا فان الحكومة التي شجعت على غير ذلك في السابـق ، تجـد نفسها في مأزق حرج في الوقت الحاضر . وليس اكثر من هذا ما يتمناه دعـاة المحافظـة على القديم .

★

ولنبحث الثورة من وجهة نظر المؤرخين ، تلـك الوجهـة المتعلقـة بالعائلـة .

انهم (المؤرخون) يقولون :

من طبيعة الثورات ان تكون اقرب الى التزمت (البيوريتانية) فـي سلوكهـا .

وهم يؤيدون قولهم هذا بمثلين : الاول ، ثورة كرمويل المتقشفـة الزاهـدة الا فـي سفك الدمـاء .

والثاني الثورة البلشفية الاخيرة .

ويفسر بعض المؤرخين دعواهم هذه بالقول :

حين تكـون الثورة في مبتدأها يكـون هنالك واجبات كثيرة ملقـاة على عاتق القائمين بها ، سواء من الناحية الاخلاقية بالنسبة للعائلة ، او من الناحيـة العمليـة بالنسبة لانجاز اهدافهم .

وفي هذا القول تغاض عن حقيقة بارزة ، ينساها هؤلاء المؤرخون ،او على الاصح ، نراهم يتناسونهـا . وهذه الحقيقة هـي :

ان نظام الاسرة قـد ظل طوال التاريخ اقوى وارسخ من كل تغير في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

نظام الدولة والمجتمع على السواء . فحين تعود ثورة ما الى التشديد في تقدير نظام الاسرة ، فانها تكون بذلك لم تأت بجديد ، وانما تحاول ان تكسب لنفسها ديمومة واستقرارا .

ومعنى هذا ان الثورة في اوروبا لم تخلق شيئا جديدا بهذا الصدد.

وذلك بخلاف الثورة في الصين ، حيث ان تحرر المراة هناك يبدو انه سيظل على الدوام .

*

ويبقى فيما يتعلق بأمر الدين .

لقد قامت الثورة الماركسية على اساس نقدالدين ، ويعود ذلك عند ماركس الى ما اخذه عن فورباخ ، من انه لا يجوز للانسان أن ينسبالى الله تحقيق ما يطمح اليه هو . فاذا فعل ، فان الانسان يكون قد ابتعد عن ذات نفسه .

وتقول الماركسية :

ان الله ، الذي هو بعيد كل البعد عن انه خلق الانسان ، هو ذاته من ابداع الخيال البشري . ولهذا فان على الانسان ان يحاول جهده الوصول الى الكمال الذي ابدعه خياله ، لا ان يغتر هو بما ابدع .

ونقد الدين يؤدي الى نقد المجتمع .

فهل من الضروري ان يؤدي ذلك الى القول بأن الثورة امر ضروري ؟

« ان الثورة ليست هي حقيقة الشيء ، وانما هي شكل من اشكال الحصول عليه . وكل عمل في الحقيقة نفي لمعطى سابق » . هذا ما ادت الى خلقه ثورة ١٧٨٩ في عقل هيجل ، وهو الذي خلق اسطورة « القوة في خدمة العقل » .

والان ، واذا لم نرد انتسلم بما في النفوس البشرية من ميل الى الفوضى ، فانه لا يغدو حتما علينا ان نقوم بثورة ما حتى ننفي « المعطيات السابقة » . اي انه « ليست الثورة حتمية للوصول الىتحقيق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تغيير شكل مجتمع مـا » . ذلك لان الثورة ليست هدفا في ذاتها ، وانمـا هي وسيلة الى هدف . ومن الطبيعي ان الوسيلة خاضعة لنـا ، نكيفهـا على الصورة التـي نشاء .

وحتى في الماركسية ، ليس هنالك مفهوم معين للثورة . فهنالك :

١ ــ من يرى ان الثورة لا تتعدى ان يقـوم نفـر مـن العسكريين ومناصريهم بالاستيلاء على الحكم في الدولة . وبعـد ان يتم لهـم ذلـك يأخذون في تغيير صورة المجتمع .

٢ ــ ومن يرى ضرورة الاخذ بمفهوم تطووي ، اي السعي في سبيـل انضاج تدريجي للثورة حتى تحين ساعـة حرجة تتعاظم فيها الازمة فيجري اغتنـام تلـك الفرصـة .

٣ ــ الثورة الدائمة ، وهي ثورة البروليتاريا التي تعمل علـى نسف النظـام الرأسمالـي .

ويتم التقدم نحو الاشتراكية في الوقت نفسه مع ازاحة الرأسمالية، خصمهـا اللدود .

وكما ترى ، فان المفاهيم الثلاثة تتطلب استعمال القوة، وان كـان المفهوم الثاني اكثر اعتدالا من رفيقيه الاخرين ، كمـا انه اقرب من الاعتدال الذي نجـده موفورا في « الاجتماع » عند ماركس .

ولا حاجـة الى القول بان اتباع طريق هذا المفهوم يؤجل ساعـة الوصول الى المستقبل المرجـو عند أصحاب اي من المفاهيم الثلاثة الانفـة الذكـر .

لقد توصل ماركس الى ما توصل اليه بعد ان اخذ بنظرية ديالكتيك التاريخ . وهذا أيضـا هو ما يتوصل اليه المثقفون اينمـا كانوا حين يسيرون على هدي ذلك الديالكتيك . فهم لا يقبلون بالثورة لاعتقادهم بانها وجـه صالح للانسانية في المستقبل ، بل ينجرون الى ذلك على اساس ان الثورة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نقيض للواقـــع . وهكذا فمن عامل كراهيتهم للحاضر يقدمون على شيء لم يتحققوا منه بعد . فمـــا هو الذي تستفيد منه الثورة في عقول هؤلاء ؟

انه نفوذهـــا السابق . انه تلـــك الهالة التي اضفاها عليها التاريخ.

والحق ان كلمـــة « ثورة » وكلمة « ثوري » في الوقت الحاضر تكاد تكون « موضة » أكثر منها تعبيرا . وان المرء ليسائل نفسه احيانا :

ترى هل ان جميع هؤلاء الكتاب الداعين للثورة يصدرون فـــي مـــا يكتبونه عن رأي اندريه مالرو حيـــن قال :

« ان القيمـــة الحقيقية للانسان تظل في تحديه للحياة ، ولذلك فان كل فكـــر جدير بالانسان ان يحمله لا بد وان تقوم دعائمه على اساس الامل بالمستقبـــل » .

فاذا كان الامر على هذه الصورة ، فـــان القـــرن العشرين اقرب الـــى الحكـــم عليه مـــن الحكم لـــه .

الثورة والانقلاب

كـــان للرسائل المتبادلة بين كامـــو ، وجـــــان ــ بول ــ سارتر ، وفرانسيس جاسون ، اثر بالـــغ في فرنسا ، فقـــد اصبح اختلافهم فـــي الرأي انشقاقا في صفوف الامة الفرنسية بكاملها .

ولست ههنا لاتتبع كل نقطة وقع الاختلاف بصددها ، فذلك يتطلب مني الكثير ، كمـــا انني ربمـــا لـــم آت فيه بجديد ، وانمـــا اود ان ابحث ما يتعلق منه باسطورة الثورة، بيـــن كاتبيـــن كبيرين يناقشان اراءهما في السنة السابعة من الحرب الباردة ، اي سنة ١٩٥٢ على اعتبار ان الحرب الباردة عقبت الحرب الحقيقية التي انتهت سنة ١٩٤٥ .

ان كلا من سارتر وكامو يعتبران وجود الانسان على الارض لا معنـــى له . والكاتبان يحاولان جاهدين ان يصلا الى الحقيقة . وبذلك يخدعـــان نفسيهما بفعل الغرور الفردي ، ومن جراء التشاؤم النشيط . وهمـــــا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يتناولان الحياة وتفسيرها من منحى واحد تقريبا .

وحين يودان الاعتراف باتفاقهما او عدم اتفاقهما ، والاخير على الاكثر ، نجدهما يكشفان عن قيم متشابهة ايضا . وكلا الرجلين يقول انه « انساني » يحاول ان يخفف الشرور الحاضرة ، ويعارض الفاشية ، والرأسمالية ، والاستعمار .

وسواء فيما يتعلق بالجزائر ، او اسبانيا ، او فيتنام ، فان كامو لم يتهمه أحد بالابتعاد عن الايديولوجية التقدمية . فحين انضمت اسبانيا الى اليونسكو كتب كامو رسالة احتجاج صارخة ، اما حين انضمت الى تلك المؤسسة كل من تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي فقد لزم الصمت .

اما سارتر فانه لا يفسر التاريخ على انه تطور في الروح .وهو يرى ان مجتمعا لا طبقات فيه سيظل عاجزا عن اصلاح النفس البشرية او معالجة تناقض وجود الانسان مع الانسان الاخر . ووجودية سارتر تقصي من ساحتها جماعية التاريخ ، وترى ان كل فرد يصنع تاريخ وجوده ، ويسيطر على مقدراته ومصيره .

وكامو يوافق على ذلك دون تحفظ .

واذن ما هو الاختلاف بينهما ؟

يبدو انه هو الاجابة على ذلك السؤال الذي يظل يفرق ما بين الصديق وصديقه وهو :

ما هو الموقف الواجب اتخاذه تجاه الاتحاد السوفياتي والشيوعية؟

ويبدو ان الجواب الاخير كان : ان كامو يفضل « الغرب » بينما يفضل سارتر « الشرق » ، ولكن ، لكل من الرجلين شروط معقدة لا مكان لذكرها في مثل هذا البحث الموجز .

والان : حقا ان الثورات نبات الامل او اليأس اكثر منها من صنع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

النقمــة .

وهذا الضغط الكثير الذي تعرضت له فرنسا من الخارج يجعـــل امكانيــة القيام بثورة فيهــا اكثر بعدا . فعلى صعيد اللعبة البرلمانية نجد ان اليمين يستفيد كثيرا من اليسار . وذلك لان المقترعين يصوتون له لانهم لا يريدون التصويت لليسار ، اي انهم يفعلون ذلك ابتعادا عن خصمه لا حبا فيه . ولهذا نرى آن الشيوعيين يفوزون حين يبرهن الاشتراكيون عن عجز في صفوفهم . وعلى هذا الاساس تكون تقوية الحزب الاشتراكي اضعــاف للشيوعييــن .

واذا رجعنا الى انتخابات سنة ١٩٤٦ مثلا وجدنا ان الامر واضـــح للغايــة . وما لنــا وللانتخابات . انه يمكــن القول بان فرنسا كانت في تلك الاثناء تديرهــا حكومة برلمانية لا تتناسب مع طبيعة الحرب الباردة . كانت البلاد تواجه تهديدا شيوعيا من الداخل ، وضرورة القيام بانقلاب تصنيعي في الداخل ايضا . ولكنهــا حقا لم تكــن حازمة بحيث تعالج ايا من الاثنين .

ووقعــت الحرب في الهند الصينية .. وقد ابدت اميركا انها لا تملك الموهبة في مساعدتنا في التنظيم ولا الرغبة في تقديم تلــك المساعدة لــو ملكتها . وكانت فرنسا تحارب على ارض قد فقدت اهتمامها بها منذ زمــن بعيد .. كانت حربها لا أمل فيها بالنصر ، وان كانت امكانية الهزيمة متوفرة .

وحدث اذلال ديان ــ بيان ــ فو ، فزاد ذلــك من الشقاق بين عناصر الامة الفرنسيــة .

ثم عقبت ذلك حرب شمال افريقيا ، ولا زال الفرنسيون منقسمين على انفسهم بالفعل فيما يتعلق بهذا الصدد .

لقد تعاقبت على الحكم في البلاد وزارات عاجزة كانت ذات سياسة متأرجحة لا تميل الى الاستقرار . ولذلك ظلت معالجة القضايا تسير بغير هدف . وجميع الفرنسيين تقريبا لا يوافقون على خطة حكومتهم ، ولكنهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ايضـــا لا يدرون ما هي الخطـــة الافضل منها .

وهنا يكون دور المثقفين . ولكن هؤلاء منقسمون ايضا ، بل ان انقسامهم اشد خطرا من انقسام الناس العاديين .

ان في فرنسا ظاهرتين كبيرتين في الوقت الحاضر ، هما مجتمع خامل وطبقة مثقفة نشيطة في ايديولوجيتها النظرية فقط . ومع انه يبدو ان هنالك تناقضا بين هذين الوجودين ، الا انه الواقع في حال الطبقة المثقفة الفرنسية والمجتمع الفرنسي ، وذلك انـــه لما كانت الحريات تسمح بالشطط فان المثقف يغدو يعتبر ان رسالته في الحياة ليست الا المعارضة .

اما اذا سئل ، وكيف يكون العلاج ؟ فانه يبدي كل جهل وتجريد .

ولربمـــا اشار الى الثورة . ويكون بذلك مسوقـــا تحت تأثير نفـــوذ الثورة لا الثورة نفسها . فلا يعمد الى الثورة الا مثقف خيالي (يوتوبي) لا يهتدي سبيله ، ويظل يركض وراء تغيير الواقع عن طريق العنف .

ومن المؤسف ان « الاشتراكية البريطانية » او مبدأ « مجتمع بـــــلا طبقات » السكندنافي ، لم يحظ في فرنسا ، واعني بين الطبقة المثقفة فيها، بالقدر من العناية التي حظيت بها الثورة الشيوعية .

اسطورة البروليتاريـــا

« البروليتاريا كما يراها الماركسيون هي الطبقة التي على عاتقها تقع مهمـــة (الخلاص العام) للبشرية » .

أفلا يتفق هذا المفهوم الاصيل مع الافكار اليهودية التـــي عمت العالم قبل ميـــلاد السيد المسيح عن ترقب اليهود لمسيح منتظر ؟ أليس يشترك مع فكـــرة **« مملكـــة الله »** ؟

بلى . ان في كل من الفكرتين ظاهرة بارزة هي اعتبار الجديد المنتظـــر نقطة انقطاع عن الماضي المؤلم .

ووجود هذا الاشتراك بين الفكرتين ليس في مصلحة الماركسية على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كل حال ، اذ انه في الوقت الحاضر لا يعدو كونه بعثا لاساطير يهودية قد تراكم عليها غبار السنين .

وهنالك فرق لا يجوز أن ننساه بين الفكرتين ، فالثانية منهما تريد « مسيحها » ان يخلص الناس عن طريق العنف . بينما كانت الفكرة الاولى ترى خلاف ذلك .

وهنالك فرق اخر ، فالمسيح بمفرده هو المخلص في الحالة الاولى، اما عند الماركسية فهنالك طبقة كاملة ترقى في عددها الى ملايين .

والان من هم افراد هذه الطبقة ؟

وبمعنى اخر دعنا نعرف البروليتاريا عن طريق تحديد من تشملهم .

وما علينا أن نفعل ذلك ، فقد قام جدل مشهور بين مجلات المانيا وفرنسا بهذا الخصوص . وكانت مجلات الاشتراكيين في المانيا ترى خلاف ما يراه الفرنسيون . لقد كان الموضوع يتعلق بروسيا . وفي تلك البلاد حدد الحزب طبقة البروليتاريا وانتهى الجدل . اما في المانيا فان الهتلرية لم تسمح الا بما تشاؤه هي . وهكذا ظل المجال امام الاشتراكيين الفرنسيين ليروا رأيهم .

تحديد معنى البروليتاريا

اظنني لا اعدو الصواب اذا قلت ان كلمة « طبقة » هي اكثر كلمات القاموس السياسي شيوعا على السنة الناس واقلام الكتاب في الوقت الحاضر . والجميع يستعمل هذه الكلمة دون التبصر بالغموض في مدلولها . وبذلك يكونون يقسمون المجتمع الى شرائح يضعون واحدة منها فوق الاخرى، ثم يشيرون الى ما فعلوه فيقولون : ان هذه الشريحة هي الطبقة البرجوازية او هي الطبقة الارستقراطية او هي الطبقة البروليتارية .

وهذا بحد ذاته عجيب غريب . ولكن اعجب ما فيه انهم ينساقون بالعاطفة الى الدفاع عنه .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولست اود الدخول في مزايدة كلامية حول هذا الامر ، وانما اجدني افضل الانطلاق من المرتكز الذي يصدرون عنه فأقول :

ان كلمة بروليتاريا ، في الوقت الحاضر ، تطلق على الشغيلة الذين يشتغلون بمجهودهم العضلي فيكسبون اجورهم مقابل بيع ذلك المجهود .

ومعنى هذه العبارة ان البروليتاريا طريقة للعمل اكثر منهما صنفا من الناس في حقيقة الامر .

ومعناه ان البروليتاريا متأرجحة في تكوينها ، فهي تارة واسعة الحدود تضم عناصر مختلفة ، واخرى ضيقة تكاد لا تضم شيئا .

والان : أتراهم يعتبرون الموظف في مؤسسة عامة تملكها الحكومة من البروليتاريا ؟

او انه خارجها ؟

وهل الموظف المكتبي في مؤسسة فردية صغيرة ضمن نطاق البروليتاريا؟

وهل المشرف على ادارة العمال ، وهو منهم ، بروليتاريا ؟ وهل الميكانيكي في كراج على حسابه من البروليتاريا ، حتى ولو لم يكن لديه اي عامل غير عائلته ؟

ان العامل الصناعي في بلد متأخر متخلف الاقتصاد ـ ولذلك فانه غير آخذ باسباب التصنيع الاوتوماتيكي ـ يختلف من حيث النظرة الى الحياة عن العامل الصناعي نفسه حين نجده يعمل في مصنع تام التجهيز بالماكينات الحديثة ، فأيهما بروليتاري ؟

وربما ود الذين يحاولون فرض معيار معين يتخذونه للحكم بموجبه على ان هذه هي البروليتاريا وتلك هي غير البروليتاريا ـ ربما حاولوا القول:

ان طريقة انتاج السلع ووسائل توزيعها هي التي تعين ذلك .

وحينئذ نقول :

ان ملايين التجار الصغار واصحاب الدكاكين مثلا لا علاقة لهم بالانتاج

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

في قليل او كثير ، فهم يتسلمون السلع جاهزة ، ويسلمونها الى زبائنهم جاهزة ايضا فأين يكون موقفهم ؟

هل يكون الحكم لمصلحتهم او تراه ضدهم ؟

واذا ووجهنا بالاعتراض :

« ان هؤلاء لا يتقاضون اجورا » ، قلنا :

بلى ، انهم يفعلون ، والا كيف تعتبرون ارباحهم ؟ واكثر من ذلك انهم يعيشون بمجهودهم العضلي ايضا ، ولا فرق ان يكون الاجر يوميا او بالمفرق، كالربح مقدارا ما في السلعة الواحدة .

ولندع هذا الجدل الذي لا ينتهي ونحاول ان نبرز بعض الحقائق التي تؤيدها الوقائع :

ان العمال في القرى يشعرون مع جيرانهم من غير العمال اكثر مما يشعرون مع العمال الصناعيين في المدن ، القريبة والبعيدة دون تمييز . والعامل الصناعي في اقليم ما يتعاطف مع العامل الصناعي في اقليمه اكثر مما يفعل مع العامل في بلد اخر . ولو كانت البروليتاريا طبقة منفصلة عن غيرها لما كان صحيحا ما سبق ، اذ انه يشهد بعدم التجانس بين العنصر الذي تتالف منه تلك الطبقة .

ويرى انصار « تحديد مدلول كلمة بروليتاريا » ذلك ، فيلجأون الى تعريفها بطريقة اخرى . انهم يقولون :

« ان البروليتاريا هم الفئة الثورية من العمال » .

ومعنى هذا ان العمال حين يكونون غير ثوريين لا يدخلون ضمن ما تشمله تلك الكلمة .

ونحن نعجب من هذا التحديد ، ذلك لانه وصف لا تعريف اولا ، ولانه يفرض على تلك « الطبقة » صفة ان تكون عدوانية ثانيا .

ولشرح ما نهدف اليه نقول :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

انكم تجعلون مهمة البروليتاريا ان تخلص العالم من شروره التي تراكمت بفعل غير البروليتاريا ، فكيف يجوز ان يعتمد هذا « الخلاص » في اساسه على النقمة على من تريدون تخليصهم ؟

ولربما اجابوا على هذا بقولهم :

ان البروليتاريا تريد ان تخلص نفسها اولا ثم تخلص الاخرين .

وحينئذ نسألهم هل تودون قبول التعريف الذي يقول :

« ان العامل يغدو بروليتاريا حين يثور على غربته ، كما يرى فرانسيس جاينسون ؟ » .

الا يكون خيرا لكم لو اوضحتم لنا الامر فقلتم على لسان سارتر « ان وحدة الطبقة البروليتارية متضمنة في علاقتها مع المجتمع ـ اي في نضالها ضد الطبقات الاخرى فيه » ؟

وحين تقبلون بذلك نجيبكم :

ان البروليتاريا التي من هذا النوع ضئيلة جدا من الناحية العددية . وهي ليست بذات موضوع لهذا السبب . ولكن فيها جانبا هاما نراه جديرا بالاشارة اليه . انه تجسيدها للميول العدوانية .

وفي المعنى الذي يستعمل المؤرخ الانكليزي ارنولد توينبي هذه الكلمة غموض يزيد من تعقيد الامر . ومجمل معنى المؤرخ هو « ان الطبقة التي نطلق عليها اسم « طبقة العامل الصناعي » (وهو يعني بذلك البروليتاريا)، هي تلك المجموعة من الناس الذين يأخذون في التلهف لتغيير الاوضاع القديمة عندما تكون الحضارات السابقة قد نخرها الفساد . وبعد التلهف السلبي يزداد الترقب لقدوم مصلح ما . ولا بد لهذا المصلح ان يكون ذا رسالة ، ولا بد لتلك الرسالة ان تجعل همها الشيء الذي كانوا يترقبونه ولذلك تجدهم سرعان ما ينخرطون لتحقيق رسالة ذلك الرسول » .

وعلى هذا الاساس ظهر الانبياء ، والرسل ، وفي العصر الحاضر جاء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ماركس على حد تعبير مريديه !

وعلى كل حال فان التعريف الذي صاغه سارتر يؤدي بنا الى بؤرة القضية ، الا وهي انتداب طبقة البروليتاريا هذه لمهمة جليلة ، فهو يرى ان طبيعة البراءة عند العمال ، وطبيعة اوضاعهم الاقتصادية ، وكون البروليتاريا تعيش في مجتمع بورجوازي هي ليست منه في قليل او كثير، كل ذلك يجعل هذه البروليتاريا صاحبة الاهلية الطبيعية لان تكون عالمية ، اي اممية . ويرى ان اميتهم هذه هي التي توحدهم في هذا العالم .

ويختلف رأي سارتر في تعبيراته فقط عما يقدمه لنا الفلاسفة الوجوديون الاخرون . وها هو المسيو ميريو – بونتي يقول :

« اذا كانت الماركسية تقدر البروليتاريا تقديرا خاصا فان ذلك يرجع الى طبيعة ظروفهم ، وطرقهم الاصيلة في الحياة ، وهذا ما يجعلني – متفاضيا عن عدم كونهم يتمتعون بصفات « الآلهة » – ارى انهم الطبقة الوحيدة الجديرة بتحقيق انسانية الانسان . واذا اعتبرنا مساق التاريخ والدور الذي ستلعبه البروليتاريا فيه صار علينا ان نقول انه دور اعتراف الانسان بالانسان . ولهذا فان الشخص البروليتاري هو ذلك الذي يكون **بعيدا تماما عن كل « خصوصية » في الفكر او العمل . وكذلك في الواقعية على ان يكون ذلك الابتعاد هو حقيقته نفسها ، لا شيئا مكتسبا فيه** ، وهو وحده القادر على تحقيق « عالميته » بوعيه الذي يقترب في اشراقه من درجة تأمل الفلاسفة » .

وانه لغريب حقا ، ان المثقفين ، والكبار منهم خاصة ، اولئك المثقفين الذين ينظرون بشيء من الدونية والاحتقار نحو كل ما يتعلق بعالم التجارة والصناعة ، نجدهم يجدون الانسانية المجردة المحققة تتمثل في العمال . اليس هذا تناقضا ايها المثقفون ؟

ولنعد الان الى ما يعطينا اياه ماركس عن الطبقة التي نحن بصددها .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولا اراني انتفع كثيرا من مناقشة التعريفات والتحديدات الاصطلاحية ،وانما أظـن ان الخير من ذلك هو في اعطاء صورة اجمالية عما كان يفهمه ماركس من هذه الكلمـة (البروليتاريا) . وافضل سبيل لذلك هو تقديم ما كتبـه ماركس نفسه : انه يقول :

((انهم يكدحون اثني عشرة ساعة في اليوم ، وليس لهم من يلجأون اليه، لا نقابة ولا تشريعا اجتماعيا ، وتراهم خاضعين لقانون الاجور الصارم ،حتى ليبدو ان سوء الحظ ونكد الطالع يكاد يكون مقصورا عليهم قصرا)) .

فاين تنطبق هذه الصفات الان على اي مجموعة من العمال ؟ ان النقابات والاتحادات العماليـة شيء معترف به في جميع مناطـق العالم فـي الوقت الحاضر ، وان كان ذلك على درجات . واعجب من ذلـك ، ان نقابات العمال غير حرة في بلد العمال نفسه .

واما الاثنتي عشرة ساعة ، فلا أظـن اي بلد متحضر لم يضع قانونـا للعمل يحظـر مثل هـذا التشغيل المنكر . ربما كان هنالك شيء من الاجحاف للعمال من حيث طول مدة شغلهم في الاقطار المتخلفة ، ولكـن حتى في هذه، الاثنتي عشرة ساعـة هذه مستحيلة تمامـا .

اما التشريع الاجتماعي ، فقد ضمنت وجوده طبيعة ارتقاء الحياة فـي القرن العشرين ، وفي البلاد الصناعية البرجوازية على الخصوص . انظـر الى بريطانيا او اميركا او فرنسا . أليس في اي منهـا تشريع اجتماعـي يضمن حقوق العمال ويكفل حرياتهم اكثر من مثيله في بلد ماركس ؟

واما صرامة قانون الاجور ، فاظنه واسعا فضفاضا يسمح للعامـل الاميركي باقتناء مغسلة كهربائية ومطبخ حديث . هذا مـع ان المفترض ان تكون تلـك الصرامة على اشدها كلمـا ارتقت البلد الصناعية في تطورهـا حسب ما يتبادر للذهن من دراسة ماركس .

ويبقى سوء الحظ ونكد الطالع ، وهذا صحيح ، ولكنه ملازم للعمال في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

البلدان التي تحكم فيهـا البروليتاريا فقط .

ومن كل ما سبق يمكن استنتاج ان « بروليتاريا ماركس » لم تعـــد موجودة في الوقت الحاضر . والحق ان بعض تنبؤات ماركس قد لا يـزال امامها في التاريخ متسع كي تثبت صوابها او خطأها ، اما بصدد البروليتاريا فقد سارت على خط مستقيم يناقض الواقع .

وبانتفاء وجود هذه البروليتاريا تنتفي حاجتها الى حزب طليعي ، اي انه لا حاجة لحزب شيوعي ، اصلا . وبانتفاء صوابية وجود الحزب الشيوعي، ينتفي ذلك النفوذ الذي اجهـــد ماركس نفسه في خلقه لفكرته . **ذلك لان ماركس قضى على ماركس .**

ولكن هل يقبل الشيوعيون هذا ؟ كلا ، طبعا . ولذلك تراهم يصرون على تفسير التاريخ حسب ما هي مصلحتهم،فيؤكدون على وجودالبروليتاريا، ويفترضون رسالتها بعد ذلك ، ويجزمون بوجوب قيام حزب طليعي ليقودها نحو هدف تلـك الرسالة . وحين يدخل العضو في الحزب الشيوعي اول الامر ، يكون اهتمام ذلـك العضو متركزا على خدمة الطبقة ، ثم يتحول الى خدمة الحزب نفسه ويتناسى امر الطبقة ، وحتى داخل الحزب ، يجد نفسه مضطرا لرعاية مصالح المتسلطين فيه .

وهذا ينطبق على الفلاسفة الفرنسيين الذين يقولون :

« يستحيل على المرء ان يحارب الطبقة العاملة ويظل بعيدا عن محاربة الانسانيـة » .

وهم ينسون بذلك انهم قبل قولهم هذا يكونون قد قبلوا مبدأ « رسالة البروليتاريـا » ، فـمن اكد لهم وجود هذه الرسالة يا ترى ؟

انها ايها المثقفون الكبار مجرد فرضية ، فمـا بالكم تجزمون بها .
الا تدرون ان العامل الصناعي هو مخلوق خلقته ظـروف قرن واحد مـن الزمـن ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

فبأي حق تعطونه حق الاشراف على مهمات الانسانية ؟

انني ارى ان الطبقة العاملة في الدول التي تتبع النظام الرأسمالي تتمتع بحياة ارقى من حيث مستواها وعلاقاتها الاجتماعية ، منهـا في البلـدان الاخرى . وهكذا فانني ارى ان طبيعة العدوانية التي يريد انصار « البروليتاريا العالمية الموحدة » ان يغرسوها في نفوس العمال تأخذ الان في الخمود بدلا من الاشتعال . وهذا يجعلني ارى « الثورة الدائمة » آخذة في الابتعاد والاقتراب من عـدم الوقوع البتة .

*

ولنعد الان الى حتمية الثورة :

وينطلق اصحاب « الديكالكتيكية التاريخية » في اثـارة البروليتاريا بغيـة القيام بالثورة من شكاوي سـت :

١ ــ ضآلة الاجور .

٢ ــ ساعات شغل اضافيـة .

٣ ــ التهديد بالبطالة .

٤ ــ النقمة من جراء عدم كفاءة الادارة في المعامل والمصانع .

٥ ــ الشعور بالبقاء في الوحل دون اي أمل بالارتقاء والتقدم .

٦ ــ القول بأن العامل ضحية نظام غير منصف .

واذا رجعنا الى اي دليل اقتصادي للاجور ، او مصنف دقيق لمثل ذلك وجدنـا ان هذه الشكاوي قـد زالت في الوقت الحاضر . فالاجور مرتفعة تسمح بان يعيش العامل النشيط حياة رغدة . هذا مع ان الاجور ستظـل ترتفع تبعا لارتفاع مستوى الحياة في بلد العامل نفسه .

وساعات العمل الاضافية قد زالت اصلا ، فالمساعدات محددة فـي الوقت الحاضر ، وكلمـا زاد ادخال الآلات الاكثر كفاءة في الانتاج ، صـار بامكـان العامل ان ينقص من ساعات عمله المحددة نفسها .

اما بصدد البطالة ، فان ارتقاء التكنيك نفسه سيخلق مجالات جديدة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

للعمل . وما الازمـات الاقتصادية الدورية الا ناتج من نواتـج تخلف بعض مناطق العالم ، بمـا يجعلهـا في الوقت الحاضر غير قادرة علـى توفير مـا تحتاجـه مـن سلـع .

وكذلك ادارة المصانع ، فقد بلغت درجة كبيرة من الاتقان والعناية في البلدان التي لا تحكم البروليتاريا فيها ، اعظم من الدرجة التي بلغتها فـي البلدان التي يسيطر عليها من يحكمون باسم البروليتاريا .

اما فرص التقدم والارتقاء فقد اصبحت مكفولة للجميع ، وبذلك انتفى الشعـور بالبقاء في الوحـل .

ويبقى القول بعدم انصاف النظام ، وهذا الزعم لن يزول وان تناقص من يعتنقونه، ذلك لان المقصر العاجز يظل يصب نقمته على النظام لمجرد عجزه.

التحرر النظري والانعتاق

ترددت كلمة « التحرر والانعتاق » عند فلاسفة ومثقفي القرن الماضي الكبار فماذا يعنون بهـا ؟

انهم يرون الانعتاق على شقين ، الاول نظري ، والثاني عملـي . امـا الاول فهو الاعتراف بالتساوي في الحقوق بين جميع المواطنين . وكان ذلك غير متوفر من ناحيـة حق الانتخاب . وقد اخذته الماركسية فـوسعته ، وجعلته عبارة عـن مبدأ تكافؤ الفرص . وكان اولئك الداعون يترجمون عن واقعهم الذي لم يعـد له بقاء في الوقت الحاضر .

وصحيح ان النفوس تعشق المساواة ، حتى ولو كانت مجرد الناحية النظرية منها . ولهذا وجدنا هذا المطلب يلقى كل قبول لدى الناس عنـد صدوره بعد بروزه في المجتمعات . وبمـا انه قـد تم تحقيقه فلم يعـد موضوع نقاش في هذه الايام .

اما الثاني ، وهو الانعتاق العملي ، فان ماتقدمه الماركسية منه لا يعدو كونه على الورق . ولو تساءل المرء ايهم استفاد اكثر ، هل هم اولئك العمال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المنضمون تحت لواء اتحادات نقابات العمال في بريطانيا او اسكندنافيا او الولايات المتحدة ام اولئك العمال الذين تدير امورهم الدولة في روسيا ، لو تساءل المرء ذلك ، لما كان في حاجة الى جهد يبذله كي يجيب نفسه . انهم اولئك الذين في الغرب .

ولا بد من مناقشة موقف المثقفين الفرنسيين بصدد هذا الامر ، فهم شأنهم في كل قضية منقسمون على انفسهم : منهم من يعتبر التحرر النظري والعملي قد تم تحقيقه في الاتحاد السوفياتي ومنهم من يرى غير ذلك .

والى ذلك الذين يقولون :

« ان الاتحاد السوفياتي هو الذي يمثل قضية البروليتاريا العالمية »، نقول :

اذا كان الامر على هذه الصورة فماالذي يمنعكم من الالتحاق بالحزب الشيوعي الفرنسي ؟ ان الانتساب اليه هو ما يتحتم عليكم اذا وددتم ان تكونوا صادقين مع انفسكم .

والى خصومهم الاخرين نقول :

ما دمتم تعتقدون بان الغرب اصلح للبشرية قاطبة ـ ومنها البروليتاريا ـ من الماركسية ، فما الذي يمنعكم من الدفاع عن هذا الغرب ؟.

والى المثقفين الفرنسيين من الطائفتين نوجه هذا السؤال :

ما بالنا نراكم حيارى لا تميلون الى هؤلاء او هؤلاء ممن تعتقدون انهم بجانب الصواب ؟

وكيف يجوز للمثقفين الفرنسيين ، وهم يعيشون في بلد ترتبط مصلحته بمصلحة فلاحيه ، اي الاكثرية من سكانه ، ان يتناسوا هذا الواقع ويحملوا علم البروليتاريا ، بينما يشكل هؤلاء اقلية ضئيلة في البلاد ؟

ونحن اذا اخذنا سارتر وانصاره من الوجوديين الذين يبنون فلسفتهم على ضرورة ضمان كل حرية للاتصال بين الانسان والاخر دون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

النظر الى افكاره ، امكننا القول : ان عطفهم على الشيوعية ينتج عن مصادر ديالكتيكية ، وان كانوا يظلون ينسفون كل المبادىء على اطلاقها عن طريق المرارة التي يبينونها في مضامين تلك المبادىء .

واليك الان ما يقوله كاتب معروف من « المسيحيين التقدميين » . انه يقول :

« مهما كانت نظرتنا مبنية في اساسها على وجهة نظر الكنيسة ، فانه لا مناص لنا من الاعتراف ، (هذا في الوقت الحاضر) بان هنالك امتزاجا عضويا بين الشيوعية وبين الطبقة العاملة . فاذا اردنا ان نكون ذوي اثر في المفهوم العام لمجتمعنا الحاضر فان علينا آن ننظر الى هذه المسألة بما تستحقه من اهمية واعتبار .

اما على ماذا بنى هذا الكاتب العبقري « قوله امتزاج عضوي » فانه لا يرى مناسبا ان يذكر . واما انه لم يرجع الى استقراء التاريخ ، فواضح تماما من طريقة الجزم القطعي الذي يريدان يثبت به فرضياته واستنتاجاته الشخصية .

وملخص القول ، ان التحرر النظري والانعتاقلا يمكن ان يتوفر اكثر مما هو في الوقت الحاضر ، هذا بالنسبة لروسيا بينما هو يسير قدما في غيرها .

البلادة في التحرر

دعنا من آراء المسيحيين التقدميين في فرنسا ، ولنغض الطرف عن اشباههم في المانيا ، ولنعمد الى روسيا نفسها .

لقد قامت ثورة « البروليتاريا » كما يقولون على ايدي فئة من الجنود، انضم اليهم بعض الناقمين من الفلاحين بتأثير الظروف الخاصة بالبلاد . واستولت اجهزة الحزب على الحكم ، فحاولت ان تغير شكل المجتمع . ولذلك عمدت الى اقصاء الطبقة الحاكمة ، واممت المصانع ووسائل الانتاج . ولكن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذه المصانع تحتاج الى خبراء وموظفين لادارتها ، ومعنى هذا ان هنالك « مدراء » لا زالوا ، وان تغيرت نوعيتهم . وينتلو من بقاء هؤلاء انالبروليتاريا الحقيقية ظلت بعيدة عن الحكم ، اي ان الاغراء الذي انساقت بتاثيره قد تبين بعده عن الصواب .

لقد ظلت البروليتاريا هي هي . هذا اذا اردنا التفاؤل فقط ، اما اذا فضلنا ان نذكر الحقيقة فانه يمكن القول : لقد كان للناقمين امل ما ، وقد زال هذا الامل الان . وكان لهم ما يدفعهم الى محاولة تحسين حياتهم ، وقد سدت في وجوههم طرق ذلك في الوقت الحاضر . وكانوا يتحلون ، او القليل منهم ، بصفة الابداع والخلق ، فصارت البلادة هي الصفة المشتركة العامة .

ان البلاد قد اصبحت خاضعة للحزب ، ولكن الحزب فئة يسيرة من البروليتاريا ، فأين اسهام البروليتاريا ككل ؟

هل كل دورهم ان يجتمعوا يوم اول ايار في استعراض في موسكو ؟ او ان واجبهم لا يتعدى ان يظلوا يوعدون برفع مستوى الحياة فيالمستقبل؟

ان ما دفعهم الى بعض المشاركة ، او عدم المعارضة على الاقل ، في تنظيمات العهد الحاضر ، كان حاجتهم الى تغيير ما في الماضي ،فهل حصلوا على هذا التغير ؟ لا أظن الجواب في مصلحتهم هذه المرة .

ان مستوى الحياة في روسيا لم يرتفع بالقدر الذي ارتفع به في بلد رأسمالي كالولايات المتحدة ، هذا مع ان عمال الولايات المتحدة لم يستولوا على الحكم . اما ازدياد الانتاج العام في روسيا فمرده الى اسبا باخرى لا أظنها في مصلحة البروليتاويا بقدر ما هي لمنفعة الجهاز الحاكم فيالبلاد.

وتقوم المشروعات الخماسية والسداسية وغير ذلك في روسيا والصين ولكننا لا نجد لها اثرا يعادل في قيمته ما طبقته الدولة من جرائها من العقوبات . ان اقتصاد الماركسية يقوم على « سنفعل » و« سيكون عندنا ».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذا بينمـا يرى عمال البلاد الصناعية غير الماركسية انه يحق لهم القـول « اننا نفعل » و « لدينا الان » .

ومعنى هذا ان التحرر والانعتاق في البلدان الاخيرة يؤدي الى النشاط والخلق ، بينمـا هو في البلدان الاولى قد ادى الى البلاد والخمول . ومـع النشاط والخلق تظل الحرية تسير امـا مـع البلادة والخمول فتظل العبودية والطغيـان .

ولربما قال قائل : « ولكننا نجد عنـد الماركسييـن استعدادا عظيما للتضحية في سبيل رأيهم » والجواب على ذلك انه من طبيعة المبادىء الثورية ان يكـون بين المنتسبين لها نسبة اكثر من هؤلاء الذين ينكرون ذاتهم ، اكبر منها بيـن اصحاب المبادىء المستقرة الرزينة . والتاريـخ نفسه خير مـا يثبـت ذلـك .

ولا يجوز لنا بطبيعة الحال نسيان تضحيات الاخرين الذين يقفون ضد الماركسيين ، تلـك التضحيات التي يقدمونها في سبيل بقائهم خارج حدود « خيـرات » الماركسيـة .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الثالث

نحنُ والتّاريخ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

التفـاؤل السياسي

اليسار والثورة والبروليتاريا ثلاثة مفاهيم عامة تقابل الان ثلاث فكرات نتجت في السابق بتأثير كثير من العوامل ، وهي التقدم ، والعقل، والشعب.

فاليسار يقوم في منطلق افكاره على نقطة رئيسية يفترضها وان كان لا يملك اي برهـان عليها الا ما يشاء هـو ان يخلق . وهذه النقطة هي : ان العالم يسير في طريق التقدم ، اي ان الفترات التاريخية المتلاحقـة كانت التاليـة منها احسن من سابقتها . واليسار ينظر الى هذا التقدم بشيء مـن خيال التاريخ ، ذلك انه لا يستطيع ان يتجاهل دور اليمين الذي ظل يعارضه وينتصر عليه عبر ما مضى من ازمـان .

والثورة تقوم على اساس فكر جدلي مؤداه ان ما تراه سوءا لا بـد ان يبلـغ مرحلـة يتوجب على الناس فيها ان يتخلصوا منه ، ولذلك فالانتفاض ضد هذا « السوء » حتمي ، وهو الثورة . والثورة لا يمكن الا ان تصل الـى الحكم عن طريق العنف ، وهي تنسى **ان اولئك الثوريين الذين يستفيدون من عمى الناس عن الحقائق ، بحيث يسهل استغلالهم ، سيجدون انفسهم امـام احدى طريقين بعد وصولهم الى الحكم . فهم اما ان يقبلوا بالمصالحة مـع الواقع او انهم يلجأون الى سلوك سبيل الطغيـان .**

والثورة انفجار لحالة الاستقرار التي تسبقها ، ومعنى هذا ان الذي يعتمد « التقدم » المحتوم ، كما يرى اهل « اليسار » لا يكون بلجوئه الـى الثورة الامستبقا لما يحتمه فيمابعد ، اي انه يطلب الاسراع فيما يراه سيلحق فيما بعد . وبغيـة هذا الاسراع تجده يقبل ان يتوصل الى هدفه عن طريق الفوضى وسفك الدمـاء .

والثورة على ما يرون نتيجة لتقدم الفكر ، ولكن اليس هنالك تناقض كبير بين « التقدم » وتحطيم سلسلة ذلك التقدم ؟ ان « العقلاني » يجب ان لا يلجأ الى الثورة على الاطلاق ، لمجرد انه عقلاني بينمـا الثورة لا عقلانية .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولكـن ، مـا بال اليسار يتعامى عن هذا التناقض العجيب ؟

والبروليتاريا هي الطبقة التي اناطوا بهـا في الحاضر مهمة كانـوا ينيطونهـا بالشعب في ما قبل . كانوا يطالبون بحقوق الشعب ضد الحكم الملكي المطلق . وزال ذلك الحكم المطلق . وحسب رأيهم ، بلغ الشعب مبتغاه. والشعب يضم اكثر من طبقة ، فما بالهم يوزعونه الان فيخلقـون هـذه « البروليتاريا » ثم يلقـون اليهـا بمهمة كبيرة هي عاجزة عنها . انهـم يريدونهـا عدوة للجميـع .

كان الشعب في السابق عدوا لنظام حكم « العهد القديم »، امـا « البروليتاريا » الآن فهي عدوة الشعب ، ما عداها هي . وهل يظنون مجرد افتراض او نظرية ، قادرة على ان تهدم مجتمعات ؟ ان هذا عجيب حقا .

وهم حين يتحدثون عن البروليتاريا هذه لا يكادون يصرفون المعنى الا الى اناس يمسك بعضهم بخناق بعضهم الاخر : **انهم يتصورون الحياة ليست اكثر من طوق العبودية الثقيل . وبذلك يجردون الناس من منابع الخير فيهم كما يجردون حتى البروليتاريا نفسها من الانسانية الفريزية التي تميز الانسان عـن غيره من الخليقـة .**

واليسار ، والثورة ، والبروليتاريا ، ثلاث اساطير من نسج خيال القرن التاسع عشر ، وقد شرحنا في مـا تقدم من هذا الكتاب الكثير من المزالـق التي يقع فيهـا المثقفون عامة والفرنسيون على الخصوص، حين يأخـذون يتغنون « بوحدة اليسار » ــ وقد اثبتنا انه لم يتحد على الاطـلاق ــ ، او ضرورة الثورة ــ وقد بينا ان بريطانيا توصلت الى الاهداف المنشودة، دون الحاجة الى اية ثورة ، والبروليتاريا ــ وقد فصلنا ان ما كان يعنيـه دعـاة البروليتاريا هذه لا ينطبق على واقع الحياة عند العمال في القرن العشرين، كأميركـا مثـلا .

لقد اثبت القرن العشرون تعدد الاسباب والظروف التي ربما نظـر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اليساري اليهـا فقال ان البلاد في حاجة الى انفجار الثورة . ليس هذا خطأ، ولكـن الخطأ هـو ان نعزو للثورة ما ليس فيها .

انهم يضفون على الثورة كثيرا من رداء العقلانية والفكر ، ويجللونهابهالة من القداسة تجعلها ذات بهرج ينخدع به الكثيرون في حين ان الثورة تخالف كـل ذلـك .

واظن كل من يدرس التاريخ بوعي يستطيعان يتوصل الى الاستنتاج التالـي :

انه لم يسبق في التاريخ ان يعود شعب الى جادة الاتزان والسلام بعد ان يقوم بانفجار ثوري خطير . ذلك ان كفة الايجابيـة نحو حياة سلمية في ذلـك الشعب تظـل تتضاءل .

ذلك ان الاستقرار والسلام ايجابي ، اما كسره او تشويهه فهو سلبي تماما . ولا يمكن للثورة الا ان تسير في طريق السلبية بالنسبة الى الاستقرار ومعنى هذا ان تلـك الثورة التي اخطأ اصحابها فظنوا انهم يتوصلون عـن طريقهـا الى الاستقرار من جديد ، تظل تبتعد عن هدفهم .

اليس هذا تناقضا ذاتيا فيهـا ؟

والبروليتاريا ، انها لا تستطيع ان تقدم للمجتمع وتطوره شيئا ،(ذلك كمـا يرونها هم) ، بل تظل تتطلب الكثير ثم الكثير .

ربما كانت مطالبها كثيرة في القرن التاسع عشر ، هـذا صحيح . والسبب في صحته نشوء النظام الصناعي في ذلك القرن وما رافقه مـن مظالم وشرور ، تعود الى ان النظام السياسي العام لم يستطع ان يرتقي بنفس النسبة التي ارتقت فيها الآلة .

ولكن هذا غير صحيح في القرن العشرين . واعني بكلمة « هذا » ان مطالب البروليتاريا في الوقت الحاضر اصبحت قليلة ، لان معظمها قد تحقق. وكان الفضل في تحقيقه الى الازدهار الصناعي في الغرب ، ذلك الازدهار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الذي رافقه الارتقاء السياسي ايضا .

كانت « البروليتاريا » ــ في رأي القرن التاسع عشر ــ تطالب بحق التصويت بشكل رئيسي ، وقد تم توفير ذلك الحق في الوقت الحاضر . **وصار الجدير بـ « البروليتاريا » ان تطالب بحق التصويت ضد عبيد الآلة، عبيد الثورة نفسها .**

وهذا ما يجعلنا نحكم بانه ليست صفة حسنة في اي نظام ان يقوم على الايديولوجية الماركسية .

الا انه قد تعمدت تلك الايديولوجية باسم البروليتاريا على كل حال، وكان هذا احد اخطاء المثقفين .

واصل هذا الخطأ ، كما هي الحال مع كثير من الاخطاء ، تلك النظرة الخيالية التي لعبت برؤوس المثقفين عن ضرورة حتمية التقدم . وان هذا التقدم سريع . وان هذه السرعة منوطة باليسار .

انهم لا يدرون بذلك انهم ينظرون بتفاؤل الى خير ينتج من مأساة !

ولاشرح هذا قائلا : لنفرض ان التقدم صحيح ، وان كان لنا تحفظات كثيرة بهذا الصدد ، فعلى اي اساس بنوا انه سريع ؟ وادهى من ذلك لماذا ربطوه باليسار يا ترى ؟

انه خير ان يحدث التقدم ، ولكن لماذا جعلوه مرتبطا بالثورة ؟ اليست الثورة مأساة ؟ وكيف يجوز ان تخرج المأساة خيرا ؟

الا يدرون ان المأساة تفرض حلولا هي مأساة أيضا ؟ اليس حل المشاكل بالطرق القسرية حلا يناقض طبيعة التقدم ذاته ؟

والثورة حرب ، فكيف تستطيع الحرب ان تهب الانسانية خلاصا ؟

ولنعد الى فلسفة الفيلسوف الالماني هيجل . ذلك المفكر الذي بنى عليه كبارهم ، (واعني اليساريين) كثيرا من آرائهم ، وان كانوا فيما بعد قد نسبوا اليه انه جعل الفلسفة تسير على رأسها . انه يرى ان روح الحضارة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

تنتقل من امة الى امة . ويشرح ذلك بمعنى المانيا ثم فرنسا ثم روسيا اخيرا، اي المانيا في القرن السادس عشر ، وكانت اقطاعية فيها بذور العقلانية، ثم فرنسا في القرن الثامن عشر ، وهي فرنسا البرجوازية ، واخيرا روسيا في القرن العشرين ، وهي روسيا الاشتراكية .

ولكن فلسفة هيجل ترفض ان تضع اي مجتمع فوق القانون . كما ترفض ان تمنحه اي محتوى او فضيلة سياسية او معنوية . وهم يتناسون هذا .

واذا كان الفيلسوف يرفض ان يكون المجتمع الذي هو شعب بكامله فوق القانون ، فان الطبقة ، وهي جزء من الشعب احرى بها الا تكون فوق القانون . ولكن اصحاب هذا الرأي يصرّون على ان يفترضوا ما يشاؤون ، معتمدين في ذلك على ما يسمونه « التفاؤل التاريخي » . فهل هذاالتفاؤل مقصورا عليهم ؟ الا يحق للذين يدعون الى التقدم التدريجي ، وهو تقدم يرافقه الاستقرار ان يتفاءلوا ايضا ؟ وفي هذه الحالة يكون التفاؤل حقيقيا كما انه لا يجانب الواقع. ولكن ما هي ماهيته في هذه الحال ؟

ان ماهية التفاؤل تكون بالانتصار على ذوي الافكار اللامنطقية من الخصوم .

ووجود الدول وبقاؤها يكون دائما مهددا بالفوضى الداخلية اوالاعتداء الخارجي. اما الاعتداء الخارجي فليس موضوعه هنا ، واما الفوضى الداخلية فهي عينها ما يريده اولئك الذين يفرضون التفاؤل التاريخي لمصلحتهم وعلى الطريقة التي يريدونه بها فقط .

وعلى العكس مما يراه هؤلاء ، نجد ان السياسي الواعي ينظر الى التاريخ نظرة تشاؤمية . وهو يقول :

اذا ارادت دولة ان تحافظ على سلامتها فانه يتوجب عليها ان تمتلك من القوة ما يمنع عنها كل اعتداء ، هذا في الخارج ، اما اذا ارادت ان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURANIC THOUGHT

تكـون قوية من الداخل فانهـا يجب أن تكـون مستقرة مركزة .

وليست القوة لضمـان صد الاعتداء الخارجي ، ولا التركيـز والاستقرار الداخلي ، ليس اي من هذين هو الهدف الموضوعي للسياسة. اذن مـا هـو ؟ انـه :

لما كـان الانسان كائنا اخلاقيا فـان مقدار صلاح مجتمع او فساده يقاس بالفرصة التي يسمح بها ذلك المجتمع لكل فرد من افراده أن يشارك في تشكيله وترقيته بصورة تناسب جميع الافراد .

وهذا يناقض الطبيعة القسرية التي تلجأ اليها القلة حيـن تحـاول ازالـة نظام معيـن .

وربما قال بعض الناس : لقد انتصر اليسـار ونالت البروليتاريا فوزها . ولكن أي نصر هـذا واي فوز تلاه ؟! ان البروليتاريا حين تجيء تخلق لنفسها مشاكل عويصة بحيث تقف امامها عاجزة عن الصمود . انها تحطم السلطات المحلية للمجتمعات الصغيرة على أمل أن تقيم مجتمعا اكبر، ولكن مشاكل المجتمع الاكبر بطبيعتها تكون أعسر حلا ، واكثر تشابكا . اما أول هذه المشاكل فهو قضية الامتيازات نفسها ، فما كان للارستقراطية او البرجوازية في السابق يصير لآخرين جدد . ومن شأن هذا وحده ان يعقد المشكلة لا ان يخفف من استعصائها .

ولألخص هذا الفصل بالقول :

ان تلك الخرافات ، أو الاساطير الثلاث التي يطلقون عليها أسماء اليسار ، والثورة ، والبروليتاريا ، قد اثبتت فشلها ، سواء من ناحية الاخفاقات المتكررة التي رافقتها او حتى من ناحية النجاحات التي تزعمها .

لقد وقف اليسار ضد « النظام القديم » طلبا للحرية ، وكانت النتيجة هي « الثورة الفرنسية » ، وما اكثر الحرية التي تحققت بموجبها ! انهـا حرية المقصلة والارهاب !!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد قام اليسار على أساس من نظرة التفاؤل في التقدم ، وقد زالت فكرة تقدم التاريخ في خط مستقيم في الوقت الحاضر . واحتل مكانهـا نظرة جديدة اخرى هي النظرة القائلة بضرورة الاتزان بين قوى الابداع وقوى التخطيط .

ومن شأن هذه النظرة الجديدة ان تضمن حقوق الفرد ضـد نفـوذ البيروقراطية ، كما ان من شأنها أن تضمن له حرية استعمال مواهبه والتمتع بحرياتـه .

أما بشأن الثورة ، فهي خلف المستوى الذي وصله الغرب لا قدّامه . ومعنى هذا ان المستوى الذي تطمح الثورة الى الوصول اليه قد اصبح متخلفا عما بلغه الغرب بالفعل . ان الثورة تقوم بغية زيادة تسارع الانتاج ، وقـد تسارع الانتاج في نصف القرن الاخير بشكل موفور جعل الولايات المتحدة تحقق اكثر مما تتطلبه الدعاية السوفياتية . ان الروس لا يزالون يشحذون همم شعبهم للوصول الى غاية سبق للولايات المتحدة ان بلغتها ، وعن غيـر طريق الثورة ، ودون الحاجة الى أخطاء .

ولا حاجة الى القول بأن الولايات المتحدة لا تمثل اليسار . اذن فكيف يتسنى لها ذلك ؟ الامر بسيط ، فاليمين واليسار في الـولايات المتحدة يسيران في خط واقعي ، ولذلك تتقدم البلاد . بخلاف فرنسا التي لـم يستقر اليسار فيها على جادة الصواب ، كما لم يستقر اليمين ايضا .

ويرجع مقدار كبير من هذه الخطيئة الى الافيون الذي يظل المثقفـون يستنشقونه دون ان يحاولوا تشريح قوى هذا الافيون .

والحق ان ما تم التحقق من خطأه في الولايات المتحدة ، وأعني بـه انخداع المثقفين ، وما لا يزال موضع أخذ ورد فـي فرنسا ، هو ما لا يزال قوي المفعول في آسيا . ان تلك الخرافات الثـلاث التي أشرت اليها آنفا لا تزال تخدّر الكثير من المثقفين في تلك القـارة الكبيرة . اما السبب في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ذلك فهو أن هؤلاء المثقفين يخلطون بين الاحلام التي يريدونهـا ان تتحقق ، وبين الواقع الذي تقع عليه عيـــونهم أينما ساروا في بلادهم . وينتج من ذلك التناقض أن يأخذ هؤلاء المثقفون يرسمون أحلاما جديدة اكثر بهـــاء من سابقتها .

معنى التاريخ

هنالك خطآن كبيران متناقضان ولكنهما متلازمان هما السبب في تأليه التاريخ واتخاذه صنما . ومصدر هذين الخطأين واحد فقط ، هو الانزلاق نحو الاقرار بمبدأ « الاطلاق » ثم الابتعاد عن ذلك الى « النسبية » . فعلماء اللاهوت يضعون نصب أعينهم لحظة واحدة يعينون صفاتها العامة ويقولون انها مملكة الله . وطبيعي ما دامت منسوبة الى الله ان تكون عدالة محضا ، أي أن يتساوى الخلق امام باريهم ، ويكون المجتمع متكاملا في افراده كما انه كامل في مجموعه . ولكنهم (أي العلماء) بعد ان يفرضـــوا تلك اللحظة ، يرجعون الى واقع الحياة الحاضرة فيجعلون يقيسونها على أساس نسبتهـا من مملكة الله العادلة او ابتعادها عنها . وحين تصدمهم شرور الواقع يقعون في الفوضى ، فيتطلعون الى هذه الشرور بعين القاضي المنصف الـــذي لا تأخذه المحاباة .

ان التاريخ ، كما مارسه الانسان ، يظـــل يخلق تناحرا بين الافراد والاسر ، بل والامم بكاملها ، حول فكرة ما . فهذه الامة مع تلك الفكرة وتلك الامة ضدها . وما دامت حركة التاريخ متساوقة مستمرة لا تنقطع ، فانه يغدو من غير الحكمـة في المؤرخ الحق ان يحكم لهذه الفكـرة او ضدها . ليس هذا لاننا ، كبشر ، عاجزين عن التمييز بين الصالح والطالح ، وبيـن الخير والشر ، كلا ، وانما لسبب جوهري آخر . وهو اننا قاصرون عـن علم الغيب ومعرفة المستقبل . ومن شأن هذا القصور أن يجعلنا أعجز من الحكم على المستقبل ذاته .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

لقد كان الصليبيون مثلا يبررون مسلكهم بأنهم يسعون الى غاية نبيلة في نظرهم ، ولا مانع لديهم في ان يلجأوا الى التعصب المقيت ونشر الرعب في قلوب البلاد التي كانوا سيهاجمونها . وينطبق هذا المثل على غيرهم في الوقت الحاضر ، **فالصليبيون الاجتماعيون يحملون غاية يريدون تحقيقها ، ولا يهتمون بعد ذلك بالوسيلة . والواحد منهم يفسر سلوك غيره حسب وجهة نظره هو ، وعلى التدقيق حسب ما يقول بأنه معنى التاريخ . ومن الطبيعي في تلك الحال ان يلجأ خصومه الفكريون الى طريقته ذاتها .**

اذ انه لما كان يريد ان يحتكر حق تفسير التاريخ فان خصومه يريدون أن يمنعوه من ذلك الحق . ومعنى هذا ان الاول يسير حسب قانون « الاطلاق » ، أو ما يدعوه هو بالحتمية ، وكذلك الثاني يسير حسب رأيه في تلك الحتمية ، وان كان سير هذا الاخير في اتجاه معاكس لسير زميله الاول ، أي ان هنالك حتميتين متناقضتين ، ولكنهما تولدتا من نفس السبب الذي هو « الاطلاق » .

ونحن نرى ان التاريخ ليس أعمى ، ولا أحمق يتخبط على غير هدى . ان له معنى ، ولكن الانسان عاجز عن فهم ذلك المعنى .

جماعية المعاني

ان تصرفات الكائن الانساني قابلة للفهم ، أي انها ذات معنى . فاذا كان هنالك فرد لا يهدف الى أي معنى من تصرفاته ، عدّه الناس مجنونا ، وبذلك أبعدوه عن نطاق انه منهم ، واعتبروه فرعا غريبا بينهم .

وليس هذا يعني ان كل فرد يفهم تصرفات كل فرد آخر ، اذ لو كان ذلك لكانت الحياة على غير هذه الصورة الحاضرة ، وانما يعني ان التصرفات في مجملها مفهومة لدى العقل العام عند الناس .

لماذا اجتاز يوليوس قيصر نهر روبيكون ؟ ولماذا سحب نابليون جناح الجيش الايمن في معركة استرلتز ؟ ولماذا هاجم هتلر روسيا سنة ١٩٤١ ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولماذا أخذ رجل المال الحصيف يبيع ما لديه من فرنكات بعد سنة ١٩٣٦ ؟

في كل قضية من القضايا التي تبحثها الاسئلة السابقة تكون الاجابة بدرس الظروف العامة التي رافقت الحادث ، ثم استبانة الهدف الذي من أجله تم وقوع ذلك الحادث . فنقول :

لقد اجتاز يوليوس قيصر نهر روبيكون ليستولي لنفسه على السلطة في روما . وسحب نابليون جناح جيشه ليخدع الالمان ثم يهزمهم فيما بعد. وهاجم هتلر روسيا ليدمر النظام القائم فيها ، وغير ذلك . ونقول ايضا : كان قيصر يطمح في الدكتاتورية على روما ، وكان كل من نابليون وهتلر ينشدان النصر ، اما رجل المال فكان يطمع ان يربح من بيع فرنكاته كثيرا .

وحتى لو كان قد تم تحديد هدف ما من اجراء ما ، فان تفسير ذلك التحديد يظل يحتمل الخطأ والصواب فيما يتعلق بالوسيلة . أي أنه ، ربما كان قيصر قد حدد لنفسه الهدف بكل وضوح ، ولكن يظل عليه تحديد الوسيلة المناسبة لايصاله الى ذلك الهدف .

فقيصر مثلا قد أختار ان تكون الوسيلة هي الجيش الروماني ، ونابليون اختار الخدعة والتظاهر بالضعف . والظروف الموضوعية وحدها ، والتي لا تبين الا بعد عصر على الاقل ، هي التي تجعلنا نحكم فيما اذا كان أي من يوليوس قيصر ونابليون قد أصابا في انتقاء وسيلتهما او لم يفعلا .

والبحث الذي يستوجبه مثل ذلك الحكم يسير في اتجاهات ثلاثة :

١ ــ ان تحديد الغاية والوسيلة يضطر المؤرخ الى الرجوع الى المجتمع الذي اتخذ فيه القرار . وكل خطوة خطاها قيصر كانت الصرخة التي بدا ان روما تصيح بها طالبة النظام الجمهوري . وكل ما فعله نابوليون في استرلتز كان حدثا يعتبر مقدمة لنتائج جديدة ستولدها الثورة الفرنسية .

٢ ــ ان تحديد القيم ضروري جداً لفهم سلوك الانسان وتصرفاته ، ذلك أن سلوك الانسان بطبيعته ليس جماعيا على الاطلاق . فالتأملات العقلانية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

عند الفرد ليست الا ممثلة لنشاطات وابداعات ، تختلف كثرة وقلة حسب المدنيات المختلفة ، ولكنها تظل جميعا تنبع من مفهوم الفرد عن حياة افضل من واقعه . فالرجل الذي يمتهن الحرب مثلا ، يصور كفة من ميزان الحياة الكبير ، اما النظام ، اي نظام حياتي ، فانه يمثـــل الميزان بكامله . وليس هنالك مجتمع انقص من القيم الى درجة منحطة . ولم يسبق في التاريخ ان صار معيار حياة الناس هو المال وحده .

٣ ـ نحن نعتبر الامر لا يتعدى مضيعـــــة للوقت حين نحاول بحث الظروف الموضوعية التي ادت الى انتصار نابوليون فيإسترلتز ، ولكننا نهتم كثيرا في التنقيب عن كل صغيرة وكبيرة ساهمت في هزيمة نابوليون فـي واترلو او رجوعه من على ابواب موسكو ، ثم نجمل ما نتوصل اليه بقولنـا انه المرض الذي تفشى بين الجنود ، والارهاق الذي عانوه من شتاء روسيا، او استمرار المناوشات قبل واترلو .

والمرءحين يبحث شيئا من هذا القبيل تجده يتطوع باغفال الافعـــال الشخصية التطوعية التي يقوم بها فرد او مجموعة من الافراد بتأثير فكرة ما، او مبدأ معين .

هذه هي الابعاد الثلاثة التي تتطلبها قضية الحكم على واقعة ما . وكما ترى فان المؤرخ يبالغ في الاهتمام بالبعد الاول ، بينما نجد عالم الاجتمـاع يأخذ النقطة الثانية في مختبره التشريحي . اما عالم الانتروبولوجي فيكون نصيبه النقطة الثالثة .

وعلى المؤرخ ان يحرر نفسه من كل ما يشدّه الى عصره هو منعلاقات وارتباطات ، من مفاهيم سائدة ، وقيم متعارف عليها ، ودراسات أثنـــاء شبابه ، وعواطف شخصية تتحكم في افكاره . ان عليه ان يتجرد من كـل هذا ليسعى سعيا موضوعيا نحو استجلاء الحقائق والاصابة في تقديرها . ولكن مؤرخنا الطيب لا يستطيع الا ان يظل بينه وبين موضوعه نوع مـــن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الارتباط . أليس كل منهما كائنا حيا ؟ أليسا بشرا ؟ اذن فهنالك معنى دقيق هو « مسير الانسانية » يظل يربط ما بينهما . وحين ينقطع هذا الرابط يصبح التاريخ غير ذي معنى على الاطلاق .

ويتم البحث عن المعنى الدقيق بمحاولة التحليل المخلص للمركبات المعنوية للمجتمع البشري ، وفئاته ، ومواقفه الرئيسية ، والقيم التي كان يعتنقها . ونحن نجد كل هذا بالملاحظة في حال كون الحادث الذي نبحثه حاضرا ، أي معاصرا لنا ، ونستخرجه من بطون شهود العيان او المؤرخين فيما يتعلق بالاحداث الماضية .

ومن جراء هذا الواقع تنتج معنا أبعاد متعددة على المؤرخ ان يسبر غورها حين يبحث قضية في الماضي . وهذا امر عسير لا يحتاج تبيان تعقيده الى برهان . الا ان شدة العسر هذه لا تدل على ان العمل مستحيل . والواقع غني أكثر مما يتصور أي انسان . ففي كل فرد منا ، أنا وأنت ، ومن سبقونا ، ومن سيلحقون بنا ، في كل فرد في أي مجتمع يقوم الجنس البشري بكامله . وفي حال ذلك الفرد تنطوي احوال جميع البشرية .

ولربما انه لو تم لنا ان نفقه حقيقة مجتمع واحد فهما سليما لكان بوسعنا أن نفهم كل المجتمعات . وعلى ضوء تحليل دقيق وشامل لحملة حربية واحدة ربما تمكن عبقري عسكري ان يضع خطوط الاستراتيجية الحربية بكاملها . وبفضل دراسة وحدة سياسية واحدة ربما تم الكشف عن المبادىء الرئيسية في كل الدساتير . ولكن هذه الـ « ربما » هي المشكلة أولا واخيرا . اذ انه من المشكوك فيه ، (وهذا دون «ربما») أن يستطيع أحد اطلاقا ، فهم أعز الاشياء لديه او اقربها منه .

وهنالك جماعية ايضا في كل بعد من الثلاثة الرئيسية ، والعشرات الفرعية النابعة منها . وليس لاي من هذه الابعاد ــ قاطبة ــ أية حدود متميزة ، فهي تتداخل بحيث تجعل من المستحيل الانتفاع بواحد دون الآخر .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

أي انها تجعل من المستحيل ان يجرّد الباحث سببا معينا يعزو اليه اي شيء معين .

واليك هذا المثل :

لقد قرر هتلر الهجوم على روسيا سنة ١٩٤٠ وفي نيته امران :

١ ــ ان يقهر الجيش الروسي قبل ان تصبح بريطانيا على استعداد لانزال جنودها في فرنسا فتهاجمه من هناك .

٢ ــ وكي يزيل النظام الروسي ، وبذلك يجعل « السلاف » عرقا واطئا في نظر الالمان .

وهذا « الهدف » ، اي الثاني ، يرجع في أصوله الى ثقافة هتلر والطريقة التي اثرت فيه اثناء تربيته ايام حداثته . فقد كان درس انهنالك عداوة تقليدية بين السلاف والتيوتون .

وهكذا ترى اننا حين بحثنا قرار هتلر سنة ١٩٤٠ عدنا الى حداثته التي أوصلتنا الى عداوة طالت عليها القرون . وحينئذ لا نستطيع ان نمسك انفسنا عن العودة بافكارنا الى حرب (فرنسا ــ المانيا) سنة ١٩٣٩ ، ثم الى معاهدة فردان ، ثم الى الامبراطورية الرومانية المقدسة . وتدفعنا كلمة « رومانية » الى « الممالك الفالية ــ الرومانية » . ومن هنا ننطلق الى عهد الامبراطورية الرومانية من ايام يوليوس قيصر فاتح « غاليا » او بلاد «الغال» الى أيام نشوء روما ، وأسطورة ريموس وروميلوس .

ولا نقف عند روما وامبراطوريتها ، اذ اننا نقفز الى تاريخ الاغريق ، فتثب لنا علاقتهم بالفرس والمصريين القدماء والحثيين والسومريين ... والى اول التاريخ ، ثم لنشوء الجنس البشري ، وأصول تطور الخليقة ... وتكوّن الارض ، ونظريات السدم .. وابعد وابعد .

والآن : كنا نبحث قرار هتلر سنة ١٩٤٠ ، فانتهينا بأصل المجموعة الشمسية .. أليس هذا دليلا كافيا على الترابط الذي لا ينفصم ؟ انحادثة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

واحدة او نصا واحدا في معاهدة تاريخية تكون ذات معان متشعبة ، اي انها تنطوي على جماعية لا اول لها ولا آخر .

والمثل بسيط على ذلك ، فان من يوقعون تلك المعاهدة ليسوا هم الذين ينفذونها . واولئك الذين ينفذونها غير اولئك الذين يجري تنفيذها عليهم ، والاشخاص الذين يجري تنفيذها عليهم غير من سيولدون .. الى آخر العصور .

وليس هذا التشعب المتشابك مما يعني بأن الحادثة التاريخية لا معنى لها ، اي انها غير هادفة . كلا . وانما يعني اننا نحن عاجزون عن استبانة ذلك الهدف مع انه موجود قطعا .

وهنالك من يتصورون ان للحادثة التاريخية شكلا ومضمونا . وليس هناك ما هو ابعد من هذا عن الصواب . فمعركة استرلتز بجميع ما تم فيها من افعال ، وحدة واحدة في حملة سنة ١٨٠٥ وحروب نابليون . واذا اخذنا بهذا المفهوم صارت عندنا فردية محددة لكل حادث ، وهذا غير واقع البتة .

فكلما تزايدت الاحداث ، تشابكت تلك الاحداث . وكلما تشابكت اصبحت طبيعة الواحد منها (اي الاحداث) اشد غموضا . وهي في ذلك تشبه عمل الجندي في المعركة . فالجندي فرد من فصيلة ، والفصيلة قسم من جيش .

والجندي يخضع في عمله الفردي الى « شكل تنظيم وحدته » الحربية ، وضبطها وربطها ، والى خطة القائد المسؤول اولا واخيرا . وتكون افعال الجندي الفردية نتيجة تتأتى من تفاعل عدة عوامل « متناقضة » : فالقائد يريد ان يكسب النصر ، فهو يحرك جيشه حركة جماعية ، اي دون النظر الى فردانية الجندي . والعدو يريد ان يدافع عن نفسه ويهدف الى التخلص من الجندي الخصم . والجندي نفسه يريد ان ينفذ للقائد مأربه ويحفظ لنفسه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحياة ، ذلك الذي لا يكون الا بقتل الخصم او التخلص من قدرته على الاقل.

اما بصدد « شكل تنظيم الوحدة » فان هذا امر يعود الى قواعد وقوانين محددة تنبع بدورها من الاقتناع بآراء وافكار معينة بهذا الخصوص. واما بخصوص كونها « متناقضة » فليس هذا يعني ان التناقض ينتهي بالمقارعة بالسيوف او اطلاق الرصاص ، بل انه يشمل مجالا اوسع بكثير . وهو في اصله شكل من اشكال المنافسة بين الافراد او المجموعات حول اي منهم او منها يجب أن يشغل هذا الحيز او ذاك في التاريخ . اي انه محاولة فرض وضع خاص عن طريق قوة السلاح .

ولو رجعنا الى ما وراء هذه المنافسة من جذور فكرية لوجدناه فلسفيا، فهو استنتاج يراد له ان يبتر او يستفيض . اي انه اما أن تأخذه عند مرحلة معينة او تدعه يسير حتى يبلغ المراحل التي تليها . وهنا يقع الفرق بين الفلسفة وعلم الاجتماع . فالفيلسوف يود الوصول الى حقيقة ما بعد ان يمهد لها بمراحل يظنها تكفيه ، اما عالم الاجتماع فانه يسير ويظل يسير مع سير المراحل نفسها . ولكن حقيقة هذا التمييز لا تتضح الا لمن يودون النفاذ الى جوهر القضية أي الذين يجردون من انفسهم قضاة على الحياة نفسها . وما اقل ما يتوافر امثال هؤلاء .

لقد اصبح جليا الان انه لم يكن هنالك في عصور التاريخ اي فيلسوف « روحاني صرف » اي انه منقطع غير متأثر بعصره وظروف معيشته .وعلى هذا الاساس يكون من غير الحكمة ان نعتبر ما قبل الفلسفة المادية ، فلسفة ميتافيزيقية . وكذلك ، ليس هنالك ولا يمكن ان يكون ، فيلسوف «مادي صرف » ، اي انه منقطع غير متأثر بالافكار الميتافيزيقية المسايرة .

والقصد من هذا القول ابطال ذلك التصنيف الذي يريد « بعض الناس» ان يجعلوه اساسا لحياة الانسان . هذا اولا ، اما القصد ثانيا فهو ،اثبات ان المادية والميتافيزيقية موجودتان في كل من الاثنتين . وبهذا يتم تثبيت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

جماعية المعاني ، فليس هنالك شيء نوعي واخر تجريبي ، ان كليهما شيء واحد . هذا هو التفسير الاخير للتاريخ . ومنه نستدل على معناه . فهو ليس بـ « النسبية » كما انه ليس « اطلاقيا قواعديا » .

الوحدات التاريخية

تقوم فلسفة التاريخ على قاعدة ان علم التاريخ ليس مجموعة مركومة من الحقائق ، والقرارات الفردية ، والافكار ، والمصالح ، والمؤسسات ، بل انه كل متحرك واحد الى درجة ارقى يتضح فيها معنى ما .

ومن هذه القاعدة تبرز حقيقة جوهرية هي انه : مهما تناقضت المجتمعات او الافعال الفردية ، فانها تظل ضمن نطاق كل جامع واحد . هل هذا صحيح يا ترى ؟ دعنا نبحث الامر .

ان التفريق بين الحقائق الاقتصادية والاخرى السياسية والثالثة الدينية هو من نتاج عقول العلماء لا اكثر ، وقد خلقوه تسهيلا للبحث وتوزيع الجهد .

واول ما يشده الباحث غير المغرض حين يعمد الى بحث مثل هذه الامور هو ما يجده من ترابط وثيق وتداخل قوي بين المجالات المختلفة ، الواحد منها مع الاخر . فها هو المؤرخ يبدأ علمه بالكلام عن « جماعيات » ، كحالة الملكية ، والعلاقات بين الناس . وهذا بطبيعة الحال يدخل تحت علم الاقتصاد وعلم الاجتماع . وهو ليس مقصورا على هذين العلمين ، بل انه ينفذ الى الدين ايضا كما ينفذ الى السياسة التي تختص ببحث الدولة لسن القوانين وضمان تطبيقها بين الناس . وهكذا ، كما رايت هنالك ترابط .

والرجل الذي يشتري ويبيع ، ويحرث الارض ، ويتداول بالماكينات ، يظل في القعر ، اما الذي يؤمن فانه يفكر ثم يصلي . ولكن هذين الرجلين غير منفصلين الواحد منهما عن الاخر ، اذ يستحيل ان يكون هنالك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مجتمع دون هذا الصنف والصنف الاخر . وحتى في المجتمعات البدائية الاولى يستحيل على المرء ان يقول ان هذه الطريقة الخاصة من الفكر او العمل نتجت عن كذا ـ وينطبق هذا بدوره حتى على « حياة الانسان » نفسها . ذلك انه ليس في الوجود شيء حدوده متميزة تماما عن شيء اخر ان في الاشياء جماعية عجيبة .

ولننتقل من هذا الموضوع الى اخر يليه فنقول .

فيما يتعلق بنظرية المعرفة يكون الفرض غير معقول اذا تضمن القول بان الاقتصاد هو الذي يقرر شكل السياسة والمعتقدات دون ان يتأثربدوره بهما . ذلك ان هذا الفرض يكون متناقض المعنى . فالحقائق الاقتصادية لا يمكن عزلها عن غيرها (كما اسلفنا) . انها تجسد وسائل الانتاج، اي انها تضم العلوم والتكنولوجيا ، وعلاقات الانتاج ، وقوانين الملكية ، والفوارق الطبقية ايضا ، (تلك الفوارق التي تتحكم بها ضخامة عددالسكان او عدم ضخامتها) . ومن شأن كل هذا ان يجعل الحقائق الاقتصادية نفسها تتأثر به كل التأثر . ولذلك فانه غير صواب ان تأتي بافكار فلسفية تقوم على التمييز بين البناء التحتي والبناء الفوقي للمجتمع . واذا جئنا بمثل هذه الافكار فان جميع ما نشتقه منها يكون غير سليم ايضا.

والان ، اليس هذا ما تقوم عليه نظرية القائلين بالطبقات ، وتحديد معنى التاريخ ، وفصل المادة عن الروح ؟

كيف يجوز ان نسلم بـ « ان العالم الذي يكوّنه المرء لنفسه يتبع عمل ذلك المرء » على انها بديهية لا تحتاج الى برهان ؟ وكيف ننسى ان نقول «ان العمل نفسه يتأثر بذلك العالم » ؟

لكي يستطيع الفرد او الجماعة الحياة ، عليه او عليها ان يناضل ضد الطبيعة حتى ياخذ قوته منها . ومن جراء هذا يصبح للنظرة الاقتصاديةبعض الاولوية . ولكن ، حتى المجتمعات البدائية المفرقة في القدم لم تستطع ان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

تتكون وتسير الا بعد قبول بعض افكار اخرى ، فكيف يجوز ان نعتبر النظرة الاقتصادية وحدها هي الدافع ؟ كيف يحق لنـا ان نعتبرها الحافز الاول ؟

ما هي اهمية الاولوية في هذه الحال ؟ وما هي المجالات المشتركة بين مختلف المجتمعات التي بلغت قدرا معينا من النضج الاقتصادي ـ التكنيكي؟ وما هي الفروق التي نتجت بين تلك المجتمعات بعد ان تم التوصل الـى اكتشاف قوة البخار مثلا ، او الكهرباء او الطاقة الذرية ؟

ان هذه القضايا من شأن علم الاجتماع وليست من اختصاص الفلسفة. فاننا نظل في تيه متشعب لا خروج منه ، ولا فائدة من البقاء فيه .

وعلى كل حال ، فليس هنالك دليل كاف على ان العنصر الاقتصادي في الحياة هو الذي يطغى من حيث اهميته على بقية العناصر الاخرى . وليس هنالك دليل على ان الاقتصاد هو الحافز المسيطر في مختلف عصور التاريخ. وها هو الفيلسوف ماكس شيلر يقول انه « الدم » الذي يسيطر ، ثم يتلوه عنصر « القوة » ثم عامل « الاقتصاد » . وهو يقسم التاريخ البشري الـى ثلاثة انهر ، نهر القرابة ، ونهر القوة ، ونهر العمل . والقرابة في الدم (وهي اصل العرقية) ، هي التي كانت تمسك المجتمعات الصغيرة كما يفعل الطين بين مداميك البناء . وكان ذلك قبل ظهور الدول والامبراطوريات. وكانت السياسة في ذلـك العصر هي التي تسير الاقتصاد .

وقد تلا ذلك « عصر القوة » حيث ما هو الا عبارة عن تسيير عامـل القرابة والدم ، ولكـن مع الارتباط بالمكان . وهذا هو عهد الامبراطوريات. وفي هذا العصر تزايد نفوذ الاقتصاد من جراء الرقي التكنيكي الذي رافقه.

والنظريات المتعلقة بمقدار فعاليـة مختلف العوامل في التاريخ تقودنا الى نتائج غامضة يندر ان تتم البرهنة عليها ، ويتعذر ان تكون شاملة شمولا حقيقيـا لاوجه تعقيدات العلاقات .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وليس هنالك ظاهرة ما يمكن القول بانها هي السبب في خلق بناءمجتمع محدد ، او الابقاء عليه .

وليس هنالك مفكر يستطيع ان ينكر ان اختراع الآلة البخارية ، او الآلات الكهربائية او تلك التي تسير بالطاقة الذرية قد تـــرك اثرا في ادب عصرهـا ، وحتى في الرسم في ذلك العصر . ولكنه ايضا ليس هنالك مـن مفكر يستطيع ان يرد اصول الادب الى اي من هذه المخترعات ، او يقـول بأن هذا الطراز من الادب نشأ من كذا آلة او اختراع . وكذلك فيما يتعلـق بقوانيـن الملكية او وسائل توزيع الانتاج وخلق الطبقاتاو التمييز بينها .

وملخص القول : ان الحياة بكاملها كل واحد يتفاعل وينفعل ويتركل عامل فيه له اثرا ، والمجتمع يعبر عن نفسه بالادب تمامـا كما يعبر عن نفسه بالانتاج . ومعنى هذا ان الادب والانتاج يتفاعلان ، ويتساوقان ، ولكن كـلا منهمـا ليس مجردا متميزا عـن الاخر ، فكلاهمـا مجالان من نشاط الحياة، والواحد منهمـا بالنسبة اليه جزء من كل . وفي هذا الجـزء روح الكـل وطبيعتـه .

واظنني في غير حاجة الى القول بأن ما اعنيه بكلمة « ادب » هنا هـو غير ما اصطلح عليه رجال الادب ، من شعر ونثر ومقالة . انني اعني بالادب « جماع الفكر » ،او ما يطلق عليه « الثقافة » في العادة ، ولكن بمعنى واسع يشمل جميع المجـالات .

وليس هنالك من ينكر قيام دول قومية في اوروبا ، ولكن هذه القومية نفسهـا غامضة الحدود . فسواء في بريطانيا العظمى او فرنسا او اسبانيا نرى هذه القومية غير متكاملة . صحيح ان اللغة والتاريخ والتقاليد العامـة الشائعة في اي منها ذات اثر في تحديد المجتمع . ولكن حتى من هذهالناحية يظل هنالك غموض كبير . فاذا تدارسنا تواريخ هذه الـدول في القـرن العشرين مثلا نرانا نقع بوضوح على امثلـة عديدة كـان واقع الدولة فيهـا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يتحتم حسب مشيئة وتأثير ظروف خارجة عن تلك الدولة .

ولا يمكن فصل تطور الحياة في فرنسا مثلا عن تطورها في بريطانيا العظمى . وبهذا الخصوص نود ان نقتطف شيئا مما يكتبه الفيلسوف والمؤرخ البريطاني المعروف ارنولد توينبي :

فبعد أن قام بدراسات مستفيضة للتاريخ العام ثم تأمل مفزى دراساته هذه انتهى الى القول : « ان تاريخ بلد واحد (أي على حدة) لا يمكن ان يكون موضوعا سليما للدرس » .

وهو يقصد بهذا الحكم القاطع الى ان يقول: ان تاريخ مختلف البلدان، بل الوجود بكامله ، متداخل بشكل عظيم الى درجة كبيرة بحيث يعسر على المؤرخ ان يكون سليما في منحاه اذا اراد ان يفصل ذلك التاريخ الى وحدات مستقلة ، كأن يحاول دراسة فرنسا على حدة ، وبريطانيا وحدها . ذلك ان تجريد تاريخ كل دولة عن غيره من مجال التاريخ العام ، من شأنه ان يزيل الكثير من الحقائق المتشابكة بينهما . وبذلك يفقد التاريخ الخاص (اي تاريخ الدولة) كثيرا من حيويته ، بل وحقيقته .

ومن ذلك الحكم ايضا نستطيع ان ننفذ الى هدف آخر يراه ارنولد توينبي . وهذا الهدف هو : ليس هنالك روح واحدة تسيطر على كل قطعة من التاريخ . اي انه ليس هنالك روح انكليزية تشكل تاريخ بريطانيا على هذه الصورة المحددة ، ولا روح فرنسية او اسبانية او غيرها تشكل تاريخ البلد الذي تنسب اليه على هذه الصورة التي وقع فيها . واوسع من ذلك : ليس هنالك روح سكسونية واخرى لاتينية ، وثالثة ورابعة ، تتميز الواحدة منها عن الاخرى في تشكيل صورة التاريخ البشري .

ولربما تساءل القارىء الكريم قائلا : اذن على اية اسس بنى توينبي دراسته الضخمة المعروفة ؟

والجواب على ذلك :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

لقد بناها على اسس ثلاثة يرى ان من الضروري الاجابة عليها حين معالجة دراسة التاريخ ، وهي :

١ ـ استقلال الحادث الواحد عن غيره .

٢ ـ تماسك ذلك الحادث وارتباطه مع غيره .

٣ ـ اصالة ذلك الحادث بعينه .

وهذه المجالات الثلاثة هي ما يسميها توينبي :

المجالات المفهومة (القابلة للادراك) .

هذا بخلاف ما يراه المؤرخ « أزولد شبنكلر » ، فهو يناقض توينبي في نظريته ، ويرى ان :

كل حضارة تمثل « الجهاز العضوي » الذي انتجها . ثم يضيف الى ذلك رأيه في :

ان لكل حضارة قوانين ذاتية خاصة ، تسير تلك الحضارة بموجبها .

وينتج من ذلك ما يستخلصه الفيلسوف من :

ان تلك القوانين ذات هدف لا تتعداه .

ونحن نرى بوضوح ان تشبيه « الحضارة » بـ « الجهاز العضوي الحيّ » تشبيه غير موفق كما انه يجانب الصواب ، الا اذا قصدنا بذلك تساوي الحضارة والجهاز في ادوار النشوء ثم الارتقاء ثم الاندثار . اما اذا قصدنا غير ذلك ، فان بامكاننا ان نرد القول الى أصله : ذلك لاننا نرى ان القصد من هذا التشبيه ليس اكثر من اثبات الاصالة ، اي ان لكل حضارة مبتدأ نتج عن علّة اخرى .. وعلّة سابقة من قبل ، وهكذا الى ما يراه الفلاسفة الميتافيزيقيون .

ونحن نخالف هؤلاء ، اذ لا يسعنا ان نعزو كل تقدم العلوم والمعرفة منذ القديم وحتى الوقت الحاضر الى سبب غيبيّ ، ولا يمكننا القبول بأن الوقائع التاريخية ـ وقد حدثت في الواقع ـ ترجع في اصلها الى سبب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

منفصل عن ذاتها . انه لا يمكننا ذلك الا اذا اعترفنا بأننا مصابون بالعمى .

وليس من هذه الناحية فحسب ، بل من زاوية مهمة اخرى وهي :

مما يقوله شبنكلر نفهم ان الحضارات منفصلة الواحدة منها عن الاخرى . واكثر من ذلك ان كل حضارة لا تتأثر بغيرها ، ما دامت لكل منها قوانينها الذاتية وهدفها المحدّد .

والآن ، هل يريدنا صاحب هذا الرأي ان ننكر واقع ان كل حضارة تتأثر بالحضارة الاخرى ؟

هل يريدنا ان نفهم ان كل افكار حضارة معينة ونظم الحياة في نظرها ، ومؤسساتها الاجتماعية التي خلقتها وجاءت بها ، كل هذه لم تؤثر على الحضارة الاخرى المعاصرة للاولى في افكارها ونظمها ومؤسساتها ؟

حقا ان شبنكلر يناقض نفسه .

ولنعد الآن الى ارنولد توينبي : انه يبدأ كتابه «دراسات في التاريخ» بل موسوعته هذه ، على اساس ما سبق ان ذكرناه من نظرية « المجالات المفهومة ». لكنه سرعان ما يجد نفسه ينزلق الى تخطي حدود تلك المجالات التي رسمها لنفسه . وبذلك تراه يناقض شبنكلر من أساسه اول الامر ثم يناقض نفسه آخره . انه ينكر وجود تاريخ حضارة مستقل ، ثم يعمد الى مخالفة رأيه نفسه حين يطبق ذلك الرأي فيدرس على أساسه . وقد وقع ذلك من ان توينبي لم يستطع ان يبين بوضوح الحد الفاصل بين « الواقعة التاريخية بأفراديتها » ، وبين « ارتباط الواقعة بالمجموع » .

ولو سأل توينبي نفسه هذا السؤال :

ما هو الاساس الذي بموجبه يقال هذه حضارة اصيلة وتلك غير اصيلة ؟ ، لكان الجواب : انه الدين .

ولكن هذا الجواب يلاقي عقبات تعترض سبيله ، اذ ما هو الفرق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

بين اليابان والصين ؟ واي المعتقدات المتميزة المقصورة على اليابان هي التي جعلت حياتها تختلف عن حياة الصين ؟

وكذلك الحال بالنسبة لاوروبا التي تتبع الكنيسة الغربية ، واوروبا الارثوذكسية .

*

والآن ، ربما عنّ للقاريء أن يقول : واذن كيف ترى التاريخ ؟ ونجيبه على ذلك بقولنا :

اننا نجد التاريخ كالافعال الفردية ، ليس فيه وحدة متكاملة لا من حيث اهميته ولا حقيقته . فاعمال الفرد نتيجة مستقطرة من « ذوات » تاريخية بعيدة . والفكرة الواحدة عندي وعندك هي بنت أجيال وعصور ، ومن الاسهل ان نمارس تلك الفكرة اكثر من أن نعرّفها ونبين حدودها ، ذلك لانها متصلة منذ بداية حياة الانسان الى كل منا ، انت وانا ، مثلا .

ومن شأن كتاب « السير » ان يربطوا الى حد ما بين شخصية الرجل الذي يكتبون سيرته ، وبين أفعاله التي قام بها . وهذا صحيح الى حد معقول . اذ أن هنالك شيء فرداني في كل ما يفعله أي رجل . ولكن أين حدود هذا العنصر الفرداني ؟ تلك هي القضية .

ولاوضح ما أهدف اليه قائلا :

لا ريب في أن الفنان البرجوازي في أكس هو الرسام الماهر في سيزان ، ذلك ان بينهما خطوطا مشتركة في الرسم ، ولكن الحد بين فردانية الاول وفردانية الثاني أمر لا يمكن التعرف عليه أو تعيينه .

ان عناصر تاريخ « جماعي » للانسان تترابط بشكل مذهل وتتداخل بحيث لا يستطيع أي من المؤرخين او غيرهم أن يشيروا الى نقطة محددة فيقولوا : ههنا يبدأ هذا العصر او تلك الحضارة وهناك ينتهي .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبمعنى آخر :

لا يمكن ادراك وحدة معنى التاريخ بدون الاشارة الى القيم المتوارثة من مختلف مجالات النشاطات الانسانية .

ويقول الماركسيون ((ان العامل الاقتصادي)) هو الذي يحرك التاريخ ، ففي طياته معنى ذلك التاريخ .

ولكنهم بقولهم هذا يخلطون بين ((أسبقية عرضية)) ، و ((أسبقية ذاتية)) . وهم يؤكدون اهمية العنصر الاقتصادي في التاريخ في حين ان المطلوب هو : ما هو معنى التاريخ .

وبكلمة اخرى : اننا نراهم لا يفرقون بين الصفة ، ومظاهر حدودها .

وهكذا ، ترانا أمام مصاعب جمة . فشبنكلر يريد التاريخ أن يكون ((بيولوجيا ـ ميتافيزيقية)) . وتوينبي سرعان ما ينقلب من فيلسوف اجتماعي الى عالم لاهوت . فترانا نضيع في بحر من تضارب الآراء . والواقع أن المنطق يقول :

ان فلسفات التاريخ لا تعدو كونها مبادىء دينية تمّ صبغها بالصبغة العلمانية .

غاية التاريخ

يقوم الرأي الشائع فيما يتعلق بصدد هذا الموضوع على نقطة جوهرية فحواها ان الطبيعة ذاتها تقوم بتنظيم الحياة بحيث يبقى الاصلح . وفي تطبيق ذلك على المجتمع البشري تكون الطبيعة الانسانية تسير نحو محاربة النقص ، (والفقر منه) ، عن طريق وضع قوانين للتعاون والادارة .

وهذه النظرة غير صحيحة .

اذ ان كل نشاط يهدف الى زيادة موارد الجماعة يدخل فيه العنصر السياسي . وذلك بمعنى ان التعاون الطوعي من الافراد ضرورة لازمة لذلك النشاط حتى يصل هدفه .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

والفكرات التي نشرها فلاسفة التاريخ بهذا الخصوص تعود بالمرء الى مشاكل عويصة كثيرة مثل « سيادة المرء على الطبيعة ، واصلاح النفس البشرية ، وغير ذلك » . وهذه بدورها تقتضي الرجوع الى بداية مشكلة ـ الاقتصاد والسياسة .

وتفسير هذا انه اذا قبلنا رأي ـ اصلاح النفس البشرية ، او سيادة المرء على الطبيعة ، فاننا نكون قد رجعنا الى « السير نحو الجماعية » ، أي اخضعنا السياسة للاقتصاد واعتبرنا الجماعية هي غاية التاريخ . هذا مع ان المجتمعات في الواقع ليست « عقلانية » بالمعنى التكنولوجي للكلمة التي تعرفها العلوم وانما هي عقلانية بمعنى آخر .

وهذا المعنى هو الثقافة . فالثقافة هي التي تهب طريقة الحياة شكلها المعين . والعائلة وارتباطاتها ، وتقاليدها ، هي التي تشكل الكثير من نظم حياة مجتمع ما .

وليست جميع التقاليد المتوارثة فجة ، ولا انها وحشية . كلا ان تلك التقاليد مهما كان شكلها تقوم في أساسها على مفهوم عام للوجود . وسواء كان ذلك المفهوم ضيق الافق او انه منطلق بعيد النظر فانه موجود .

وليس هذا خاصا بالانسان . فالعلاقات بين النباتات والحيوانات ، وابطال الاساطير في قديم الزمان ، كانت تقوم على قوى الاخصاب شأن « العائلة » ثم « الدولة » .

والحق ان بروز الميل اللاهوتي في تحديد غاية التاريخ من جديد ، قد جاء به التقدم التكنولوجي في العصر الحاضر . وليس جميع الفلاسفة على طراز تروتسكي الذي يرى ان عصر الوفرة سيعم الحياة بحيث لا تبقى هنالك مشكلة تتعلق بالتوزيع ، وان الثقافة سترتقي الى درجة انها تقهر شهوة التملك في نفس الفرد ، وان التقدم التكنولوجي سيتطور الى درجة انه يمكن اعطاء الفرد دون الاخذ من الفرد الآخر ، كلا . ليس الجميع على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذه المشاكلة .

وحتى لو فرضنا ما يقوله تروتسكي صحيحا فما هو مصدره ؟

لا شك ان التقدم التكنيكي المعاصر قد سار بخطى واسعة جدا . ولا شك ان هذا التقدم في مختلف مجالات العلم من شأنه أن يزيد القـــدرة الانتاجية العامة لاي مجتمع . لقد غدا عمل ساعة واحدة كفوءا لانتاج مـا كان يحتاج أياما بل أسابيع وشهورا في السابق . ولا شك ايضا ان هـذا التقدم ربما يستمر . ولكن ، الا تستمر الحاجة الى السلع ايضا ؟ ؟

مع التقدم زادت حاجات الفرد ، ومع استمراره ، لا بد ان تتزايـد ايضـا .

ولنفرض أننا وصلنا الى مرحلة من الانتاج تم فيها الاشباع ، اي أن السلع المتوفرة ـ الاساسية منها والكمالية التي صارت مباحـة للجميع ـ ينال الواحد منهم قدر ما يشاء منها . في هذه الحال يكون على كل مـــن اولئك الناس ان يعملوا ، ولو قليـلا جدا . وحينئذ لا شك ستبرز فيهـم الحاجة الى الراحة والكسل وهذه حاجة ايضا . أليست كذلك ؟

والآن ، كيف يمكن توفير حاجة الجميع الى الخمول ؟ ولست أعني أنها حاجة بالمعنى الحرفي ، بل أعني أنها « استجابة » لرغبتهم في ذلك .

وأود من هذا الفرض ان أخلص الى القول بأنه :

حتى ولو وصلنا الى نقطة الاشباع ،فان رغبات الانسان تظل تتزايد بحيث تتعذر المساواة فيما بين الناس بخصوصها .

فدعنا من آراء تروتسكي ، ولنعد الى بحث واقع الارض التي نعيش عليهـــا .

ان حاجات الانسان الاساسية ، والكثير من الحاجات الكمالية ، لـم تتوفر في أي من العصور مثل ما هي في الوقت الحاضر . ففـي الولايات المتحدة مثلا يبلغ حجم الانتاج العام مقدارا يكفل لكل فرد من أهلها حيـاة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

كريمة ، بل أميل الى ان تكون مرفهة . ولست في حاجة الى ذكر مختلف اوجه النشاط والاختراعات والتقدم الالكتروني في تلك البلاد ، اذ يكفي القول ان الولايات المتحدة تملك اكبر نسبة في العالم من الارض المستثمرة بالنسبة للشخص الواحد . ومع هذا فان كل هذه الوفرة لا يمكن ان توفر مختلف رغبات افراد المجتمع .

وحتى لو أخذ رأي تروتسكي فان مجتمعا فيه « وفرة عن طريق الحكم المطلق » لا يستطيع تقديم حل جذري للمشكلة الاقتصادية . ذلك لان المداخيل سيتم توزيعها على شكل نقود ، فلا يكون بوسع الفرد ان ينال من الانتاج عينه ، اذ ان المداخيل ستكون مرتبطة بمقدار حاجات ذلك الفرد لا بمجمل انتاج المجتمع الذي يعيش فيه . وستكون تلك المداخيل تحسب على اساس الوظيفة المعطاة للفرد في المجتمع الجماعي ، لا على اساس أهمية تلك الوظيفة في عملية الانتاج الكلي . فأين المساواة في هذه الحال ؟

وكذلك المجتمع الثابت ، فانه لا يقدم حلا جذريا للمشكلة السياسية، اذ ان ذلك المجتمع لا يميل الى المصالحة بين الرأي القائل بضرورة تساوي الناس من حيث أنهم بشر ، والرأي الآخر القائل بأن وظائفهم في المجتمع مختلفة فلا يمكن ان يتساووا .

الا يكون المطلوب اذن في هذا المجتمع ، هو الاعتراف بأن هنالك فئة متميزة لها حق السيطرة على الآخرين في حين لا يفرّط أولئك الآخرون بشيء من كرامتهم ؟

بلى . وهل يتفق هذا المطلبان ؟ كلا ، طبعا .

هذا هو التناقض الجذري في ذلك الطراز من المجتمع . وهو كذلك، التناقض الجذري في النظرية التاريخية التي تحبّذ ابقاء ذلك المجتمع ، اي في التفسير التاريخي الذي يقول بأن للتاريخ معنى محددا تسيطر عليه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

قوى خارجة عن ارادة المجتمعات نفسها .

اذن ما هو الحل الجذري ما دمنا قد نفينا جماعية الحكم المطلق وسيطرة الفئة الممتازة ؟

ان المرء يستطيع ان يدرك ذلك الحل ، وهو المصالحة بين الاقتصاد والسياسة ، أي أن لا يطغى العامل الاقتصادي في المجتمع ، كما لا يطغى فيه العامل السياسي ايضا . وفي تلك الحال يكون كل فرد من المجتمع يساهم في النشاط السياسي والنشاط الاقتصادي بشكل مقبول .

ولا يشعر الفرد حين يخضع رغباته لضرورات الحياة في المجتمع ان هنالك من يفرض عليه ذلك أو يجعله يشعر بالذل والهوان . فاذا تم للبشرية اقامة مثل هذه المجتمعات ، فان السلام سيكون سيد الجميع ، بل حبيب الجميع . وستكون الحياة أوسع من أي أفق سبق لذوي فلسفات التاريخ ان تطلعوا اليه . حينئذ تصان حياة الفرد وتتساوى حرياته ويتم تهذيبها في نفس الوقت .

وحقا ان التقدم التكنيكي يجلب الوفرة . الا انه سواء أحسن الانسان استعمال تلك الوفرة أو أساء ، فان طبيعته مع الاسف تظل كما هي . ذلك ان علاقات المجتمع بين افراده تختلف شكلا ، أما من حيث الجوهر ، فأن طبيعة الفرد تظل ثابتة لا ترين .

ان الانتصار على قوى الطبيعة ، وسيطرة الانسان عليها لا تضمن ان يسيطر العقل على الغرائز والعواطف ، وان كانت تسمح بذلك ، أعني مجرد سماح لا أكثر .

التاريخ والتعصب

اذا تدارس المرء مختلف عصور التاريخ ، وأعني من حيث الافكار السائدة فيها ، وجد التعصب هو العامل الذي يشترك فيه الجميع . ولا حاجة الى تبيان هذا الامر في الازمان الغابرة ، اذ يكفي ان نطبقه على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الافكار التي تشكل العمود الفقري لثقافتنا الحاضرة فنقول : هنالك ثلاثة أنواع من الحكومات الاصيلة في وقتنا الحاضر :

١ ــ الحكومة المطلقة ، وتبني مجتمعا يقوم على الجماعية .

٢ ــ حكومة الصفوة او الفئة الممتازة ، وتبني مجتمعا يقوم على مثل عليا فردية .

٣ ــ حكومة التقاليد ، وتبني مجتمعا يسير مع الزمن في تطور هادىء .

ولنعد الآن الى بحث كل شكل من اشكال هذه المجتمعات المختلفة الثلاثة .

أ ــ الحكومة المطلقة ، وهي التي يدعو اليها دعاة الجماعية كالماركسيين . وهم يرون ان أول مهمة تقع على عاتق الحزب حين يتولى السلطة ، هي ان يسير في بناء الاشتراكية ثم الشيوعية . واكثر من ذلك ، انهم يعتبرون الثورة نفسها حتمية في صرح الاشتراكية . وهم لا يأخذون في اعتبارهم اية قوانين او مفاهيم اخرى الا ما خلقوه هم . وبذلك تجدهم يتعصبون تعصبا فظيعا لكل ما جاؤوا به . انهم لا ينظرون الى الوسيلة ما دامت الغاية هي هي ، الوصول الى الاشتراكية . وبذلك يكونون يعبدون هدفا وضعوه .

لقد فسروا التاريخ على اساس الحتمية ، وهذه مجرد نظرية أساسها الاقتصاد في قرن مضى . ومع هذا تراهم انساقوا مع فرضيتهم فاصبحوا ينكرون كل ما عداها . فاذا وضعوا قوانين جاءت تلك القوانين ضمن اطار مسبق ، أي انها موضوعة سلفا ، ثم يجري التعبير عنها . وبمعنى آخر ، لقد رسموا العالم وصبوه في قالب محدّد ، وهم لا يريدون له ان يخرج عن صورة ذلك القالب . أما اذا خرج ، فانهم يخلقون من قالبهم السابق قالبا جديدا ، ولكنهم يظلون يرجعون الجديد في أصله الى القديم .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ان هذا تعصب كبير ، وهو تعصب ضد الواقع ، وتعصب ضد التاريخ نفسه .

ب ـ حكومة الصفوة او الفئة الممتازة : وهي على النقيض من الحكومة السابقة من جهة ومثلها من جهة اخرى . ذلك ان هذه الحكومة تقوم على أساس سوق التاريخ بعصا الفئة الممتازة ، أي التي يجب ان تسير المجتمع حسب رأيها هي ، وهي تسوقه الى غاية سبق ان حددت له . ومن شأن هذه الحكومة ان تصرّ على الحرية الفردية والانسانية العريضة بمعنى غائم لا يكاد يكون مفهوما . وهذه الحكومة تناسب المؤمنين، اذ انها تقوم على أساس التسليم . وهي تريد من الفرد ان يخضع ولا يشعر بأنه تنازل عن شيء من فرديته في ذلك الخضوع . وهذا شبيه بالقول : ان الضباط والجنود متساوون ، ولا يجب ان يشعر الجنود بأنهم أقل من الضباط في شيء . او بصورة ثانية : ان العمال وأصحاب المعامل متكافئون .

ومن شأن حكومة الفئة الممتازة هذه ان تظل تطلب الثورة احيانا وتقبل بالواقع احيانا اخرى ، فهي تثور من ناحية نظرية طلبا للحرية الفردانية ، ولا اقول الفردية ، وتقبل الواقع من ناحية عملية ، لانها لا تملك تغييره .

ج ـ حكومة التقاليد : وهي في الغالب الحكومة البرلمانية ، واساسها الواقع المتطور البطيء . وهي أكثر مرونة من سابقتيها لعدم تصلبها في رأي معين .

ولذلك نجد ان كلا من الحكومتين السابقتين يرفض بحث موضوعها حين يتعرض الى شرح نقيضه .

وهكذا نرى أن للتاريخ جماعية في معناه حسب وجهة نظر كل من هذه الحكومات الثلاث . فمن أين تنتج هذه الجماعية ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

انها ليست وليدة عجزنا الذاتي عن تفسير التاريخ ، كلا ، بل وليدة ضيق مداركنا في الوقت الحاضر ، بالاضافة الى شدة تشابك التاريخ نفسه .

ولنختم فصلنا عن معنى التاريخ بأن نقول : والآن هل هنالك معنى للتاريخ ؟ والجواب على ذلك نعم ، ان له معنى . وهو مفهوم بالقدر الذي نستطيع ان نفهم به حادثة واحدة . ويتم ذلك عن طريقين : الاولى ارتباط تلك الحادثة بمن أحدثها ، والثانية ، الظروف التي رافقت تلك الحادثة في نظر من شهدها . فاذا استطعنا ان نرى هذين الضوءين أمكن فهم الحادثة المفردة ، وحين نجمع ملايين هذه الحوادث ، نفهم التاريخ . وهو عمل عسير كما يبدو ، الا ان عسره لا يتضمن استحالته ، مع أننا لا زلنا عاجزين عن الحصول عليه حتى الوقت الحاضر .

وهنالك طريقة أخرى لفهم التاريخ ، وهي ثلاثية المجاميع . ويمكننا بفضلها ان نفهم التاريخ اذا توافرت لدينا هذه الشروط .

أ ــ ان يمكن اعتبار مختلف الحضارات السابقة واللاحقة كلا واحدا.

ب ــ ان يمكن اعتبار مختلف العهود ونظم الحكم على أساس انها كانت أجزاء متكاملة في خدمة الانسانية .

ج ــ ان يمكن المجيء بفلسفة سليمة تفسر الى أين يسير الجنس البشري .

ولربما ود القارىء ان يقول :

وهل هناك حكومة عالمية ستبزغ شمسها يوما ما لتوفر السعادة للجميع ؟

ونحن نجيب على ذلك بأن التطور السياسي حتى الوقت الحاضر لا يسمح بالنفي او الايجاب . واذا كان هنالك من ينفي او يثبت قيام مثل هذه الحكومة فأننا نفضل اعتباره خياليا متفائلا أكثر من الضرورة او

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

متشائما في تقديراته ، فهو في الحالين عاطفي لا يتحكم العقل بقراره .

وفحوى رأينا في هذا الفصل هذه العبارة المشهورة :

« ان الفيلسوف لا المؤرخ هو الذي يدري عـمّ يفتش الانســـان . والمؤرخ لا الفيلسوف هو الذي يدري ماذا فعل الانسان ، وما هو ممكن ان يفعل في المستقبل » .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الرابع

الحتميّة التّاريخيّة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

خدعة الضرورة والحتميـة

يكون للتاريخ معنى اذا كان هنالك منطق هادف ، كالاصطفاء الطبيعي على الاقل ، بحيث يسعى ذلك المنطق الى التخلص ممن ينحرفـون عـن ضرورات بقاء الجنس البشري . وقد بينا فيما سبق مـن هـذا الكتـاب الاخطاء المنطوية تحت القول بكل من مبدأي : الحتمية والغيبية .

ولا يعني هذا ان المرء عاجز عن استشفاف المستقبل ، كلا ، فبوسع المرء ان يتكهن عن ذلك المستقبل الى حد ما ، ودون ان يتهم بالسخـف . وبوسعه ان يرى الحاضر يتقدم ، بل واكثر من ذلك بوسعـه ان يـدرك العلاقات بين الناس في المستقبل . هذا اذا لم تقع حوادث مـن شأنهـا الانحراف بذلك المستقبل .

والآن ، هل ترى المرء يستطيع ان يقيم ما يعادل « قاعدة العقل » عند هيجل ، تلك القاعدة التي تجعل عواطف الانسان تسير الى غاية معينـة ؟ وهل ان حتمية المصالح، او العوامل الاقتصادية ، تميل بشكل لا يقاوم نحو نتيجة عقلانية ؟

حتمية الحـظ

دعنا نعود الى الامثلة التي ضربناها سابقا فنقول : لقد عبر قيصر نهر روبيكون ، وبعث وزراء النمسا بانذار الى بلفراد ، وأمر هتلـر بتنفيـذ العملية الحربية المسماة بربروسا . وكل من هذه الاحداث مفهوم اذا أخذ برفقة قرائنه وارتباطه بما نتج عنه . ومن مهمة المـؤرخ ان يبحث عـن الدوافع والمغريات التي جعلت قيصر يقطع الروبيكون . هـذا صحيـح ، ولكن بعض فلاسفة التاريخ لا يقنعون بشيء من ذلك ، فتراهم يقولون : ان لحظة اتخاذ قيصر لقرار عبور نهر الروبيكون كانت لحظة حتمية الوقوع . وتنبع حتميتها مما سبقها من الظروف ، ومن كونها مقدمة لماسيتلـو . أي ان كل قرار تاريخي شيء محتوم ، يكون المستقبل احبل بنتائجه ، والماضي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

حاملا اياه جنينا .

ولكننا نود ان نسأل أصحاب هذا الرأي :

ترى ، لو كان هنالك شخص غير قيصر ، هل تراه يتخذ نفس هذا القرار ؟ وهل ترى القرار الذي يتخذه ذلك الشخص يخرج بنفس النتائج التي تولدت عن قرار قيصر ؟ وهل لا يمكن ان لا يكون هنالك قيصر ولا قراره أصلا ؟

وهم يجيبون : حتى لو لم يكن قيصر بشخصه فان سير التاريخ سيخلق قيصرا آخر . وحينئذ نسألهم : وهل سيخلقه على نفس صورة قيصر هذه ؟ ثم ، لو تأخر قيصر عن زمنه أو سبق زمنه الحقيقي ، هل تراه يتخذ نفس القرار لتتولد منه نفس النتائج ؟

وأوضح من ذلك : ترى لو لم تقم الحرب العالمية الاولى ، هل كان بوسع الثورة أن تنتصر في الاتحاد السوفياتي ؟

انهم يجيبون على كل هذه التساؤلات بقولهم : « ليس بوسع المرء أن يثبت » ، وهم يجعلون حكمهم سلبيا . ونحن لا نحتاج شيئا حين نحوّر ذلك الى « أن بوسع المرء الا يثبت » ونجعله على هذه الصورة ايجابيا . لماذا يهربون الى السلبية اذن ؟

انهم بذلك ينكرون « الفاعل الفردي » المتولد عن ظروف البيئة والتربية التي يتلقاها فاعل الحدث التاريخي ومتخذ القرار فيه . ولما كانت البيئة والظروف نفسها ليست مسؤولة مسؤولية كلية عن ايصال رجل يتخذ قرارا يؤثر في المجتمع ، الى مركزه ذلك ، فان هذا يشير اشارة كافية الى ان اصل ذلك القرار فيه نسبة شخصية ، (أي فردانية) ايضا .

ولنأخذ قضية لويس السادس عشر في فرنسا مثلا على ذلك :

لقد قامت الثورة ، وكانت استجابة لويس السادس عشر لها على النحو المعروف . ولو أنه تجاوب بشكل آخر لاختلف طريق الثورة . ولو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

أن خطر روسيا لم يجابه هتلر ، لكان مصيره غير ما لاقاه ، ولما كان اتخذ قراراته التي نقرأها في الوقت الحاضر .

وليس معنى « لو » هذه اننا نريد أن نقبل راي القائلين بالحظ ، ذلك لان المجتمعات التاريخية والحضارات البشرية لم تقم صروحها على الحظ، ابدا ، وانما معناها أن شخصية لويس السادس عشر ، او شخصية هتلر، من ناحية فردية قد ساهمت في خلق الاحداث التي تلت . وربما كانت هذه الشخصيات لم تسر في الطريق القويم ، ولكن هذا لا يغير من الامر شيئا ، لقد سارت على كل حال .

ان الرجل الذي يجد نفسه مدعوا لان يتخذ قرارا تاريخيا يعبر في الحقيقة عن مجتمعه أو عصره . ولكن حظ ذلك الرجل من وجهة سياسية او حربية لا يمكن ان يتقرر بشكل ذلك المجتمع أو تركيبه . فقد أدى زوال الملكية في فرنسا ـ نتيجة لنجاح الثورة ـ الى فتح الطريق امام ضابط وضيع المولد . وكانت أعمال نابليون بونابرت مثلا لما يمكن ان يتم في عصره . ولكنه لم يكن هنالك أحد يستطيع أن يتنبأ أن ذلك الرجل الذي سيرتقي الى القمة بعد نجاح الثورة هو ذلك الضابط ، بونابرت . ويعود عدم القدرة على التنبؤ الى عوامل مختلفة كثيرة ، شأن كرة اللعب على مائدة الروليت . فليس هنالك من يدري لماذا تقف على هذا الرقم وتترك ذاك .

صحيح ان تكوين فرنسا في ذلك الوقت قد ساعد في الامر كثيرا ، ولكن احدا ما كان يقدّر ان نابليون سيكون ذلك العبقري الذي سيترك أثره في أوروبا بكاملها .

ان على الرجال ذوي المقدرة ان يستثيروا حظوظهم كما لو أنهم يشعرون بأن القدر يطلب اليهم أن يفعلوا ذلك . وما هذا القدر الا الحظ . هذا ما يفعله القائد العسكري ، ورجل السياسة ، والمضارب في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

البورصة ، ورجل الاعمال . فالواحد منهم لا يعرف كل دقائق موقفه واحتمالات النصر أو الهزيمة في مغامراته المقبلة ، ولكنه مع هذا يقدم على ما يريد أن يفعل . انه يجد نفسه مدفوعا . وحين يقرر رجل الاعمال توسيع مؤسسته ، أو تضخيم استثماره عن طريق السخاء عليه في المال ، لا يجلس ليفكر بامكانية حدوث كذا ، ولا احتمال الخسارة من اثر كيت . انه يتصرف بشيء من العقلانية ، أي دراسة الواقع والظروف ، وشيء مثله من الاندفاع على أساس الحظ .

وما ينطبق على من ذكرنا من الافراد ينطبق على المجتمعات أيضا . فهنالك فرق كبير بين ما يتجمع من المعلومات في الحاضر (عدد السكان ، وكمية الانتاج ، ووتيرة التقدم) وبين ما سيكون عليه المجتمع فيما بعد . ولا يستطيع أي واحد من الناس أن يحكم على المستقبل حكما قطعيا الا اذا أغفل امكانية وقوع أحداث تغير وجه الحضارة نفسها .

ولاشرح ذلك اقول : **لقد حكمت الماركسية على المستقبل على اساس ما تجمع لاصحابها من المعلومات عن الماضي ، وليس هذا صحيح ولا جائز .**

ان تعقد مشاكل التاريخ اعوص من ان يسمح لنا بتسيير المستقبل على نفس المنطق الذي جرى عليه الماضي .

ولست اعني بهذا التقليل من اهمية الرجال الذين احدثوا تغيرات كبيرة في التاريخ ، مع أن الناس مفرمون بالمبالغة في عنصر الحظ الحسن لديهم كلا ، ولكنني اعني أن فردانية هؤلاء الرجال ليست هي الكل في الكل ايضا.

وهنالك الكثير من المعلقين العسكريين الذين ينسبون انتصار قائد ما في معركة على الشكل التالي : ٩٠ بالمئة من الفضل يرجع الى ترتيب الجنود وتدريبهم وكفاءتهم ، والآلات التي يستعملونها ، ومقدار مهارتهم في استعمالها و١٠ بالمئة من الفضل الى رسم خطة القائد ، والروح المعنوية لديه ولدى جنوده .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهذا التقسيم ليس قاعدة ثابتة ، بل انه مجرد رأي خاضع للمناقشة.

وعلى هذا الاساس تجد الكثيرين يحاولون دراسة الاسباب التي انتجت فشل نابليون في مغامراته الاوروبية الكبيرة . وهم يتصيدون لذلك اسبابا طويلة عريضة يدخلون فيها تاريخ البشرية بكاملها . والاصح من ذلك والاكثر واقعية ان يقولوا :

لقد فشل نابليون ومعه طبيعة الثورة الفرنسية ، لان الثورة كانت اصغر من النجاح على ذلك المجال العريض ،كأوروبا بكاملها . ولان التناقض ظهر في الثورة الفرنسية ، ففدت تدعو الى شيء وتمارس ضده . ولان انتصار الثورة في أول الامر ، اثار الوطنية في الاقوام الذين انتصرت عليهم الثورة خارج فرنسا أول الامر ايضا .

التنبؤات النظرية

الواقع ان المرء لا يستطيع ان يتكهن عما في بطن التاريخ من اجنة، وهو لا يتكهن فعلا ، بمعنى ان يتنبأ . أما ما يفعله فهو المقارنة والقياس . انه يأخذ الظروف الواقعة لحادثة مستمرة معينة ثم يأتي بظروف سابقة اجتمعت عند وقوع حادثة سابقة ايضا ، وينظر الى نتائج تلك الظروف السابقة فيقدر نتائج الظروف الحالية على اساسها .

وهو بذلك لا يفعل اكثر من محاولة تطبيق ما سبق على ما هو حالي. وليس في ذلك اي ضمان من وجهة علمية محضة . اذ ما الذي يمنع ان تتغير الظروف الحالية بسبب عامل غير منظور لدى المتكهن ؟ خصوصا وان كل حادثة تاريخية تشدها مئات الخيوط والعلاقات ؟

لقد اصبح مصير هتلر شبه معروف في سنتي ١٩٤٢ و١٩٤٣ . وبدا ان المانيا ستمنى بالهزيمة على يديه . وقد صير الى مثل هذا التنبؤ بعد مقارنة ظروف ذينك العامين بظروف العامين اللذين سبقا انهيار المانيا سنة ١٩١٨ . لقد بدا انه ، اما ان يتفكك المحور فتخسر المانيا ، اويتآلف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

السكسون والـروس ، وتخسر المانيا ايضا . الا ان هذا التنبؤ ظل مجرد قياس ، اذ ايـن يكـون مصيره لو توصلت المانيا الى اختراع القنبلة الذرية؟

ولذلك نقول : ان المرء ربمـا استطاع ان يتكهن بالنصر او الهزيمة في حرب ما مستخدمـا القياس في تكهناته . لكنه حتى في تلك الحال ، يظـل عاجزا عن تحديد الوقت لذلك الانتصار ، او تعيين السبب في تلك الهزيمة.

لقد كـان هنالك خطر اندلاع حرب اوروبية شاملـة في كل من سنتي ١٩٠٥ و١٩١٠ ، وبرزت ملامح ذلك الخطر ، ولكن الحرب لم تندلع . ولـم يكـن احد يفكر ان الحرب سيجري تأجيلها الى سنة ١٩١٤ ، ومع ذلك فقد نشبت انئذ مـع ان المظاهر لم تشر الى ذلك . ومن شأن هذا ان يجعل من الطريف دراسة شخصيات اولئك الذيـن اشعلوا الحرب الكونية الاولى .

وما ينطبق على الحرب ينطبق على غيرها . والتكهن احرى به ان يكون اقرب الى الخطأ ، فيمـا اذا كان يتعلق بنسبة المواليد وزيادة الانتاج ، وعدد السكان . ذلك لان التنبؤ بصدد الارقام امر نظري بحت ، اما حين يختص بحياة تلـك الارقام فشأنه شأن اخر .

ومن يدري اذا كان التوالد سيظل يسير على نفس الوتيرة التي سار عليهـا في العشر سنوات الاخيرة ، او ربع القـرن الماضي ؟ ومن يضمن ان لا يميل التوالد الى تغيير اتجاهه نحـو النقصان مثلا ؟ الم يحدث ذلك في فرنسا ؟ ومن يدري ان النقصان هذا سيكون متبوعا بفيض من الزيادة في المستقبـل ؟ لا أحـد .

وفي القطاع الاقتصادي وحده يتم الكثير من التنبؤات، وفي هذا المجال يتعذر القول بان طريقـة معينة مـن التنبؤ هي الصحيحة . ذلك ان الاعمال التجارية كثيرا ما تأخذ خطا جديدا غير متوقع ، وليس نتيجة منطقية لما هو معروف عن احوال اقتصاد بلد ما . ويعـود السبب في هذا الى ان سلوك رجال اعمال هو اولا واخيرا سلوك بشر عاديين . والسلوك البشري بطبعـه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

متغاير لا يخضع لقانون محدد .

ولامثل على هذا بصورة منطقية فأقول :

لم يتفق علماء الاقتصاد في تنبؤاتهم بخصوص دورة الازدهار والخمول سنة ١٩٥٣ في الولايات المتحدة . ولم تضبط تنبؤاتهم حتى بخصوص سبب وقوع تلك الدورة . ومن شأن هذا ان يدحض الرأي القائل بان هنالك قانونا عاما يحكم مثل هذه الاشياء .

ونحن نجد الاقتصاديين النظريين كثيرا ما يعتمدون على حسابات رجال الاحصائيات فيما يتعلق بالبطالة والتوظيف . ولكن ، حتى هذه الاحصاءات ليست دليلا كافيا لا يتطرق اليه الشك .

ان لكل ازمة تاريخها . وتواريخ هذه الازمات متشابكة يعسر تحليلها الى درجة كبيرة . وصحيح ان الهيكل الاقتصادي العام لبلد معين ربما القى ضوءا للعالم ، فساعده على تشكيل نظرية معقولة بخصوص اقتصاد ذلك البلد ، ولكن حتى هذه النظرية ليست حتمية ، اي انها ليست صحيحة مئة بالمئة .

ومهما كان الامر فان التنبؤات الاقتصادية على اطلاقها لا تولد عند السياسي منحى معينا في نظرته ، لا تشاؤميا ولا تفاؤليا . ولهذا تجدنانقول:

ان التنبؤ حول فناء نظام اقتصادي معين وزواله او بقائه وازدهاره امر فيه كثير من اللامنطقية والهوس .

فلو قبلنا الرأي القائل بان هنالك نظاما يسير وراء الريح ، وان حاجة المستهلكين متغيرة فيه ، فان هذا لا ينفي انه واقع، وانه حي . واذا شئنا ان نتنبا بزواله ، فانه يتحتم علينا ان نبين المواطن التي يجب على ذلك النظام ان يثبت فيها عجزا يستدعي الزوال . ومن بعد ذلك ينبغي علينا ان نثبت وجود الظروف التي ترجع في اصلها الى الحكم ، اي النظام السياسي الذي يسير ذلك « الاقتصاد » .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولنأخذ قانون « نقصان معدل الربح »مثلا على ذلك .

خلاصة هذا القانـون ان الالة تقلل من الحاجة الى العمال، فتقل قدرة العمال الاستهلاكية ، وبذلك ينخفض معدل ربح صاحب راس المال ! اليس في كل هذه الفرضيات نوع من المبالغـة بحيث يعاف المرء القانون نفسه ،ذلك القانـون الذي هـو فرضية ايضا ؟

وثانيا ، الا يمكن ايجاد طريق تسوي بين المتناقضين ؟ لقـد تم ذلـك في اميركا ، فأدخلت المصانع اليهـا الآلات ، وزاد الأنتاج زيادة كبيرة. ولكن هذا لم يجعل العمال فقراء معدمين ؛ على العكس ، لقـد زاد من رفاهيتهم ! ولنعد الى موضوعنا الاصيل فنقول :

الحق انه ليس هنالك نظرية صحيحة تحتم زوال الرأسمالية ، ولكـن عدم وجود هذه النظرية لا يعني اننا نعلم المستقبل فنثبت بقاء الرأسمالية، كلا ، وانمـا يعني ان المستقبل لا يزال ضبابا مجهول الجوانب في نظرناحتى الوقت الحاضر . وطبيعي أن الايام ستزيل ذلك الضباب ، ولكننا لا زلنـا عاجزيـن عـن رؤيـة ما سيبدو من تحته .

ونحن لا نناقش رأي من ينظرون الى الرأسماليـة بتشاؤم وحدهم ، فهنالك نقيضوهم في الطرف الاخر ايضا . ويرى هؤلاء انه :

لو ان في الرأسماليـة كل هذا التناقض الذي ينسبه اليها خصومهـا لما كانت عاشت منذ البدايـة .

وهذا فرض خاطىء . اذ ما اكثر الخطأ الواقع في هـذا الوجود ، وخصوصا في النظم السياسية والاقتصادية . وما هـي صفحات التاريخ ؟ اليست تجارب لاخطاء كثيرة واصلاح لتلـك الاخطاء !

ومثل « قانون نقصان معدل الربح » نظرية « النضوج » . والنضوج هذا معناه ان بلدا ما بلـغ او يبلـغ مرحلة يتعذر فيهـا الاستثمار وتوفير العمل للجميع . واصحاب هذه النظرية التي كانت مقبولة بشكل واسع قبل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عشرين عامـا ولكنهـا اصبحت عتيقة خاطئة في الوقت الحاضر ـ يأخذون رأيهم هـذا من ماركس . لقد تصور الرجل :

انه لما كان دافع الربح هو لباب النظام الرأسمالي ، فانه يظل ينقص من مورد الربح .

وكان هذا التصور مبنيا على ظروف لازمته في حينه : من نقص في نسبة المواليد ، الى انتشار عظيم في ادخال الآلات الى المصانع ، وغير ذلك. ولكنه الان لم يعد ذا موضوع على الاطلاق .

والان ، دعنا نوجه الى القارىء ثم الى انفسنا بعض الاسئلة :

هل الاقتصاد العالمي ينشط بالتخطيط بمعدل ارفع مما ينشط به في النظام الرأسمالي ؟

للاجابةعلى هذا السؤال يلتفت المرء الى وتيرة ارتفاع الاقتصاد بنسبة الشخص الواحد في روسيا ثم في اميركا في نصف القرن الاخير،ويقول:

ها هو الاقتصاد الاميركي قد اقترب من مرحلة النضوج والاكتفاء بينما ان الاقتصاد الروسي لا يزال يتنامى . ونحن نجيبه على ذلك :

لا بد من ان نذكر ان عمر الاقتصاد الروسي الحاضر هو نصف قرن، فهو ما زال قريبا من نقطة انطلاقه . كما انه لا علاقة بين الواقع التاريخي وبين النظامين على الاطلاق . ان ازدهار الاقتصاد الروسي خلال هذهالمدة ليس اكثر من حقيقة تاريخية فلا يجوز اتخاذه معيارا نبني عليه حكما قاطعا في امر بالغ الخطورة كفناء نظام وازدهار اخر .

واذا فعلنا ذلك ، كنا كمن يأخذ واقعة تاريخية معينة ، ثم على اساسها يأخذ في اصدار احكام من عندياته على مصائر الوجود .

ولالخص ما اريد ان اقوله في هذا الفصل بعبارة واحدة :

« ان مظاهر النظام الاقتصادي الذي سيسود في المستقبل ليست

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

متنافرة مع النظام الرأسمالي بأكثر مما هي متنافرة مع نظام الاقتصاد الذي يسمونه « الاشتراكية » .

التنبؤات التاريخية

لا شك في ان هنالك تناقضا بين البلدان الرأسمالية ، وبينها وبين المستعمرات . والاصح من استعمالنا كلمة « تناقض » الاستعاضة عنهابكلمة « اصطدام » . فهل يعني وجود هـذا التناقض ان الحرب بين هذه البلدان ضربة لازب يا تـرى ؟

دعنا نرجع الى التاريخ :

لم ينقض على البشرية قرنواحد دون حرب.وهذا يجعلنا نغير سؤالنا فنجعله « ان الحرب محتومة الوقوع بين الدول » . ذلك اقرب الى الدقـة والصواب . والمستقبل القريب لا يدل على انه سيكون سلميـا اكثر ممـا مضى . اما الخطأ فهـو في التشديد على ان طبيعة الرأسمالية هي التـي تولـد الحروب . والحق ان المنافسة بين الشركات ومؤسسات العمـل الكبرى هي نفسها شكل من اشكال الاصطدام والحرب ، ولكنها ليستخطرة على الاطلاق الا حين تأخذ الحكومـات على عاتقها ان تقوم بتلك المنافسة . وصحيح ان بعض الدول لا زالت تمارس الضغط في افريقيا للحصول علـى بعض الامتيازات الخاصة لمصلحـة رأسمالها . ولكن كون هذا الامر واقع لا يعني ضرورة بقائـه . لقد ولى ذلـك الزمن الذي كانت فيه حكومة ما تعمد الى هذه الطرق معتبرة اياها عنصرا فعـالا في اقتصادها . لقداصبح ذلـك العنصر عامـلا هامشيا تمامـا في الوقت الحاضر .

وليس هذا الاصطدام في المصالح مقصورا على النظام الرأسمالي ،فهو في الاشتراكيـة ايضا . ومثـلا :

لقد ادى تحديد سعر مبادلة العملة بين روسيا ويوغسلافيا من طرف روسيـا الى ان اعتبره اليوغسلافيون شكلا جديدا للاستغلال .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومن هذا نستنتج انه ليس هنالك نظام اقتصادي معين هو الذي يتحكم في وقـوع حرب او عدم وقوعها .

اما التصادم بين البلدان الرأسمالية وبلدان آسيا وافريقيا ، فأمر ذو جذور تاريخية صرفـة اكثر منه امرا نبحث عنه في مجال علم الاقتصاد .

ولربما تبادر الى القارىء ان يسأل :

لقد زالت الامبراطوريات الاوروبية في آسيا ، وتزعزعت اركانهـا في افريقيا ، فهل يعني هذا قرب اندثار الرأسمالية ؟

دعنا نرى كيف يجيب الماركسيون :

انهم يقولون : لم تعد الرأسمالية محصورة في شكل التملك الفردي ، بل غدت مجموعة من الدول هي : اوروبا الغربية واميركا الشمالية والجنوبية، ودول اسيا وافريقيا الحديثة الاستقلال . وقد جاءت الحرب العالمية الاولى فأدخلت روسيـا الى الاشتراكية ثم تبعتها الصين بعد الحرب العالميـة الثانية ، واخذت النقمة على الاستعمار تتزايد في الشرق الاوسط بعد ذلك . ومعنى هذا ان مجالات الكسب التي كانت تعيش عليهـا الرأسمالية آخـذة في الاضمحلال ، اي ان الرأسماليـة مفروض عليهـا ان تموت موتا بطيئـا، اذا ساد السلام فترة اطول،وموتا سريعا عنيفا اذا نشبت حرب عالميةثالثة.

وفي هـذا الجواب مغالطـة منطقية .

هنالك خلط بين اضمحلال نفوذ قوة ما ، وبين حتمية اضمحلال النظام السائد في تلك القوة . خذ بريطانيا مثلا . لقد انسلخت عنهـا الكثير مـن مستعمراتها بعد الحرب الاولـى ثم بعد الحرب الثانية . ومعنى هذا اننفوذ البلد كدولة ، تناقص في رقعته . ولكن الازدهار الذي حققتـه بريطانيـا لعمالهـا بعد الحرب العالميـة الثانية هو اعظم الآن مما كـان عليه يوم كان لهـا نفوذ عريض على المستعمرات . اي ان النظام لم يتأثر ، بل تقدم وتقوى على التحقيق . وما ينطبق على بريطانيا ينطبق مثيله على الدول الرأسماليـة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الاخرى في اوروبا ، اذ ان هذه لم تقترب في وقت من الاوقات من تحقيق اهدافها الاجتماعية اكثر مما هي عليه في الوقت الحاضر .

وقد ضربت هذا المثل لادلل على ان استنتاج زوال النظام الرأسمالي لتقلص نفوذ الدول التي تتبعه معناه عدم التفريق ـ ذلك الخلط المقصود ـ بين الرأسمالية والاستعمار . وبكلمة اوضح بين نظام اقتصادي ، ومسلك سياسي .

ولست بهذا انكر الواقع في ان الاستثمار الذي مارسته اوروبا لاقطار اسيا قد ساعد كثيرا في التعجيل بتصنيع اوروبا ، ولكنني انكر ما يعزوه الماركسيون الى هذا العامل من اهمية قصوى .

وهناك عوامل المواد الخام : ولا شك ان اوروبا ستجد نفسها مضطرة ان تدفع قدرا أعلى من الاثمان حتى تحصل على المواد الخام في العقود المقبلة . وذلك نتيجة لان الكثير من مستعمراتها السابقة في آسيا وافريقيا قد تحررت الان ، او انها على وشك الاستقلال في المستقبل القريب ..

وربما تبادر الى ذهن القارىء ان هذا من شأنه ان يضطر الحكومات ذات النظام الرأسمالي الى الحد من حرية المشروعات الفردية . ولكن العكس هو الصحيح .

فلو رجعنا الى التقرير العام لجداول التشريع العالمي في الاقتصاد سنة ١٩٥٤ لوجدنا ان الدول الغربيةكانت اميل الى توسيع حرية الاستثمار الفردي في ذلك العام بدلا من تضييقها .

ولربما شاء المرء ان ينظر الى خريطة العالم على هذه الصورة فيقول: ان جيش روسيا على حدود المانيا ، والصين منهمكة في حملتها الصليبية لسيطرة البروليتاريا ، والنفوذ الشيوعي يتغلغل تدريجيا في اسيا ، وكره الدول الغربية يرتفع رأسه في افريقيا ، فمعنى هذا ان الحرب لا شك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ستقع بين عشية وضحاها .

ونجيبه حينئذ:انزوال النفوذ ليس معناه زوال النظام.وها هي روسيا والولايات المتحدة تتنافسان من حيث ازدياد الطاقة الاقتصادية ، ونظاماهما يتنافسان ايضا ، وقد تنقضي عدة عقود من السنين تستمر فيها المنافسة، ولكن لا حاجة الى حرب حامية على الاطلاق .

واذا اصر القارىء على ان حربا ثالثة ستقع ثم ود ان يسأل اي الفريقين سيكسب تلك الحرب ، كان جوابنا له :

اذا كان انتصار الجانب الاميركي فيه شك بالرغم من ضخامة الصناعة المتوفرة لديه ، فان انتصار الجانب الروسي فيه شك اكثر بالرغم من استمرار توسع اقتصاده ونمائه .

اما اذا ود ان يجعل السؤال على شكل :

ايهما سيبادىء الاخر بالعدوان ؟ فان الجواب يكون :

ان كلا من الجانبين يعرف نواحي الضعف عنده اكثر مما يعرف نواحي القوة والضعف عند الاخر ، ولذلك فنحن لا نرى بان ايا منهما سيبدأ الاخر .

ان حتمية بقاء نظام وزوال اخر امر يستند الى المغالطة ، والتنبؤ بالمستقبل على اساس الماضي امر كثيرا ما كذبه التاريخ .
وعلى كل حال ، فان الامل سيظل للانسان مهما يحدث ، فدعنا نتعلق بذلك الامل .

السيطرة على التاريخ

« لقد بدأ التاريخ يتحرك » « ها هي عجلة التاريخ تدور »

هذا ما قاله الفيلسوف والمؤرخ الانكليزي المعروف « ارنولدتوينبي » في مقدمة كتابه « دراسات في التاريخ » :

والحق انه احسن التعبير عن الشعور في لحظة ربما مر بها الكثير

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

منا حين يتبصر في واقعنا التاريخي الحاضر ، او يتدارس نصف القرن الاخير .

وقد شعرت بذلك بدوري حينما زرت المانيا سنة ١٩٣٣ ، فرأيت « الاشتراكية الوطنية » تنتصر . لقد بدا لي ان هنالك اهتزازا في اساسات المجتمع الاوروبي منذ تلك اللحظة . وقد شعرت ان مفاهيم كثيرة ستنقلب ، وحضارات اخذت تتمايل . واكثر من ذلك ، استولى عليّ الشعور بأن اوروبا منقسمة على نفسها ، وستنقسم اكثر .

والحق ان اوروبا ظلت منقسمة منذ الثورة الفرنسية ، اذ ان عامل نقد الذات اخذ يقوى منذ ذلك الحين . كما اخذ نقد الواقع يندفع بشكل جنوني حتى برز في اواخر القرن المنصرم. وكانت المعرفة هي التي شحذت همته . فقد عرفت اوروبا البرجوازية في تلك الايام كيف تم بناء المجتمعات وانحلالها والقضاء عليها .

واذا كان مفكرو عهد الثورة قد نقبوا في بطون الكتب عن الاداب اليونانية والرومانية ، فانهم في اواخر القرن الماضي قد تفحصوا الظواهر الاجتماعية في حضارات اولئك الاقوام .

لقد تعاظمت اثينا وروما وبيزنطة ، ثم انقرض الجميع . وقد درسُ العلماء ذلك .

ومن دراساتهم نبعت « فلسفات التاريخ » . فالمرء لا يستطيع ان « يعيش » حرب الثلاثين سنة او حتى « حرب البلوبونيز » ،وهو في نفس الوقت يعاني من ويلات الحرب العالمية الاولى ، دون ان يسائل نفسه عن الاسباب لقيام تلك الحروب . وحينئذ يتفلسف . وتقوده فلسفته الى التحري عما ادت اليه تلك الحروب ، اي عن النتائج التي تمخضت عنها .. كان سقوط روما هو الذي اعجز القديس اوغسطين ان يدرك اسبابه ، فلم يجد له تعليلا خيرا من القول :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

« ان المرء لا ينتظر لمدينة صنعها الرجال الفانون ان تنال الخلود، ذلك لان الخلود هو من صفات مدينة الله وحدها » .

وفيما بعد ، جاء شبنكلر وراى مأساة اوروبا فكان منه ان وضع نظرياته بهذا الخصوص .

وجاء ماركس فتصور ان الحركة قد اصبحت ضرورية لاوروبا حتى تستطيع ان تساير ما رآه هو من حركة التاريخ .

والحق ان التاريخ يصنعه رجال يتصرفون حين يواجهون ظروفا لا خيار لهم فيها ، وتكون تصرفاتهم مبنية على اساس عادات وتقاليد سحيقة الاغوار في النفس البشرية بحيث يتراءى للناظر اليها انها تتأتى بفعل قوة غامضة مجهولة . وكثيرا ما يستطيع الفرد من هؤلاء ان يتخطى ظروف بيئته المعاصرة ومعاييرها فيغدو عبقري تاريخ . وكثيرا ايضا ما يعجز عن ان يفعل ذلك ، فيسير مع تيار التاريخ العتيق .

وما علم التاريخ وفلسفة التاريخ الا فرعين يهدفان الى غاية واحدة، هي محاولة تفسير ذلك التناقض بين تصرف الفرد التاريخي والفوضى المعاصرة له . وينطبق هذا القول على فلسفة التاريخ عند ماركس . تلك الفلسفة التي تأخذ بضع مظاهر بارزة في عدد من الوقائع التاريخية ، ثم تجزم ان تلك المظاهر هي عناصر حتمية في التاريخ . واكثر من ذلك تراها تحاول اقناع الناس بحتمية انطباق التاريخ اللاحق على التاريخ السابق ، ان لم يكن في وقائعه ، ففي مجراه وترابطه .

أليس هذا معناه انتزاع معيار جزئي مشكوك في امره ، ثم محاولة تفسير هذا المعيار ، ومن بعد ذلك القول بضرورة انطباق هذا المعيار على كل كامل ؟

انها لا تقول بأن الغرائز ، ولا الرغبات الطامية للنفس البشرية هي العنصر الفعال في التاريخ .. ولا .. ولا .. وانما ترى ان شكل وسائل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الانتاج هـو الذي يحرك عجلـة التاريخ .

وفي هذه الحالة نرى تجسيدا لعبادة وثن كبير هو صنم التاريخ . فمن ناحية نرى ان الشارحين للتاريخ من ذوي وجهات النظر المثالية يجعلون التاريخ مجموعـة متنافرة من الاحداث . ويرون ان كل حدث واحد هـو وحداني تمامـا ، اي انه منفصل تمـام الانفصال عن غيره . وبعد ذلـك يربطـون هذه « الوحدات » من التاريخ، فيخرج منها كاريكاتور مضحك نعم ، انهم يعترفـون بتشابك المعاني وتعددها للحدث الواحد ، ولكنهـم يظلـون يعترفـون بفردانيتهـا على كل حال .

اما خصومهم الماركسيون ، فانهم ينطلقون من ان التاريخ يسير في خط مستقيم ، وانه كل واحد جامد يمكـن لقاعدة واحدة ان تفسرغموضه. ومن نظرتهم القائلـة بـ « كلية التاريخ » هذه يبدو لهم ان حتمية التاريـخ امر لا جدل فيـه .

وعلى هذا الاساس يأخذهم العنادفلا يقبلون المناقشة ولا ينظرون الى تفسير اخر . وكذلك يقع عند خصومهم ، فالمشرعون في الولايات المتحدة مثلا ، لا زالوا يحكمون على ماركسيي العقد السادس من القرن العشريـن بنفس المقاييس التي كانوا يحكمون بها على آباء هؤلاء الماركسيين في العقد الثالث مـن القرن نفسه . هذا مع ان الامر قد اختلف .

وعلى كل حال فان الطرفين يغفلان عن نقطة واحدة ، هي ان التاريخ يعلمنـا الاحترام لاراء الغير ، حتى لو كـان اولئك الغير مـن خصومنا ، وحتى لو كنا في حرب شعواء معهم ..

ان اختلاف الرأي لا يعمي رجل العلم ، وانما تراه يعشي عيني مـن يدعي العلم . وينطبق هذا القول اكثر ما ينطبق على الماركسيين الذين يرون ان الرأسمالية (حسب قولهم) يجب ان تزول ، ثم يستنتجون من ذلـك انه لا حاجـة للسماح لها بالبقاء ، ولهذا فانهم لا يودون بسط ما يفرضونه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ثم مناقشته على اساس المنطق الواقع .

هذا بينمـا ان ذلك الواقع ينفي مزاعمهم . فالمرء لا يستطيع ان يفهم التاريخ ويعيه ما لم يأخذ جماعه مرة واحدة . انه سيظل عاجزا عن ادراك قيمة الفـن في كنيسة ريمس ما لـم ير القباب في معابد طوكيو . وهـو لا يستطيع أن يشعر حقـا بمساوىء او حسنات الحضارة الاوروبية ما لـم ينظر اليهـا بعين ابن الشرق في بومبي ومدراس .

ان التاريخ كل واحد .. فينبغي ان نظل ندرس تقدم الانسان على طوله ، وان نكتشف كل يوم درسا جديدا لم تكن نعرفه بالامس حتى نظـل نسير معه . ومن الواجب ان لا نحكم برأي شبنكلر ولا رأي توينبي . فالاول يرى ان الانسان حيوان ضار مفترس ، والثاني يراه لم يخلق الا ليظـل يرتقي حتى يتحد بالله . وكلا الرايين غير واقع ، فالانسان حيوان مفترس كمـا انـه يرتقي دومـا . وهذان « الشكلان » متساوقان ، بـل انهمـا متحـدان معـا .

ولنحاول الان ان ننفذ الى مـا يصطرع عليه المؤرخون في كل مـن الجانبيـن فنقول :

وحتى لو فرضنا ان ارتقاء وسائل الانتاج ستقضي على الملكيةالفردية، وعلى علاقات الانتاج الحاضرة ـ سواء كـان ذلك القضاء كثيرا او قليلا ـ فان شكـل المجتمع الذي سينبثق في تلك الحال ليس محتومـا ان يكـون شبيها او حتى قريبا من شبيه بالمجتمع الذي تدعو اليه المبادىء الماركسية. الا يرى الماركسيون الان ان قوى الانتاج في الوقت الحاضر اكثر فعالية في ديترويت منهـا في خاركوف ؟ اليس هذا يعني بأن اللجوء الى الحتميـة لتفسير احداث التاريخ فيه من الغرور والعناد اكثر مما فيه من المنطـق والواقـع ؟

ولا ترى الستالينية ان جميع المجتمعات لا بد ان تمر بنفس المراحل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

التي تؤدي بهـا الى الاشتراكية ،وهي تقول :

ان الاشتراكية يبدأ تطبيقها فقط عندمـا يستولي الحزب على الحكم.

ولكن هذا الحادث يتضمن احتمالات كثيرة ، وكثيرة جدا .

وهكذا نرى ان الديالكتيك يغدو عتيقا لا يتفق والعصر كلمـا تقدم به (الديالكتيك) العمر . وكذلك النظرة الى مجتمع لا طبقات فيه على النحو الذي يفهمه انصار ماركس . اليس عجيبا مثلا ان هذا الانسان الـــذي استطاع في الوقت الحاضر ان يذلل الطاقـة الذرية ، والذي هو بسبيـل تذليل الطاقـة الشمسية والاستفادة منهـا عما قريب ، يكون ، او يظـل في المستقبل عاجزا عـن تجنب تلـك الفوضى التـي تحتمها الماركسية في التاريـخ ؟

أو ليس اجدر بنا ان نقول ان الانسان قد كسب أو سيكسب مـن الذكاء مقدارا كافيا يصرفه عن استعمال نفس العشرات من الاخطاء الكبيرة التي اقترفهـا في تاريخه الماضي ؟

انني ارى ذلك اقرب الى الصواب ، بل انه هو المدلول الـذي يشير اليه الحاضر الآني عن المستقبل .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الخامس

الثقافة والسياسة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المثقفـون ووطنهـم

كان لكل مجتمع من المجتمعات القديمة عدد من الكتبة الذين يقومون بالشؤون الكتابية والادارية في بيئتهم ، وعدد اخر من الفنانين ورجال الادب، الذيـن اغنوا حياة بلدهم ومعاصريهم بافكارهم وثقافاتهم ، وعدد ثالث من الخبراء او ذوي الاختصاص ، سواء من المشرعين الفقهاء او العمال الماهرين. ولكن هذه الفئات الثلاث لا علاقة لهـا بمجتمعنا الحاضر بوجه من الوجوه.

لقـد خلفت النهضة الصناعية الاخيرة اثرا كبيرا على المثقفيـن فصنفتهم حسب معايير جديدة مغايرة . ويختلف توزيع قوى الايدي العاملة في مجتمع ما حسب تقدم او تأخر ذلك المجتمع من ناحية اقتصادية . وها نحـن نشاهد مثلا ان الايدي العاملة هي التي ترتفع نسبتها في بلد صناعي، بينما تنخفض نسبة المشتغلين بالزراعة . اما الخبراء او الاختصاصيون على اختلاف مجالات اختصاصهم ـ من العامل اليدوي الى البحاثـة في المختبر ـ فان نسبتهم ترتفع ارتفاعا جنونيا بشكل دائم . ويمكن القول ان الظاهرة العامة في مجتمعات القرن العشرين المتقدمة هي ذلك الجيش الكبير من رجال التكنيك والادارة . اذ ان الناحية الادارية ـ اي اليدوية هي التي يزيد تعقيدها يوما بعد يوم مع ارتقاء التكنيك .

وحتى الاقتصاد الحاضر فانـه يتطلب بروليتاريا ، ولـكن ليست بروليتاريا لا تعي شيئا ، بل اخرى يكون الفرد فيها قادرا على ان يقرأ وان يكتب . ولهذا نجد ان المجتمعات الحاضرة تكون نسبة الاموال المخصصة فيها للانفاق على التعليم مرتفعـة حيث البلد اكثر تقدمـا في المجـال الاقتصادي ، واقل من ذلك في الحالة المناقضة .

ومن طبيعة الفئات الثلاث الآنفة الذكر ان تجد لها منفذا في المجتمعات التي تسيطر عليها البيروقراطية . ولهذا نجد الحاجة متزايدة لاستخدام افراد هذه الفئات كل يوم . وربما ظن المرء ان مجموع هذه الفئات او ما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يطلق الناس عليه لفظ « المثقفين » يكون طبقة او كتلة متراصة يهمها كثيرا ان تحافظ على استقلالها وحريتها في العمل . والحق هو غير ذلك . فقد ظل هؤء المثقفون طوال التاريخ يخدمون من يقدم لهم قوتهم اليومي . لقد ظلوا دائما رفاق رجال الدين طالما انرجال الدين هم المسيطرون على الحكم، ثم خدموا الحكام الزمنيين حين استطاع هؤلاء ان يستحوذوا على السلطان، وبهذا يكون المثقفون ــ من ناحية اجتماعية ــ عالة على من يقدم لهم الخبز : الكنيسة ، او الاثرياء ، او الدولة . ومن ذلك نتج ان معنى الفن ، لا مركز الفنان نفسه فحسب ، قد تغير وتبدل حسب مصلحة الطبقة الحاكمة ، اي الطبقة التي يعتمد عليها الفنان في ضمان طعامه .

وهنالك اختلاف عن هذا الحال في الوقت الحاضر ، فالعلماء اليوم قد تخلصوا من هذه القيود التي كبلت اجدادهم . وعلاوة على هـذا ، فـان الكثير منهم يزاول عمـلا خاصا يضمن به عيشه غير عملـه كعالم بحاثة . ومع ذلك فان شركات السينما مثلا تستطيع ان تخنق فكرة لا تريدها وان كانت لا تفرض ارادتها على الخبير او العالم او الفنان الـذي توظفه حين يكون خـارج استوديوهاتها للعمل .

مـن هو المثقف

قلنا ان عـدد العمال الذين يحتاجهم المجتمع المتقـدم من غير فئة العمال اليدويين آخذ في الارتفاع بشكل متزايد . ونضيف الآن قولنا انه ليس جميع هؤلاء من فئة المثقفين . ذلك ان كلمة مثقف لا تـزال تضيق حدودها ، أي ان انطباقها على رجل بعينه آخذ في النقصان ، فما كـان يعتبر مثقفا في مطلع القرن العشرين مثـلا قد اصبح خارج مدلول هذه الكلمة في الوقت الحاضر . فالضارب على الآلة الكاتبة لا يعتبر مثقفا حتى وان كان يحمل وثيقة تشهد بتخرجه من صفوف الدراسة في الجـامعة . هذا في فرنسا او انكلترا ، بينما يختلف الحال عن ذلك في البلاد المتأخرة ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فهناك يعتبرون كل من يحمل شهادة جامعية على انه مثقف .

وهناك تعريف آخر يضيق المفهوم العام لكلمة مثقف ، وهو ما يفصل بين الخبير والاديب . والحق ان هاتين الفئتين من الناس متداخلتان بحيث يظل الواحد من افرادهما ينتقل طورا في هذه المجموعة وطورا في تلك . فالاطباء مثلا يظلون مستقلين عن كلتا الفئتين . ولربما كان القول بانهم يتعاطون مهنا حرة اصح من القول بأنهم من فئة المثقفين .

وهنالك فرق بين من يعمل لنفسه وبين من هو موظف ، فالطبيب المتعاقد مع احدى مصالح الدولة لا يفدو مجرداً من كونه ضمن فئة المثقفين لمجرد انه يتقاضى راتبا مقطوعا ، وكذلك الطبيب الحر لا تثبت له صفة « كونه من المثقفين » لمجرد انه حر في عمله . وكذلك المهندس المعماري او المهندس الميكانيكي . اما المحامي ورجل الادارة فمن العادة ان يجري تصنيفهم مع الادباء والفناتين في حين ان الواقع يجعلهم اقرب الى نطاق الخبراء منهم الى نطاق رجال القلم والكلمة .

كل هذا الغموض ينشأ عن التشويش والخلط في معنى كلمة مثقف . ولهذا فاننا نجد من الخير ان نبحث القضية من جذورها .

ان الشعراء والروائيين والرسامين هم الحلقة الصغرى للمثقفين لانهم يعيشون من مواهبهم وعن طريق استخدامها . واذا كان للمرء ان يجعل النشاط الذهني هو المعيار الحقيقي لتصنيفه فان السلم سيهبط به من بلزاك الى كتاب قصص اليوم للاطفال .

والفنانون الذين يظلون يجترون افكار الماضي دون ابداع شيء جديد، واساتذة الجامعات ، ورجال البحث في مختبراتهم : كل هؤلاء يشكلون الهيئة العامة التي تقوم على شؤون المعرفة والثقافة في الوقت الحاضر . وهم من المثقفين .

ويأتي دونهم في المرتبة الصحفيون ، وموظفو مختلف اجهزة الاعلام،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

من الراديو الى التلفزيون الى شركات الدعاية . ولكن الامر مع هذه المجموعة يختلف عن سابقاتها . فبمجرد ان يصبح الفرد من هؤلاء عبدا للمال او ذوق الجمهور ، اي حين يكف عن الابداع من عندياته ، يتجرد من كونه مثقفا .

ربما كان هذا التصنيف مقبولا لدى البعض ، ولكنه في الواقع يتجاهل امرين بالغي الاهمية ، اولهما : المركز الاجتماعي ومصدر الدخل ، والثاني : الهدف الموضوعي .

ولو قبلنا به على علاته لصار بوسعنا ان نقول : لقد كان باسكال مثقفا برجوازيا من عائلة ذات صلة بالمراكز البرلمانية ، وديكارت مثقفا فارسا . ولم يكن رجل القرن السابع عشر يعتبرهم على هذا النحو ، لان ثقافتهم كانت هواية في تلك الايام . اما الآن ، فان الهواة لا يكفون عن كونهم مثقفين لمجرد انهم هواة . هـذا اذا جعلنا القدرة العقلية هي حجـر الزاوية في الموضوع .

اما من حيث الهدف الموضوعي ، وهو العامل الثانـي الـذي اهملـه التصنيف السابق ، فان استاذ القانون في الجامعة يبدو اقرب الى كلمـة مثقف من المحامي . مع ان استاذ الجامعة يتقاضى راتبا مقطوعا ، ويقوم بعمل ثابت ، في حين ان المحامي بخلاف ذلك . والسبب الذي يجعلنا نقول هذا هو ان الهدف الموضوعي للاستاذ هو خدمة مجال معين من الثقافة في نطاق قدرته ، وعلى صورة محددة . ولا ينطبق ذلك على المحامي .

ومما اسلفنا يمكن استنتاج ان كلمة مثقف ليست ذات مدلول معين ، بل ان مدلولات متغيرة حسب المجتمع نفسـه ، وحسب درجـة ازدهاره الاقتصادي او تأخره على وجه الخصوص .

وفي الاتحاد السوفياتي مثلا ، يميلون الى اعتبار كلمة مثقف قصرا على ذوي الاختصاص في ناحية ما . فالكتاب والشعراء مثلا معتبرون على انهم مهندسون مجال نشاطهم هو النفس البشرية ذاتها .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ويبدو ان عبارة « طبقة مثقفة » قد جرى استعمالها اول ما جرى في روسيا في القرن التاسع عشر . وكان معناها اولئك الشباب الذين اتموا دراستهم الجامعية بصورة من الصور . ولما كان هؤلاء يكادون يكونون محصورين في ابناء البيوتات الارستقراطية او ملاكي الارض الاثرياء او كبار موظفي الحكومة ، فان هؤلاء الشباب سرعان ما وجدوا شبه رباط يجمع بينهم . وكان هذا الرباط هو الافكار الليبرالية التي غرستها في مداركهم روح العلم الحديث . وقد تزايد اثر ذلك الرباط ، فشعر اولئك الشباب بما يشبه وحدة المصير ، وظنوا انهم طبقة خاصة في المجتمع . ومن هنا نشأ الميل الى الروح الثورية .

اما في المجتمعات الاخرى حيث توسع ميدان الثقافة برفقة التقدم في المجالات الاخرى فقد ظل الانفصال عن الماضي اقل عنفا . اي ان الميل الى التجديد عند الشباب المثقف لم يكن على شكل ثورة ، كما وقع في روسيا . ولا يزال المثقفون في البلدان الغربية متهمون بانهم اميل الى قلب الاوضاع الحاضرة ، واليساري في الغرب يعتبر ذلك الاتهام صفة مدح لا مقت . وهو يقول :

« واذا لم يبرز اي ميل الى التجديد ، ترى كيف يتم بناء مستقبل ما ؟ وهل تريد مني أن احتفظ بشرور الماضي ومساوئه » .

وليس هذا يعني ان المثقفين اعداء لكل مجتمع . فاهم مثقفو الصين القدامى كانوا يعظون بتحسين الاوضاع ويلحون في ذلك ولكن دون ان يلمحوا الى امكانية اللجوء الى الثورة او العنف . لقد كانوا ينشدون ارتقاء في اخلاقية الفرد ، وعن طريقها يضمنون احقاق التقدم والخير لمجتمعهم .

وكذلك ليس يعني هذا ان المثقفين هم دعاة التعقل والتروي ، فبين جدران اثينا يقع المرء على معجبين كثيرين بالنظام الاسبارطي الصارم . واقرب من ذلك مثلا .. ان في باريس نفسها الكثير ممن كان يعجبهم نظام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الريخ الثالث ، ولا يزال يعجبهم النظام الروسي في الوقت الحاضر .

ومجمل القول : **ان لكل نظام ، من الديمقراطية الى الليبرالية ، الى القومية ، فالفاشية فالشيوعية ، دعاته والمنافحين عنه . وفي كل نظام تجد هؤلاء المثقفين ، او بعضهم على الاقل ، يقومون بمهمة الدعاوة لذلك النظام وتفسيره وتبرير اخطائه لدى جماهير الناس .**

ومن شأن هذا ان يجعلنا نقول : آن طبقة المثقفين ليست طبقة ، ولا مجموعة متميزة عن غيرها . فكل من تسمح له ظروف خاصة بالاطلاع على قدر من المعرفة يصير يسعى الى طريقة يفرض بها على غيره ان يقدره . وها هو افلاطون الارستقراطي النشأة مثلا لا ينكر على العبد الرقيق قدرته على تعلم الرياضيات في زمانه . وها هو ارسطوطاليس لا ينكر ضرورة وجود الرق ، وان كان ينسف اساساته . لقد كان لا يقبل بالرأي القائل ان كل انسان يحتل المركز الذي يلائم طبيعته ، ولذلك تراه حرر جميع الرقيق عنده قبل وفاته .

وبهذا المعنى تجد المثقف يدعو الى المساواة حسب القدرة العقلية ، مع انه بهذا يكون يدعو الى ارستقراطية عقلية . اذ انه من الطبيعي ان يختلف الناس في مواهبهم فتنعدم المساواة في تلك الحال .

ويختلف الالتحاق بطبقة « مثقفين » بين مجتمع وآخر ، ففي الصين مثلا كان هنالك فحوص وامتحانات تسمح حتى لابناء الفلاحين الفقراء ان ينالوا تلك المرتبة اذا اثبتوا قدرا محددا من الكفاءات . اما في الهند فان نظام الطبقات الاجتماعية كان يرفض ذلك . وفي الشرق الادنى والاوسط نرى ان الاكاديميات العسكرية مثلا تسمح بنقل الفرد العادي الى مستوى هذه الطبقة ، الا ان هذه الكليات العسكرية يقصر حق الانتساب اليها على مستوى خاص من الثروة في المجتمع . وحتى في فرنسا وانكلترا ، وبالرغم من توسع التعليم الى درجة كبيرة ، فانه من النادر ان نجد ابناء العمال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اليدويين من خريجي الجامعات .

وها هي بعض الجامعات والكليات المعينة في بريطانيا تكاد تكون قصرا على فئة خاصة .

ومن الطبيعي ان تكون الفئة المثقفة اوسع في شمولها من الطبقة الحاكمة . ذلك لان التقدم التكنيكي الصاعد يظل يتطلب كوادر متزايدة من الاختصاصيين. وهذه الطبيعة الديمقراطية نفسها هي التي تظل تبدو وكانها مهد للثورة .

وقد كان هذا الامر في صالح الحاكمين في الاتحاد السوفياتي . اذ انهم اظهروا للمثقفين، ان هؤلاء الاخيرين هم نتيجة صلاح النظام الاشتراكي، مع انهم في الواقع نتيجة محتومة لظاهرة التطور الاقتصادي والتوسع الصناعي الذي قامت به روسيا .

*

والمثقف هو رجل الافكار ورجل العلوم . وهو الذي يؤمن بنظرة معينة تجاه الانسان والفكر . ولما كانت المفاهيم التي تبثها الجامعات الحاضرة مفاهيم عقلانية تفاؤلية ، فان المثقف الحاضر سرعان ما يأخذ في انتقاد الواقع على امل استبداله بخير منه . ولكن روح الانتقاد تغلب عليه فيتعامى عن رسم هيكل عام للعالم الذي يريد .

وحين يبدأ مثل هذا في انتقاد واقعه يصطدم بعقبات كثيرة . ويتم ذلك على مراحل ثلاث :

اولاها : انتقاد الشكل ، او ما يسمى انتقاد التكنيك ، وهو بذلك يضع نفسه في منصب الحاكمين ، ويود ان يفعل كذا وكذا بدلا من اخطائهم في هذه الناحية او تلك .

وثانيها : انتقاد الاخلاقية ، او انتقاد الروح في التصرف . والمرء بذلك يود ان تنطلق تصرفات الحاكمين عن كذا وكذا وكذا من الدوافع ، وبقصد هذا وذاك من الغايات .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وثالثها : انتقاد الايديولوجية : والمرء بذلك يأخذ في الهجوم على المجتمع الذي يعيش فيه بشكله الحاضر والدعوة الى مجتمع منشود في المستقبل .

وحين تتم هذه المرحلة من الانتقاد تبدأ نفس المثقف تراوده في ضرورة النزوع الى ابراز طاقاته في النشاط السياسي ، فتتلقفه العناصر الهدامة وتحيطه بصنوف المشجعات والمغريات ، وسرعان ما ينجرف في تيار الثورية التي تتناقض مع كل مقومات ثقافته من اصالة وعقلانية والاخذ بأهداب التطور السليم .

السياسة والمثقفون

يخطىء من يظن ان للمثقفين كطبقة ، او على الاصح كفئة مميزة ، أي تأثير معين يختلف عما لغيرهم من وجهة النظر السياسية . فاستجاباتهم للشؤون السياسية تكاد لا تختلف عن غير المثقفين بصورة من الصور . انهم ممتلئون بالغرور ، والاحقاد ، وعمى التعصب . ولهذا فانك تجد روائيا منهم مثلا يصب جام غضبه على البرجوازية في حين يكون هو نابعا من اعماق تلك البرجوازية . بل وتكون البرجوازية هي التي قدمت له الفرصة ليكون روائيا .

وكذلك الاطباء والمحامون وامثالهم ، تجدهم يلحون في مطالبهم باصرار عندما يلوح لهم ان مصالحهم قد باتت قريبة من ان يمسها خطر وينطبق هذا على الموظفين سواء في الشركات او الحكومات ، فتراهم مستعدين لان يستهجنوا دافع الربح كعامل اساسي في تكوين نظام مجتمعهم .

ولا بد للمرء حين يصنف آراء المثقفين السياسية من ان يعود الى اصولهم في المجتمع . خذ فرنسا مثلا : ان اي متدارس لاوضاع المثقفين فيها يجد ان المعلمين وكثيرا من الطلاب في مناطق معينة من البلاد يغلب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ان يكونوا ميالين الى اليسار ، في حين انه يجد معاهد السياسة الراقية أميل في برامجها وروحها الى المحافظة .

اما فيما يختص بالوسط العلمي ففيه نزاع كثير ، اذ ربما يجد الباحث ميلا يساريا في فرع معين من العلوم ، يقابله انعطاف الى اليمين في فرع آخر .

وتختلف مواقع المثقفين في البلدان الانجلوساكسونية عنها في مثيلتها البلدان اللاتينية . ولا شك انه قريب من الصواب ما عزاه بعض المعلقين السياسيين الى ما يلي :

لقد فشلت الحركة الاصلاحية في البلدان اللاتينية ، وتعددت المذاهب الدينية ، واخفقت الكاثوليكية ان تتطور ، في حين ان البلدان الانجلوساكسونية قطفت ثمارا معقولة من الحركة الاصلاحية ، ووحدة المذهب الديني ، وقدرته على التطور .

ولهذا نرى ان المثقفين في فرنسا موزعون بين الولاء للكنيسة والولاء للطبقة الحاكمة .. ولكنهم في الحالين يبغون التطوير . وهم يعتبرون الكنيسة ورجالها أعداء لهم على وجه العموم .

اما رجال الطبقة الحاكمة فقاعدة علاقة المثقفين بهم يسيرة للغاية . فكلما قربت الهيئات الحاكمة هؤلاء المثقفين من عرشها ، خفت حدة نقمتهم عليها ، بل سايروها ومدحوها وخلقوا لها من مبررات البقاء النظرية ما تشاء. اما اذا ابعدتهم عن عسلها وسمنها ، فان ذلك يجلب لها انواعا من الشتائم والنقمة ومختلف اصناف الاتهامات والدعوات بقرب الزوال .

وشكرا لنجاح الحركة الاصلاحية في بريطانيا . فقد بينت للحاكمين والمثقفين موقف الفئة منهما من الاخرى . لقد جعلت الحاكمين لا يفقدون ثقتهم بانفسهم حين يهاجمهم المثقفون ، كما جعلت المثقفين انفسهم اقرب الى الواقعية منهم الى الركض وراء الخيال الموهوم .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكان لهذا اثر لا بأس به على القارة الاوروبية بكاملها . فهو الذي خفف من نفوذ المثقفين الفرنسيين مثلا .

وللازمة الاقتصادية ، حين تقع في بلد من البلدان ، اثر عجيب على احاسيس المثقفين في ذلك البلد . ففي ازمة ١٩٣٤ في فرنسا او ازمة ١٩٤٠ ، رفع المثقفون رؤوسهم يدعون الى ضرورة الاخذ بنظام الفردوس السوفياتي . وكذلك فعل البعض في بريطانيا . وحتى في الولايات المتحدة رأينا من تخرجه الازمة عن اطواره فيدعو الى تحطيم حريته سعيا وراء السراب .

هذا ، ومن طبيعة المثقفين ان ينعكس عليهم اثر نظام الحكم القائم في بلدهم ، فهم يذعنون ويخفضون رؤوسهم اذا كان الحكم صارما ، ولكنهم يملأون الدنيا ضجة وصخبا اذا كان متراخي القبضة يقبل الاخذ والرد . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فانهم يعشقون مجد بلدهم . ولذلك تراهم يتسامحون الى حد ما في سوء الحال الاقتصادي وفساد النظام ، ولكنهم لا يتسامحون ابدا اذا كان هنالك ما يشير الى جرح كرامتهم الوطنية . وليس يعني هذا انهم اكثر وطنية من غيرهم ، كلا ، وانما معناه انهم اقدر من غيرهم على اظهار ذلك بما يحوزونه من وسائل التعبير والقدرة على التأثير في اذهان الناس .

ولنأخذ المانيا مثلا :

ففي عهد امبراطور آل هوهنزلرن ، كان المثقفون اقرب الى الروح المحافظة ، ولكنهم مالوا الى النقمة عند زوال الامبراطورية . وفي عهد جمهورية ويمار تحرك المثقفون بعامل العزة التي سبق ان ضاعت . وما ان اطلت النازية حتى كانوا هم حماتها والداعين لها . وصحيح ان بعضهم قد ناواها ، ولكن هؤلاء ظلوا قلة لا شأن لها . اما الاكثرية الساحقة فقد رأوا فيها ما يرفع شأن بلدهم بجيوشه الجرارة المجهزة . واخذتهم العزة الوطنية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

فساروا في الركاب .

واليك مثـلا آخر :

لقد كان استحواذ الفرنسيين على جميع الوظائف في تونس ومراكش هو الذي اثار نقمة العرب هناك .

ومن كان هؤلاء الناقمون ؟

انهم المثقفون العرب الذين تلقوا دراساتهم في الجامعات الفرنسية . لقد ارد هؤلاء لانفسهم حق المشاركة في شؤون بلدهم فاصطدموا بالاحتكار الكامل للوظائف ، ولذلك سرعان مـا انقلبوا ثوريين يريدون طرد من يقفون في طريقهم .

وحيث يكون هنالك شبه شراكة بين الطبقة الحاكمة وبين كبار التجار، والاقطاعيين ، وشيوخ العشائر في بلد متأخر ما ، يميل المثقفون الذيـن يجدون سبيل الارتقاء امامهم مسدودا ، الى الاخذ بالميول الماركسية . ذلك لأنهم يتوهمون فيها منفذا سهلا لمطامحهم ، كما يظنونها تعبيرا عـن سوء واقعـهم ذاتـه .

وكذلك الحال في البلدان الصناعية حين تعجز الحكومات فيها عن ايجاد اعمال للمثقفين . فالشاعر مستعد لان يمدح النظام القائم ما دام هو يستطيع في ظله ان يجد ما يعيش به . اما الخبير التكنيكي فانه يود ان يزاول خبرته حتى ولو توفر له القوت الذي يريد .

فردوس المثقفين

ان فرنسا هي فردوس المثقفين . والمثقفون في فرنسا ثوريون . فما هذا التناقض يا ترى ؟

يأتي المثقفون ، وحتى اعضاء البرلمان الانكليزي من خلف القنال الى باريس ، وهناك تبهرهم النشاطات الثقافية والادبية في سان جرمين ، والسوربون ، وغيرها . والحق انهم يستمعون الى نقاش دقيق رائع ما كانوا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يحلمون به في جامعاتهم .

هناك يتحلق الشباب الفرنسيون ليناقشوا المقال الاخير الذي نشرته الصحف بقلم جان بول سارتر .. ويعتبرونه توجيها سياسيا او ادبيا ، او غير ذلك . مع انهم ربما لم يفهموه في الواقع على حقيقته ، وحتى حين يفهموه ، تراهم يضيفون اليه الكثير من عندهم .

حقا ان فرنسا فردوس المثقفين .

ولربما اعترض قارىء بان هذه صورة سطحية للغاية ، وانها تليق بنشرات الدعاية للسياحة اكثر من كونها حقيقة علمية ، وفي هذا الاعتراض قدر من الوجاهة كبير . فالحق ان المثقفين الفرنسيين ليسوا اقل من باقي الشعب شعوراً بوطأة المشاكل الاقتصادية .

وهنالك الكثير من الكتاب والروائيين الذين يظنون ان كتبهم سيزداد الاقبال عليها فيما لو طبعتها الحكومة على نفقتها وقامت بالدعاوة اللازمة لها.

وهنالك العلماء الذين يعانون العمل في مختبرات غير كاملة التجهيز، ويظنون ان حكومة جماعية كحكومة الاتحاد السوفياتي ستكون اوفر سخاء عليهم ، فتمدهم بما يحتاجونه من التجهيزات حتى يتابعوا بحوثهم .

وهنالك الصحفيون الذين ينقمون على رواتبهم الضئيلة حين يقارنونها برواتب زملائهم الامريكيين في المجلات الكبيرة .

ولكن كل هذا لا ينقض الرأي القائل بان فرنسا هي فردوس المثقفين . فما تعليل ذلك ؟ لا شك ان الاسس العقلانية التي قامت عليها هي التفسير الصائب لهذا الامر . ففي تلك العقلانية استطاع المثقفون الفرنسيون ان يجدوا الوقت الملائم للتعبير عن افكارهم . واستمرت موجة العقلانية في امتدادها ، وجاء الانقلاب الصناعي ، فلم يكبح جماحها بل زاد في قوتها وطغيانها ، ثم تبعه عصر التكنيك ، فكان هذا زخما جديداً يضاف الى ما سبق .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد اتجه المثقفون الفرنسيون الى الناحية النظرية الصرفة ، وما اسهل ذلك ! وبهذا جعلوا انفسهم غير مسؤولين عن العقبات العسيرة التي تعترض تطبيق آرائهم ، فصار لهم هذا النفوذ الواسع في عالم الثقافة وان كانوا ذوي اثر اقل بكثير في عالم الواقع العملي .

وقد زاد الامر تشابكا ان تعاقبت على الحكم في فرنسا حكومات لم تستطع ان تمسك بزمام الامور على خير وجه ، فكان الوزير يطمح في ان ينال مرتبة الاديب الناجح ، في حين ان ذلك الاديب يحلم مجرد حلم ان يكون وزيرا .

وبهذا صار الموظف يتنطح لمعالجة عويصات القضايا التي يعترف هو بانه لا يعرف عنها شيئا ، ومع هذا يجد لنفسه جمهورا كبيرا من المستمعين. وذلك بخلاف الامر في كل من بريطانيا والولايات المتحدة والمانيا .

ولا يجوز ان نغفل عادة فتح الصالونات الادبية في فرنسا ، تلك العادة التي لا زالت بلادنا تحتفظ بها بالرغم من اننا نعيش في عصر تسوده التكنولوجيا الرفيعة لا التشدق بالالفاظ .

ومن شأن كل ما سبق ان يجعل اجتذاب المثقفين للسياسة في فرنسا اقل من مثيله في اي مكان آخر ، اي ان الاثر الذي يتركه المثقفون في فرنسا على سير السياسة المحلية العامة هو اقل من الاثر الذي يتركه زملاؤهم الانكليز على مجرى السياسة في بلادهم .

وفي الولايات المتحدة او بريطانيا او المانيا نجد ان الافكار والاشخاص يجدون مجالا واسعا للانتقال من وسط الى آخر ،ومن حلقة الى اخرى من حلقات رجال الصناعة والبنوك وكبار الموظفين . بخلاف الحال في فرنسا .

فالتاجر الفرنسي ، او حتى صاحب مؤسسة العمل ، نادراً ما يلجأ الى عالم الاقتصاد ، او الخبير الاقتصادي يطلب مشورته حين يعترض مؤسسته مشكلة من المشاكل . ليس هذا فحسب ، بل انه منذ بضع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

سنوات فقط ، كف رجال الاعمال الفرنسيون عن النظرة الى تلك الفئة من الناس بعين الازدراء والامتهان .

ونحن نعرف مثلا ان خير عامل من عوامل ازدهار امة ما ، هو سرعة تبادل الافكار بين افرادها . وليس المقصود بذلك ان يؤلف اصحاب الافكار لانفسهم حزبا يكون همه الاستيلاء على السلطة ، كلا ، بل ان يتبادلوا تلك الافكار مع غيرهم على اوسع نطـــاق ، ولا يظلون منعزلين في قواقعهم الكئيبة . وليس هذا التبادل موجودا بأسوأ منـــه عند الطبقة الحاكمة الفرنسيـــة .

ولا يأخـــذ الكاتب الفرنسي على حكومته اهمالها تدريس الاقتصاد السياسي في الجامعة ، قدر ما يأخذ على الحياة الامريكية كيف انها تعمل على تحويل المثقف الى خبير مستأجر . وكذلك ترى الاديب الفرنسي ينعي على السياسي الفرنسي انه لا يقبل التشاور قدر مـــا يتقبل الاغراءات التي تلوح له بها مصالحه الخاصة .

وهكذا تجد المثقف الفرنسي مفعم الشعور بالنقمة ، ومتعطشا الى تغيير واقعه . ويدفعه هذا بدوره الى عدم التبصر في امر الحال التي يريد ان ينتهجها ذلك التغيير . انه يريد الثورة ، ودون النظر الى اتجاه تلك الثورة او التفكير في عواقبها الوخيمة . وكثيرا ما يجذبه مثل بناء التاريخ من جديد ، فتراه يدعو الى زيادة الانتاج . وحينئذ يقع في ورطة كبيرة .

لقد خرجت كل من فرنسا وبريطانيا من الحربين الاخيرتين فقيرتين ، شأنهما في ذلك ، وهما المنتصرتان ، شأن المانيا المقهورة . وخرجت الولايات المتحدة مزدهرة بما فيهـــا من طاقات اقتصادية كامنة وبفضل الابتعاد عـــن ويلات الحرب وتدميرها . وكان هذا مما زاد من نفوذ امريكا في اوروبا . وهو ايضا احد العناصر التي تثير المثقفين الاوروبيين ، والفرنسيين منهم خاصة ، على نجاح الولايات المتحدة .

لقد كانت لكل من بريطانيا وفرنسا امبراطورية واسعة ونسبة معقولة من كمية الاستثمارات العالمية . وقد زال معظم ذلك ، او انه على وشك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الزوال القريب . في حين ظهرت امبراطورية رهيبة في القارة الاوروبية هي الامبراطورية السوفياتية . وفرنسا وبريطانيا مهددتان بالابتلاع ، وهما تريدان المحافظة على وجودهما ، ولكنهما لا تستطيعان ذلك دون اللجوء الى طلب المساعدة من الغير . وفي هذا ما فيه من جرح لمشاعر المثقفين في البلدين . فكيف يطلب المرء منهم ان يسمحوا لدولة كبيرة كالولايات المتحدة ان تستفيد من اخطاء دولتيهما في حين تظل تلك الدولتان عاجزتين عن ذلك ؟

لقد تولد عندهم شيء من الحسد . فالمثقف الاوروبي يجد عسيرا عليه ان يتقبل بحقيقة العظمة الامريكية الصاعدة في حين يرى الاضمحلال يأخذ مجراه ببلاده الى الانحدار .

ليس هذا فحسب ، بل ان مسلك الولايات المتحدة نفسه ليس فوق متناول اللوم .

ومن الطبيعي ان تكون الدولة الاقوى غير مرضي عنها . فقد كانت بريطانيا مكروهة ايام كانت تسيطر على رقعة شاسعة من الارض تتخذها امبراطورية لها . وكانت سياستها ممقوتة في نظر الدول الاضعف . وقد انتقل مثل ذلك اليوم الى الولايات المتحدة .

ومن تقرير الواقع القول بان بريطانيا قد استعادت الان شيئا من هيبتها ، لانها تخلت عن كونها المرجع الرئيسي في اصدار التوجيهات السياسية الحاكمة . وخصوصا فيما يتعلق بالمرونة التي ابدتها حين استفادت مما تمليه قوة الولايات المتحدة الحاضرة ، فسلكت سبيل الاخذ والعطاء مع موسكو وبكين .

وذلك بخلاف فرنسا التي ركبت العناد مع كل من امريكا قلم تتعقل في تصرفاتها معها ، كما انها ركبت رأسها في علاقاتها مع الشيوعيين .
ولربما تساءل المرء عن المنهج الذي سلكته الولايات المتحدة بهذا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الخصوص . فالحق ان السبيل التي اتبعتها السياسة الامريكية ، كانت مرضية للاوروبيين من ناحيتيها ، السلبية والايجابية . فمن حيث الايجابية، ساعدت القروض الامريكية الضخمة الى قدر كبير على اعادة بناء الاقتصاد الاوروبي . ومن الناحية السلبية ، قامت الولايات المتحدة بمحاولات حثيثة لتحرير بلدان اوروبا الشرقية الواقعة تحت النفوذ الروسي .

وعلاوة على هذا ، فقد عملت الولايات المتحدة جهدهـا في منع انتشار الشيوعية في بلدان جديدة .

ولنأت الآن الى قضية روزنبرغ والمثقفين : لقد نجحت الحملة التي قام بها اليساريون في فرنسا دفاعا عن روزنبرغ ، ليس لان الفرنسيين اكثر حساسية من ناحية الحفاظ على العدالة من غيرهم ، وانما لاسباب اخرى. فالحق ان روسيا لم تقم بالدعاية الكافية لقضية روزنبرغ الا بعد ان تمت المحاكمة بشهور عدة ، وبعد ان وجد رؤساء الحزب ان هذه الحملة يمكـن ان تفيدهم في اخفات الضجة التي قامت في العالم حول مسألة انتقـاد ستالين . أما من ناحية فرنسا فان عامل النجاح فيهـا يعود الى عنصر الحسد الكامن لدى المثقفين الفرنسيين على نجاح النظـام الامريكي في الحيـاة .

ومن الطبيعي ان يتخذ هؤلاء المثقفون ادوارا تساعدهم في البلوغ الى غايتهم .

لقـد اخذوا يتباكون على حرية الرأي ، مع انهم لم يفطنوا الى الحريات الكثيرة المهدورة في ظل النظام الروسي .

والحق ان نظرة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تختلف بشأن المثقفين . ففي حين نرى المفاهيم البسيطة الواضحة التي تقوم عليها « الحياة الامريكية » لا تتعدى تفاؤلية القرن الثامن عشر ، والايمان بامكانية تحسين مقدرات عيش الانسان ، وعدم الاستناد الى جذور تاريخية ثقافية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

متوارثة، نرى الاتحاد السوفياتي يغاير ذلك . ولهذا فان المثقفين الاوروبيين يحقدون على الولايات المتحدة لانها نجحت في الوصول الى ازالة ما يشكون منه في مجتمعهم دون ان تسلك الطريق الذي يشير اليه دستور الثورية في نظرهم .

جحيم المثقفين

يكاد يكون تبادل الافكار بين الطبقة المثقفة في فرنسا ومثيلتها في الولايات المتحدة الامريكية عسيرا للغاية . ويرجع السبب في ذلك الى ان كلا من الفئتين تكاد تسير في خط يناقض اتجاه الخط الذي تسير فيه زميلتها الاخرى .

وعدد خريجي الجامعات في الولايات المتحدة اكبر كثيرا من عددهم في فرنسا من الناحية العامة ومن حيث النسبة المطلقة . وسبب ذلك بسيط للغاية ، فالتقدم العلمي وانتشار التعليم الجامعي يتتبع خطا بيانيا يكاد ينطبق مع الازدهار الاقتصادي وتطوره في اي بلد من البلدان .

الا ان انموذج الطبقة المثقفة في الولايات المتحدة ليس هو الاديب او الفنان ، بل الخبير المتخصص : رجل الاقتصاد او عالم الاجتماع . **والامريكيون يثقون في رجل التكنيك لا في ذلك المثقف المطلع على الاداب والنقد والفنون .**

وذلك بخلاف الوضع الراهن في فرنسا . ولذلك نجد ان هذه الاخيرة ترفع قدر مثقفيها الذين يلعنونها في حين ان امريكا لا تمنح اية تنازلات لمثقفيها الذين يعشقونها . فهل هذا يعني ان معيار الثقافة يختلف في الجانب الغربي من المحيط الاطلسي عنه في جانبه الشرقي ؟

من العسير الاجابة على هذا السؤال في الوقت الحاضر ، نظرا لقلة المعلومات المتوفرة . ولكنه يمكن القول بشكل اجمالي بانه اذا كانت فرنسا فردوس المثقفين ، فان الولايات المتحدة هي الجحيم في نظرهم . هذا اذا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اعتبرنا معايير المثقفين الفرنسيين هي القياس . ولكنني لا اظن المثقفين الامريكيين يوافقون على ذلك .

ولربما كانت بريطانيا العظمى هي البلد الوحيد من بين جميع الدول الغربية التي عاملت مثقفيها بطريقة ناجحة ومعقولة . وذلك كما قال احد المشاهير من السياسيين الانكليز لشخصية ادبية فرنسية . لقد قال :

« اننا نحن البريطانيين لا ننظر الى مثقفينا بعين الجدية والاهتمام ».

وبهذه الطريقة استطاع الانكليز ان يتجنبوا كلتا المصيبتين :

الاولى وهي النقمة على الحكم الحالي لدى المثقفين الامريكيين ، لان الدولة لا تفسح لهم المجال كي يظهروا .

والثانية ، وهي ذلك التقدير الرفيع الشأن الذي يتمتع به المثقفون واشباه المثقفين في فرنسا .

صحيح ان الحرب العالمية الثانية قد خلفها ذلك التوسع الكبير في حاجات المدارس والنهم الى القراءة بحيث امتص ذلك كثيراً من المثقفين البريطانيين الجدد ، فتخلصت الحكومة البريطانية مما كان يمكن ان ينتج عن بطالتهم ، الا انه وحتى لو لم يتم ذلك ، فان هؤلاء المثقفين كانوا سيظلون ينتقدون المجتمع ولكن دون ان يستطيعوا هز صرح ذلك المجتمع .

والحق ان المثقفين هم الذين زخرفوا مبادىء الاصلاح بافكارهم ، ولكنهم مع الاسف لم يستطيعوا ان ينقلوا الى الجماهير امكانية تمام ذلك الاصلاح دون اتخاذ العنف سبيلا الى تحقيقه .

والمثقف البريطاني لا يعزل نفسه عن مجتمعه ، ولكنه اعقل من ان ينغمس في لجة من الانعزالية عن بقية المجتمعات . انه يريد الاصلاح ، وعن طريق النظم البرلمانية تراه يميل الى الاعتدال والواقعية . وذلك بخلاف ما عليه الحال في فرنسا .

وبالاضافة الى هذا فان المثقف البريطاني يجد نفسه في حماية من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الانحراف بفعل واقع الضعف الذي يرزح تحته الحزب الشيوعي في البلاد، اما في فرنسا فالامر على النقيض من ذلك . اذ انه ليس هنالك ما يساعد المثقف الفرنسي على حماية نفسه من ذلك الشر .

ومما تقدم نجد ان المثقف في انكلترا اميل الى الاعتراف بميزات برلمانيته المستقرة . وهو يعلن على الملأ بانه وطني مخلص كما انه اممي طيب ايضا .

وفي الحين الذي يطمح فيه الفرنسي ان يجذب جميع غير الفرنسيين الى تقدير فرنسا ، نرى الانكليزي لا يعتبر اي مخلوق خارج قاطني جزره نفسها ، جديرا بان يتقن لعبة الكريكت او يمارس النظام البرلماني الصحيح.

ومن شأن هذه النظرة ان يعتبرها الاخرون مزيجا من الوقاحة والتواضع ، ولكن يبدو ان لها حسناتها على الاقل ، وانها ستنال مكافأتها اللائقة في يوم من الايام .

فالافريقيون والهنود وباقي الاسيويين الذين تتلمذوا في الجامعات الانكليزية سيظلون يلعبون الكريكت ، ويتمسكون بالنظم الديمقراطية .

المثقفون وايديولوجياتهم

من طبيعة الايديولوجيات السياسية ان تظل عرضة للاختلاف والتناقض الحزبي . ذلك لان الواحدة من هذه الايديولوجيات تعبر عن نظرة خاصة الى المستقبل . ولهذا فانه لا يمكن وصف اي منها بانها محض صواب او مطلق خطأ . وفلسفة ايديولوجية ما تستثير البحث والمناقشة لاثبات اوجه الصواب والخطأ فيها اكثر مما تدعو الى الحكم في انها مصيبة او غير مصيبة . وتتم تلك المناقشة بتشريح الايديولوجية الواحدة على ما ينطبق ومعطيات التاريخ ، وهل تتساوق مع ذلك ام لا . واكثر من هذا : ان ممارسة او تطبيق ايديولوجية ما ، من شأنها ان تغير وتعدل في تلك الايديولوجية الى حد كبير .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ففي الغرب مثلا ، كان المناخ السائد بعد الحرب العالمية الثانية يميل الى المحافظـــة . ولو ان الاتحاد السوفياتي لم يبرز كخطر مباشر يهدد اوروبا ، ولو ان الصين الشيوعية لم تقم بما قامت به من ثورة ، وتطـرد الاوروبيين ومصالحهم منها ، لم يطل من شواطئها رأس الاستعمار الاصفر على شكل تنين هائل ، ولو أن القنبلة الذرية لم تلق على اليابان فتسبب للعالم بكامله ذعرا وفزعا : لو ان شيئا من هذا لم يحـــدث لكانت شعوب الدول الغربية قد ابتهجت بعودة السلام الى الارض ، ولكان الامريكيون يتمتعون الآن بازدهار اقرب الى الاسطورة . اما الاوروبيون فكانوا قد ارتصوا بعد حماقاتهم الكثيرة بشيء من الحكمة والتعقل ..

ولكن .. ان شيئا من ذلك لم يقع ..

لقد استعادت الحرب قوتها .. وما زال العالمان يتقاتلان .

لقد تم استبدال حكمة كونفوشيوس بثورية ماركس .. واخـذت جموع غاندي في الهند تحلم بالقيام بنهضات صناعية جبارة .

وفي خريف عام ١٩٥٤ صمتت المدافع التي ظلت ملتهبة منذ سنة ١٩٣٩ ، بل منذ سنة ١٩٣١ على التحقيق . ولـكن خمود اصوات تلك المدافع لم يسكت الرشاشات الثقيلة ابدا .

لقد ظلت الحرب الباردة . وبدا انه لم يحن الوقت بعد لاغلاق بوابة اله الحرب ، مـــارس .

العوامـل الرئيسية

ان المنازعة بين الاشتراكية والرأسمالية في قارة اوروبا قد اخذت تفقد طاقتها ودوافعها العاطفية . ففي الحين الذي يتم فيه تصنيف الاتحاد السوفياتي كبلد اشتراكي يبدو انه عاجز عن وراثة التراث الرأسمالي في الغرب . وليس هنالك من الدلائل ما يشير الى ان الاشتراكية ستنتصر في كل مكان ، ولا ان الملكية الفردية ستخلي مكانها الى الملكية الجماعية .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

فقد حكمت الوقائع التاريخية ان فكرة توازي النظم مع مراحل التاريخ فكرة غير صائبة .

وها هي المجتمعات التي تطلق على نفسها اسم « المجتمعات الاشتراكية » سرعان ما تتكشف لها الحاجة الماسة الى ضرورة تبني نظام اقتصادي حديث لانها تبينت فساد نظامها .

وفي تلك البلدان ، تماما كما هي الحال في البلدان الرأسمالية ، نجد ان طبقة كبار الموظفين ، وهم الحاكمون ، هي التي تشرع القوانين . وهؤلاء يحتفظون لانفسهم بقيمة من الاجور والامتيازات والمنافع تعادل الربح الذي يحتفظ به اصحاب رؤوس الاموال في النظام الرأسمالي .

وحتى الوقت الحاضر ، نجد ان واضعي الخطط الاقتصادية في البلدان الاشتراكية لم يجدوا لهم متسعا كي يهتموا بمردود الاستثمارات كل على حدة ، او بمتطلبات المستهلك العادي . وما ذلك الا لما يشعرون به من حمى في سبيل رفع مستوى الانتاج العام .

ولكن هذا لن يطول ، اذ سرعان ما تنقشع هذه الغشاوة . وحينئذ يجد اولئك المخططون انفسهم يواجهون مشاكل جديدة .

هذا هو العامل الاول .

اما العامل الثاني في القرن الحاضر ، فهو التحدي الذي يواجه المؤسسات التمثيلية . واعني النظم البرلمانية بكاملها . فحتى سنة ١٩١٤ كان اهم ما يطلبه اليسار ، واكثر من اي شيء آخر ، هو الحريات . وكان ذلك ما يود اهل البلدان غير الاوروبية ان يقلدوه . اما هذه الحريات فهي :

حرية الصحافة ، والاقتراع ، وتشكيل المؤتمرات والجماعات السياسية .

وكان يبدو ان « البرلمان » هو السحر الذي يود المثقفون الروس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ان يحوزوا مثله ، ويتلهف الشباب الاتراك على نقله الى بلادهم .

وبين الحربين العالميتين ، الاولى والثانية ، اخفقت النظم البرلمانية في معظم الدول الاوروبية . وحاول الاتحاد السوفياتي ان يثبت ان تعدد الاحزاب ليس نقطة يكمن فيها سر القوة التي ينبغي للبلدان المتأخرة ان تنقلها عن الغرب الظافر . كان من شأن الازمات التي نشبت في امريكا اللاتينية ، والشرق الادنى ، واوروبا الشرقية ، ان تشل قوى الديمقراطيات الحديثة في تلك البلدان ، فصار يشك في صلاحية اقتباس التقاليد الانكليزية والعادات الامريكية فيها .

والنظام التمثيلي الذي تعطي كل من وستمنستر في بريطانيا ، والكابيتول في واشنطون خير نسخة منقحة عنه ، يسمح بالكثير من الحريات :

انه يسمح للفئات المهنية ان تتحد وتتجمع ، وللمذاهب الدينية المختلفة ان يحظى كل منها بشبه استقلال ذاتي ، ولاتحادات العمال ان تتحرك بحرية ، كل هذا كي تحفظ الواحدة من هذه الجماعات مصالحها وترضى بالحال التي تريد . وهذا بدوره يتطلب من الناس في هذه الجماعات ان يعتدلوا في معالجة تناقضات مصالحهم معا ، كما يتطلب وعيا كبيرا من الطبقة الحاكمة . وحتى شيئا من الاستعداد للتضحية في سبيل الحفاظ عليه .

ويهدد هذا النظام ، الشعور بعدم المسؤولية ، والمغالاة في الجدل السياسي العقيم (وليس طلقات المسدس غير عادية في بعض قاعات البرلمان في البلقان) .

وهكذا كان هنالك الخيار بين الحريات او التقدم الاقتصادي ، بين برلمان حر وبين محطات لتوليد الكهرباء ، بين يسار ليبيرالي وبين يسار اشتراكي . على هذه الصورة من التناقض بدا الامر في نظر الغرب ، مع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ان هذه النظرة غير صحيحة على الاطلاق .. ثم وقع ما وقع في روسيا .. واستطاعت ان تأخذ بشيء من الرقي الصناعي السائد في الغرب دون ان تأخذ بالافكار الغربية عن الحرية اذ قضي هناك على الحرية قضاء تاما .

وهذا هو العامل الثاني .

اما العامل الثالث ، فهو تلك العلاقة التي ترسخت بين اماني المثقف الاوروبي في القرن التاسع عشر ، وخصوصا في رفضه للنظام الرأسمالي ، وبين اماني المواطن الافريقي او الاسيوي في الوقت الحاضر . فالماركسية تخدع الافريقي والاسيوي وتدغدع المطامح التي يريد ان يكونها لنفسه بعد تخرجه من الجامعة .

وبفعل الانجذاب نحو هذه الايديولوجية تجد المثقف الاسيوي يحرف معنى ما يريده من انجازات . ويبدو ذلك واضحا في افكار مصلحي « مجي » في اليابان ، اذ ان هؤلاء شرعوا اول ما شرعوا في وضع دستور لبلادهم ، حيث اعتبروا الدستور ، شأنه شأن سكة الحديد او المصنع البخاري ، ضروري التقليد . اما حين يقلد الاسيويون النهضة الصناعية على الطريقة الروسية ، اي حسب النظام الجماعي ، فانهم يشعرون بانهم يحاولون اللحاق بتلك الدول الاوروبية التي اذلتهم في السابق . وهم لا يشعرون تجاه تلك الدول بشيء من الفضل ، فتراهم مجدين السير لسبقها في مد التاريخ المتصاعد .

والعامل الرابع في الوقت الحاضر هو ذلك الانقسام الذي لا يمكن تجنبه ، وهو انقسام العالم بين غرب وشرق . ولهذا الانقسام معان مختلفة ، فهو في طوكيو غيره في لندن ، وفي مدراس غير مثيله في باريس . فالنظام السوفياتي الذي يكبت الحريات ، ويخنق النظم البرلمانية ، ويضطهد المفكرين والعلماء ، يخافه الاوروبيون والامريكيون ، ويعتبرونه شيئا يبعث على الفزع من جميع الوجوه . اما بالنسبة لعيون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الاسيويين وما يرونه فيه من مصانع تحتشد فيها اعداد هائلة ، ومدن تضم الملايين من البشر ، فان ذلك النظام يوهم بانـــه يتمتع بحسنات النظم الاوروبية الاخرى كمـا ان فيه بعض سيئاتها . والامريكيـــون يسرهم ان يتصوروا روسيا تهدد شعوب العالم الحر ، وان امريكـــا تحمي تلك الشعوب . بينما يرى الاسيويون ان النزاع بين روسيا والولايات المتحدة لا يهمهم في قليل ولا كثير ، وان الاخلاق والضرورة يحتمان عليهم ان يقفوا على الحياد . ويبقى الاروبيون وهم يميلـون الـــى قبـول التفسير الذي يقول به الاسيويون ، لولا انهم يرون الجيوش الروسية على بعد مئتي ميل عن الراين ، فيرجعون الى الواقع عند ذلك .

وليس بوسع الصينيين او اهل اليابان او الهنود الا ان ينظـروا بعيـن شزرة الى الاستعمار الغربي الذي طردوه من اسيـا ، تمامـا كمـا ينظـرون الى ما يمكن ان تتمخض عنه زيادة النفوذ الروسي . كما انه ليس بوسع الاوروبيين الا ان يعرفوا بأن الاتحاد السوفياتي فقير ، بينما الولايـات المتحدة غنية جدا ، وان سيادة الاول معناها تطبيق تكنيك بدائي فـي التصنيع بينما ان سيادة الاخيرة تعني فيضا من الدولارات .

ويختلف الجدل الايديولوجي من قطر الى آخر حسب وجهـة النظـر الخاصة ، وطريقة التفكير التقليدية لذلك القطر . ولذلك فاننا ربما نقع على مناقشات ايديولوجية تعكس الى درجة كبيرة من الصدق ، قضايا ومشاكل يحاول ذلك القطر ان يجد لها حلا .

الخلافات على صعيد الوطن الواحد

هنالك اختلافات في الرأي بين المثقفين والحاكمين فيما بينهم في كل بلد على الاطلاق . ولكن نوعية هذه الاختلافات هي التي تكون في هذا البلد غير ما هي عليه في البلد الاخر . فالانكليز مثلا يختلفون فيما يتعلق بالتكنيك لا بالمبدأ . وتجد مناقشاتهم فاترة اميل الى التعقل والواقعية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

اذا كان الامر الذي يبحثونه يمس بريطانيا . اما حين يمس القارة الاوروبية او غيرها فانه ربمـــا يحمي وطيس المناقشة في تلك الحال . انهـــم يتخاصمون فيما اذا كان من مصلحة الاشتراكيين ان يصالحوا الشيوعيين في فرنسا او ايطاليا ، اما بخصوص هذا الامر في بريطانيا فانهم لا يظنونه جديـــرا بالمناقشة والجدل .

والجدل في اميركا ، مع انه من اصل انكليزي ، الا انه يختلف عن سلفه . وهو على غير شاكلة المجادلات الايديولوجية كما هي الحال في فرنسا . فالامريكي لا عهد له بالعقد الفكرية التي اعترضت فرنسا فـــي طريق تاريخها . انه لا يعرف مشاكل تناقضات فرنسا قبل الثـــورة وفرنسا بعدها ، ولا يتحسس رواسب الكاثوليكية وسيادة الفكر الحر ، وليست تطحنه الخصومة بين الراسمالية والاشتراكية . انه مرتاح من كل هذا . وليس في امريكا معنى للطبقة الارستقراطية ولا لأفكارها ، فقد محت كل ذلك حرب الاستقلال الامريكية . هنالك عقيدة عامة بضرورة توفير الفرصة للجميع ، والسعي لتذليل الطبيعة لمصلحة الانسان ، والميـــل الى السير حسب اخلاقية متعاطفة . وقد منع تعدد المذاهب والطوائف الدينية وقوع الاصطدام العنيف بين طبقة رجال الكهنة وبين المثقفين . ذلك الاصطدام الذي لعب دورا فعالا في اوروبا .

ومبدأ المساواة عند الاميركيين ، ليس ناتجا تولد عن ضغط ما ، اذ لم يكن هنالك اي اصطدام مع طبقة ارستقراطية حاكمة ــ لعدم وجود تلك الطبقة منذ الاساس ــ كما لم يكن هنالك تعارض مع الكنيسة ــ لقيام الكنيسة على مبدأ حرية الضمير منذ البداية ايضا .

ولهذا فاننا نجد الروح المحافظة قد اندمجت مع الروح الليبرالية حتى تكادا تكونا شيئا واحداً في الوقت الحاضر ..

ثم جاء التوسع الاقتصادي . فزاد من امكانية تجنب المنازعة وقلل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

من الاستعداد للانحراف نحو الاشتراكية .

ولهذا فاننا لم نشهد حركة اشتراكية ناشطة في الولايات المتحدة كما شهدناها في اوروبا ، وفرنسا على الخصوص .

وفي الولايات المتحدة نجد المجتمع لا الدولة هو المسؤول عن تكييف الفرد والقبول به او النفور منه . ومعنى هذا ان معارضة الفرد لما اصطلح عليه المجتمع لا بد وان تهدده بفقدان قيمته بين اوساط ذلك المجتمع ، فيخسر الفرد حينئذ مواطنيته ، وهي ارفع ما يطمح اليه ، وبخاصة اذا كان ذلك الفرد وافدا جديدا على البلاد .

ومن شأن تشكيل الاحزاب الحالية في الولايات المتحدة على هذه الصورة ، ان لا يسمح بجعل اي منها يساريا والاخر يمينيا . اذ ان الحزبين الكبيرين في البلاد يقومان على أساس اقليمي واجتماعي ايضا .

ولربما ان موجة « النظام الجديد » قد اكسبت « اليسار » معنى جديدا في مفاهيم الامريكيين ، ولكن هذا ، لم يكن عميق الجذور او كبير الاثر بحيث يغير شيئا من طبيعة الروح الامريكية المعتدلة ذاتها .

ومجمل القول : ان الاختلافات بين الامريكيين في الوقت الحاضر اقرب الى كونها تكنيكية منها الى كونها ايديولوجية ، شأنها في ذلك شأن ما هي عليه الحال في بريطانيا مع بعض الاختلاف .

ونأتي الآن الى فرنسا : ولا بد قبل ان نتحدث عن الجدل بين المثقفين في داخلها من ان نلم بشيء موجز عن النظام الحالي في البلاد . فمنذ ما بين سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٨ ، ثم طوال الحرب العالمية الثانية ، وما لحق فرنسا اثناءها من دمار ، ظل الاقتصاد الفرنسي شبه اعرج. فانتاجية القطاع الزراعي ، وهو القطاع الاقتصادي الهام في البلاد ، منخفضة . ونظام التوزيع فاسد ومتأخر . وحتى المؤسسات الصناعية عتيقة في تكنيكها ووتيرة انتاجها . هذا بالاضافة الى ادارة مقلقلة ، وجهاز حكومي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

شبه عاجز . وكان من جراء ذلك ان انخفضت نسبة المواليد في البلاد . فنشأ عن هذا الاخذ بنظام حماية الصناعة وما شاكل ذلك . كما نتج ما هو اهم من هذا ، وهو تقوية الميل الى اليسار واتساع نفوذ ايديولوجية الحزب الشيوعي .

وحين انتهت الحرب كان في فرنسا شأنها شأن باقي الدول الاوروبية الاخرى : مجندون للنظام السوفياتي ، واعداء لحلف الاطلسي ، وحياديون ..

ولكن ما لنا وهذا . لماذا لا نصل الى غايتنا مباشرة فنقول :

هنالك شيوعيون وغير شيوعيين .

والاولون يرون ان الغرب والشرق ، واعني المعسكرين الاقتصاديين ، لا بد وان تقوم بينهما حرب طويلة الامد ، اي منافسة اقتصادية لاجل طويل . ان الشرق هو الذي سيكسب الجولة ويكتب له البقاء .

هذا بينما لا يريد الآخرون ان يقبلوا هذه الفرضية على علاتها فيجاهدون كي يثبتوا الخطأ فيها . ومن اجل ذلك يعمدون الى القول بانه ليس صحيحا ان خير تعريف للغرب هو انه نظام يقوم على اساس الملكية الفردية ودافع الربح ، والمؤسسات التمثيلية فقط . انه ، اي الغرب ، اكثر من ذلك .

هذه هي نقطة الجدل الرئيسية عند المثقفين الفرنسيين من الطائفتين . ولكنهم كثيرا ما يخلعون عليها اثوابا من وجهات النظر السياسية والاقتصادية ، بل والعسكرية احيانا . مع ان هذا لا يغير من حقيقة الامر شيئا .

والحقيقة ان كلتا الطائفتين مخطئة في تناولها لنقطة البحث ، فالمثقفون غير الشيوعيين تنبع نظرتهم من فلسفات القرن التاسع عشر ، اي انهم لتعودهم التكلم على نطاق عالمي حين يبحثون امورا محلية ، تراهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

لا يلتفتـون الى مشاكـل بـلادهـم قدر التفاتهم الى اصلاح العالم .

وامـا الشيوعيون ، فانهم حين يقولون بآراء ثورية ، ثم يقبلون بتطبيقات غير ثورية يحاولون تجنب التهمة التي يمكن ان توجه اليهم من انهم طبقة غير فرنسية في فرنسا ، اي انهم يسيرون حسب مصلحة غير فرنسا بينما انهم فرنسيون .

وهذا الجدل الدائر في فرنسا خير مثل يمكـن ان يضربه مـن يريـد التمثيل لمشكلة المثقفين في بقية اوروبا غير الشيوعية ، ولكن مع بعض التحفظـات .

والواقع انـه ليست فرنسـا هي التي خلقت النظام الاقتصادي الرأسمالي ولا الاشتراكي . لكن الظروف التاريخية التي مرت على البلاد، وطبيعة العقلية الفرنسية هي التي تجعل مشكلة المثقفين عندنا تبرز بمثل هذا الوضوح .

المثقفون الاسيويون – الافريقيون والمثل الفرنسي

يخطىء المثقفون بوجه عام حين لا يقدرون امكانيتهم في التأثير على السياسة تقديرا كافيا . فالسياسيون في الواقع تلاميذ اولئك المثقفين بشكل او آخر . واذا كانت اهمية المثقفين لا تبرز على اشدها – مـن حيث تأثيرهم في السياسة – في بريطانيا او فرنسا ، فانها على النقيض من ذلك في كثير من البلدان الآسيوية والافريقية الحديثة الاستقلال .

وما على من يكابر في ذلك الا ان يدير نظره نحو آسيا وافريقيا . وهنالك يجد ان الكثيرين من خريجي الجامعات الاوروبية هم الذين يقودون الحركات الوطنية . بل واكثر من ذلك : ان من هؤلاء الخريجين اكثر من واحد قد تسلموا زمام الامر في بلدانهم فعلا .

وقد شرحنا في السابق اسباب وجود ميول اشتراكية في نفوس هؤلاء الزعماء الحاليين . اما الآن فسنشرح ذلك من وجهة نظـر اخـرى .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يأتي هؤلاء الآسيويون ـ الافريقيون الى الجامعـــات الاوروبية ، وهنالك يتلقون تعليما ليبراليا بعيدا كل البعد عن واقع المجتمع الـذي يرونه في بلد جامعتهم .

وهنالك يجدون مجالا خصبا للقراءة فيما يكتبه او كتبه المثقفـون الغربيون عن تحـرر القرن التاسع عشر وانطلاقه .

وهنالك يقعون على الكثير من المؤلفات التي تشرح الثورة الروسية وتشرحها من وجهة نظر دعائية خادعة .

وعلاوة على هذا يتلقفهم المثقفون الشيوعيون في اوساطهم فيضللونهم ويملأونهم نقمة عى كل شيء .

ولنفرض ان الشاب الوافد مواطن ياباني ، وان البلد التي قصدها هي فرنسا . ففي باريس يجد عددا كبيرا من المثقفين اميل الى اليسار ولكن الحكومة الفرنسية حليفة للولايات المتحدة ، فيبدأ النقد والهجوم .

ويأخذ الياباني ذلك الجدل عينه ، فيحاول ان يطبقه على اليابان . وهنالك يجد الامر متشابها ، فالحكومة اليابانية اميل الى اليمين . وبهذا يتوهم ان عليه ان يعارضها تبعا لما اكتسبه من تلقين وتوجيه ايام دراسته.

وسرعان ما يتذكر ان بلاده الآن مقهورة ، وان الولايات المتحدة هي التي تحميها بعد ان اذلتها في الحرب قبل بضع سنوات . وسرعان ما ينسى ايضا ان فرنسا كانت حليفة للولايات المتحدة اثناء تلك الحرب ، فيلتقي المثقفان : اليساري الفرنسي والياباني الوافد . وتكون نقطة الجمع بينهما كرههما للنظام الغربي المتمثل في الولايات المتحدة ، وكره كـل منهما لواقع بلاده وحكومتها الحاضرة .

ولا بد ان ينظر الياباني ايضا الى ناحية اخرى : فهو يرى انه لا مجال لبلاده ، في الوقت الحاضر ، ان تلعب دورا رئيسيا على صعيد السياسة الدولية ذلك لان القوة البحرية للولايات المتحدة لا تترك لها مجالا لذلك،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

كما ان النفوذ الروسي ـ الصيني لا يسمح لها بذلك على البر . ويحز في نفسه ان تكون بلاده قد انحدرت الى الدرجة الثانية ، فيزيد ذلك من نقمته اضعافا .

وعلى هذه الشاكلة ينظر المثقف الفرنسي ، اذ انه صحيح ان فرنسا ذات موارد اقتصادية لا بأس بها وعدد من السكان غير قليل ، ولكن كل هذا لا يؤهلها لان تلعب الدور الذي كانت تلعبه في السابق .

لقد اصبحت قوة من درجة ثانية .

وتشعر اليابان بشيء من عدم الانسجام في موقفها الحاضر ، فهي مضطرة الى ان تشعر بالالفة مع جانب لا يربطها به رابط ما ، بينما هي ممنوعة عن الاتصال بذلك الجانب الذي من طبيعتها ان ترتبط به . ولايضاح ذلك اقول : ان اليابان بظروفها الحاضرة حليفة للولايات المتحدة ، بينما هي عدوة للصين . هذا مع ان الصين هي مجالها الحيوي ، ومع ان الولايات المتحدة بعيدة عنها كل البعد .

وينطبق هذا الموقف على فرنسا . فهي مضطرة الان للشعور بالود نحو المانيا ، في حين ان التاريخ يذكر علاقات البلدين منذ قديم الزمان على صورة مغايرة . وفرنسا خصم لروسيا ، مع ان العداء مع روسيا ليس تقليديا كما هي الحال مع المانيا .

واليابان لا تشعر بالعداء نحو اي بلد آسيوي ، لا نحو كوريا الجنوبية ولا الفليبين التي كسبها العالم الحر لمصلحة الولايات المتحدة . وكذلك تجاه كل من اندونيسيا وبورما الحياديتين . وحتى الصين ، ومع شيوعيتها ، ليست موضع كره اليابان . واهل اليابان يشعرون بشيء من السخف في انفسهم وفي غيرهم حين يحاول هذا الغير ان يفرض ستارا من الخيزران بين اعظم حضارتين في شرق آسيا .

وليس هنالك اي شعور يمكن ان تتشارك فيه الروح الوطنية اليابانية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مع مشاعر الغرب الا كره الاتحاد السوفياتي والخشية من بطشه .

وحتى من الناحية الاقتصادية فاننا نجد كثيرا من المظاهر والخصائص المشتركة بين البلدين : اليابان في الشرق الاقصى ، وفرنسا على شاطىء المحيط الاطلسي . فحين كانت اليابان ستين مليونا كان بامكانها بجهد جهيد ان توفر لسكانها الطعام عن طريق الزراعة وتصدير المواد الخام . اما الآن ، وحين غدا سكانها تسعين مليونا ، فقد اصبحت بين نقيضين :

اما ان ترفع مستوى انتاجها الزراعي بحيث لا تستورد الا واحدا من خمسة من كل ما يستهلكه المواطنون من الارز ، او تجلب رؤوس اموال ضخمة للغاية حتى تتمكن من جعل التقدم الصناعي كفيلا بحل المشكلة .

وليس هنالك مشكلة من هذا النوع في فرنسا ، وخصوصا اذا اخذنا نقصان نسبة المواليد والخصب الزراعي في البلاد بعين الاعتبار . وهذا ما يجعل مستوى دخل الفرد الفرنسي ارفع من زميله الياباني بكثير .

ولكن للمسألة نظرة اخرى :

فمتطلبات الحياة العصرية للفرد الاوروبي ارفع من مثيلتها في آسيا . وبكلمة اكثر صراحة :

ان الفرد الفرنسي لا يقنع بالقليل من الرفاهية التي يقبل بها الياباني، او يحلم بها ذلك الياباني احيانا .

ومن ناحية اخرى ، ان المثقفين في كلا البلدين ناقمون لان الدولة لا تدفع لهم — او تسهل — الرواتب التي يرونها حقا من حقوقهم . كما ان المؤسسات الصناعية ونظم قيامها لا تزال عتيقة لم تساير التطور الذي حدث في الولايات المتحدة مثلا .

واليابان اشد جهلا بالمنافسة الحرة في الشؤون الاقتصادية من فرنسا . وكذلك فيما يتعلق بنظم الادارة والتوجيه في الصناعة . فالى عهد قريب كان البارونات (اي الامراء اليابانيون) هم الذين يحتكرون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مجالس ادارة المؤسسات الرأسمالية في البلاد .

ولما كانت الماركسية تنقد ذلك وتهاجمه بشدة ، فانها تجد لها قبولا في نفسية بعض المثقفين اليابانيين بهذا الخصوص .

والثقافة في اليابان ذات صبغة ادبية وفنية على العموم . ومن شأن هذه الطبيعة ان تخلق في ابناء تلك الثقافة ميلا الى التأمل النظري والشرود معه . ولهذا نرى بعض المثقفين يصرحون بانهم قادرون على ان يكونوا ديمقراطيين واشتراكيين معا ، اي في نفس الوقت ، ودون ان تؤثر فكرة من الاثنتين على الاخرى .

ومن شأن هذه الطبيعة ايضا ان تجعل ابناءها ينفون من الرأسمالية الامريكية والطريقة الامريكية السهلة في الحياة . انهم يمجون مبدأ « التعليم للجميع » ، ويميلون الى احترام مفاهيم القرون المتوسطة في اوروبا بهذا الخصوص .

والادب الياباني مليء بمعاني الولاء والخضوع للسادة الكبار ، وفيه شيء من روح الفروسية والشهامة والتضحية .

وصحيح ان الحياة الامريكية تجذب الجماهير ، ولكن هؤلاء يتأثرون بدورهم تأثرا كبيرا بما يكتبه المثقفون من مواطنيهم .

ومن كل ما تقدم يمكن استخلاص ان كلا من الطبقة المثقفة في فرنسا واليابان تشترك مع الاخرى في :

١ ـ النظرة التقدمية للفكر .

٢ ـ النقمة على بقايا الاقطاع الصناعي .

٣ ـ الطموح الى الاخذ بالاقتصاد المبرمج .

٤ ـ كره السيطرة الامريكية ، لا لانهم يكرهون الرأسمالية الامريكية ، او ينتقدون المكارثية في الولايات المتحدة ، بل لان قوة الولايات المتحدة جعلتهم يشعرون بالضعة امامها كما انها زحزحت فرنسا عن مكانتها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

السابقة .

وهنالك اوجه فروق بين اليابان وفرنسا . فالفرنسيون قد وصلوا الى هذه المرحلة من تاريخهم عبر تطورات بطيئة احيانا وعاصفة اخرى ، ولكنها في الحالتين تدريجية ذات جذور عميقة في مجتمعهم . وذلك بخلاف أهل اليابان الذين ما كانت ثقافتهم تحلم قبل مئة عام بما بلغته في الوقت الحاضر .. لقد قفزوا ، وكانت قفزتهم في عالم الميتافيزيقية الى عالم الكهرباء والمصانع وارتقاء التكنيك . ومن شأن هذه الطفرة ان تجعل موازين ثقافتهم التقليدية تختل . وقد اختلت بالفعل ، وقبل ان يتمكنوا من ان يقيموا لانفسهم معايير جديدة تتقبلها نفسية الشعب الياباني .

وزاد الامر تعقيدا ، ان جاءت اميركا بعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية تحاول فرض معايير ثقافية جديدة على مثقفين لم يكونوا قد استطاعوا تثبيت انفسهم في امكنتهم بعد : كان المثقفون اليابانيون يحاولون تخليض رؤوسهم من افكار عبادة الارض الام والاله الحاكم ابن الشمس ، وضرورة الخضوع للاسياد ، كي يستبدلوا بها مفاهيم الحرية والاخاء .

وجاءت اميركا ... ووجدوا امامهم الافكار الماركسية . فوقعوا في حيرة من امرهم لا يدرون ما يفعلون .

وينطبق هذا الامر على غير اليابان من بلاد آسيا وافريقيا الحديثة الاستقلال . ففي سيلان مثلا نجد المثقفين اميل الى الاعتدال في يساريتهم . وهم يرون ضرورة الاخذ بمختلف مجالات التقدم ـ والاقتصادية منها على الخصوص ـ لكنهم يفضلون ان يكون ذلك بالتدريج ، ودون احداث رجات عنيفة للمجتمع .

وليس هذا الراي عندهم وليد ميل الى اليمين ، كلا ، وانما هو ميل الى المسالمة فقط .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ونحن نجد المثقفين في بورما منشقين على انفسهم ، فمنهم من عين موقفه وربط مصيره بالشيوعية ، ومنهم من حـــارب الشيوعيـــة بجـــراة وشجاعـــة .

والى القارىء الـكريم نبذة يسيرة عن الاوضاع في الهند :

تزخر الهنـــد بملايين الفلاحين البائسين ممن يعتنقـون الديانـة الهندوكيـــة .

وهي اكثر بلد يتمتع المبشرون واعضاء الارساليات الدينيـــة فيها بحرية كبيرة للعمل ، حتى ان عددا كبيرا من الناس يهجر ديانته التقليدية ليعتنق المسيحية كل عام .

وهي كذلك اكثر بلد في آسيا تلقي بعدد كبير من اصوات الاقتـــراع لمصلحة الشيوعيين المحليين .

فما هو السر في جميع كل هذه العجائب ؟

يذهب المبشر الى الريف الهندي فيقوم بالدعوة لدينه ، وكثيرا ما يكون ذلك عن طريق التعليم .. وحينئذ يكون ذلك المبشر قد اخذ في عملية انتزاع الهندوكي من وسطه وبيئته ، وفي هذه الحال يجعله اكثر استعدادا للوقوع فريسة في براثن المبادىء الماركسية . فالمبشر حين اخـذ يدعو لدينه يزرع الشك في قلب الهندوكي البائس الذي يطلب الخلاص من واقعه النكد . وهو يرضى اول الامر بان ينظر الى امل الحياة المرفهة بعـد المـوت .

ويهاجمه الماركسي ، صاحب ديانـــة التاريخ ، فيقنعـــه ان لا حاجـــة للانتظار ، ويوهمه ان آماله يمكن ان تتحقق في هذه الدنيا . وفي هـــذا ما فيه من اغراء . ويقبل بذلك الهندوكي فيفدو متشيعا في افكاره ان لم يكن شيوعيـــا .

وبذلك يكون المبشرون قد مهدوا للمبادىء التي يخاصمونها ان تنتصر دون ان يشعروا بذلك . واكثر من هذا يكونون قد قاموا بفتح طريق يؤدي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الى اعداد من البشر سيقفون ضدهم بعد قليل .

ولربما عن للبعض ان ينصح بعدم ارسال بعثات تبشيرية الى هناك. ولكن الخطأ ليس في الافكار المسيحية التي يدعون اليها ، بل يرجع الى الظروف نفسها . اذ انه من السهل على من كان ذا ديانة وضعية ان يعود الى تلك الافكار حتى ولو مرت عليه فترة كون فيها لنفسه افكارا روحانية سامية . واهدف من ذلك الى القول : انه اسهل على الهندوسي ان يتقبل الماركسية فيعود في الواقع الى نسخة مشوهة من افكاره المحلية نفسها من ان يعتنق ديانة جديدة كالمسيحية .

وهنالك ناحية اخرى يجب الالتفات اليها حين ولوج مثل هذا الباب من بحثنا الحاضر . فالحضارة الاوروبية قامت على اساس الحرية ، لا على اساس حق الاقتراع ولا النظام البرلماني . وليس هذان الا شكلين من مظاهرها المتعددة ومعاوناتها . ونظام تعدد الاحزاب والوصول الى قرار ما عن طريق المناقشة والجدل ، امر لم يتعود عليه غير الاوروبيين .

هذا علاوة عن ان النظم الغربية لا تشبع تشوق غير الاوروبيين الى السرعة في معالجة قضاياهم ، فهي بطيئة بطبعها كما انها مترددة تخشى الزلل .

ولربما رفض غير الاوروبي الشيوعية ، ولكنه قد يخدع ببعض اوهامها . ومن ثم يجد نفسه يقترب شيئا فشيئا من الاخذ بناحيتها السياسية . وذلك لما يبدو له من ترابط بين الناحيتين .

والهندي ينظر الى جارته الصين ، فيرى بعض المصانع التي انشئت فيها ، فيبهره ذلك ، ولا يصطبر ليفكر في الثمن الباهظ الذي دفعه جاره الفرد الصيني من حريته ثمنا لذلك .

لقد كانت الهند واندونيسيا خاضعتين لقوة حكومات غربية .. وقد زال نفوذ تلك الحكومات . فوجدت حكومة الهند الجديدة ، مثلا ، نفسها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في فراغ . انها لم تمارس السيطرة عن طريق حرية المناقشة من قبل ، كما ان الظروف تزحمها من كل ناحية . فماذا تفعل ؟

لقد خلفت اوروبا حين انسحبت من آسيا ، مكانها فراغا هائلا . وكان على الحكومات الناشئة ان تملأ ذلك الفراغ . وهنا برزت مشكلة عويصة .

وقد تقدم المثقفون ليحاولوا الوصول الى حل ما . وما استلفناه عن مشاكل المثقفين الخاصة وحده ، كفيل بان يدلنا على ما يمكن ان تكون عليه طريقة الحل من شأن .

ولننتقل الآن الى الصين :

اذا راجع المرء تاريخ مختلف البلدان في آسيا وجد ان شبه قارة الصين بملايينها الكثيرة كانت اعز هذه البلدان جانبا ، واكثرها محافظة على الكبرياء الوطنية . ولكنه يجد ايضا ان الاذلال الذي عانته الصين لم يعان مثله اي بلد اخر .

ولست اعني بالاذلال فتح البلاد وقهرها ، كلا ، فليس هنالك من يستطيع ان يقهر الصين ـ وكل ما يفعله المنتصر هو مجرد الاستيلاء على العرش فيها ، كما فعلت اسرة مانشو ـ وانما اعني مثيلات :

حرب الافيون ، وتدمير القصر الصيفي للامبراطور ، والامتيازات الاجنبية ، وسياسة رفع العصا الغليظة . كل هذه قد تركت جرحا عميقا في نفوس الصينيين سيطول عليه الزمان قبل ان يندمل اثره .

وجاء الشيوعيون .. فكان اول ما فعلوه ان محقوا الجاليات الدينية في بلدهم .

لقد كانت المعتقدات التقليدية في الصين ذات طبيعة اخلاقية واجتماعية . وكانت تسمح بان يتولى الادباء والمفكرون من رجال القلم ، المناصب الرسمية الادارية في البلاد . هذا ما تؤيده المباديء الكونفوشيوسية .

وحين زالت الامبراطورية بزوال الامبراطور ، زالت معها تلك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الايديولوجية . واصبحت قارة الصين مستعدة لاستقبال ايديولوجية جديدة .. وكانت هي الشيوعية هذه المرة .

كان المثقفون الذين اعتنقوا الشيوعية في الصين قبل سنة ١٩٤٩ اقلية ضئيلة للغاية . اما المثقفون الذين كانوا يحبذون الافكار الثورية على واقعهم منذ سنة ١٩٢٠ فقد كانوا اكثر من ذلك بكثير . ولكن هؤلاء ما كانوا يفرقون بين النهضة التحررية على الطريقة الاوروبية ، والثورية الهدامة التي سلكتها الثورة الروسية .

وهؤلاء هم الذين ساندوا الكومنتانغ ..

ثم عقبت ذلك سني الحرب الطويلة وانكشف فساد الكومنتانغ بصورة بشعة ، وسادت اجراءات بوليس الارهاب في البلاد ، وعمت المحسوبية ، فكان من شأن هذا ان يبعد المثقفين عن الكومنتانغ ويجعلهم حلفاء بحكم الضرورة مع ماوتسي تونغ .

والآن : ترى هل تستطيع الشيوعية ، وهي مادية وزمنية ، ان تستحوذ على عقول المثقفين الصينيين ، وهم اخلاقيون ، فتكون عقيدتهم ؟

ان عدم تقدير الاسرة ، وسيطرة الدولة على كل كبيرة وصغيرة للفرد والمجتمع ، كما هي الحال في الشيوعية ، تتناقضان تناقضا اساسيا مع طبيعة العقلية الشرقية التقليدية ، وتتعارضان مع تراث الشرق الروحي والاخلاقي .

وان المرء ليتساءل فيما بينه وبين نفسه فيما اذا كانت آسيا ستحفظ روح التسامح التي رعتها الاديان ، والتي كانت سوط عذاب لاهب في الغرب ، او انها (اسيا) ستترجم المذهب الجديد بشكل يسمح فيه لمن لا يؤمنون بهذا الدين المزعوم الذي يفرض نفسه بالحديد والنار بأن يظلوا احياء ، وان كانوا يعيشون في ذلة واحتقار ويتخلون عن جميع القيم والمقدسات !..

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

فهرس

مقدمة بقلم قدري قلعجي ٥

الفصل الاول : اليمين واليسار

خرافة اليسار ٣٢
خرافة رجعية ٣٣
عدم ارتباط القيم ٤٤
ديالكتيك النظم ٥٨
الفكرة والواقع ٧١

الفصل الثاني : الثورة والثوار

خرافة الثورة ٨٤
الثورة والثورات ٨٥
نفوذ الثورة ٩٢
الثورة والانقلاب ٩٨
اسطورة البروليتاريا ١٠١
تحديد معنى البروليتاريا ١٠٢
التحرر النظري والانعتاق ١١٠
البلادة في التحرر ١١٢

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفصل الثالث : نحن والتاريخ

التفاؤل السياسي ١١٦
معنى التاريخ ١٢٣
جماعية المعاني ١٢٤
الوحدات التاريخية ١٣١
غاية التاريخ ١٣٩
التاريخ والتعصب ١٤٣

الفصل الرابع : الحتمية التاريخيـة

خدعة الضرورة والحتمية ١٥٠
حتمية الحظ ١٥٠
التنبؤات النظرية ١٥٤
التنبؤات التاريخية ١٥٩
السيطرة على التاريخ ١٦٢

الفصل الخامس : الثقافة والسياسة

المثقفون ووطنهم ١٧٠
من هـو المثقف ١٧١
السياسة والمثقفون ١٧٧
فردوس المثقفين ١٨٠
حجم المثقفين ١٨٦
المثقفون وايديولوجياتهم ١٨٨
العوامل الرئيسية ١٨٩
الخلافات على صعيد الوطن الواحد ١٩٣
المثقفون الاسيويون ـ الافريقيون والمثل الفرنسي ١٩٧

This file was downloaded from QuranicThought.com